

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

خمسون خطبة عصرية في قضايا الساعة

إعداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤١هـ / ٢٠١٩م



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيدُ إلا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْـتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فيسرنا أن نقدم للسادة الأئمة والخطباء والمثقفين والمعنيين بالشأن الدعوي في مصر والعالمين العربي والإسلامي ومختلف دول العالم نخبة مختارة من الخطب العصرية في قضايا الساعة ، والتي تم أداؤها بالفعل في إطار خطة وزارة الأوقاف المصرية لتقديم خطاب ديني عصري رشيد نابع من روح العصر وتحدياته ، يراعي واقع الناس وحاضرهم وظروف زمانهم ومكانهم ، مع الحفاظ على ثوابت الدين والتحرك في إطار متغيراته.

وفي هذا الكتاب ما يؤكد أن الخطاب الديني خطاب حيوي وديناميكي ومتجدد ، وليس بمعزل عن دنيا الناس وقضايا العصر ، وأنه حيث تكون المصلحة يكون الخطاب الديني المستنير .

كما أنه يسلط الضوء على قضايا في غاية الأهمية من قضايا الساعة ، كالتخطيط وأثره في حياة الأفراد والمجتمعات ، وترتيب الأولويات ، ومبدأ الحق مقابل الواجب ، واحترام النظام العام ، والتطبيق العصري لمفهوم الواجب الكفائي ، وخطورة الشائعات

وتزييف الوعي ، وحتمية القراءة المقاصدية الواعية لنصوص الشرع الشريف ، ومفهوم عهد الأمان في العصر الحاضر ، وعوامل بناء الدول ، وبناء الوعي وأثره في مواجهة التحديات ، وأسس التعايش السلمي ، قصد إحداث تغيير جذري في بنية الخطاب النمطية بالتحول إلى بنية أكثر عصرية وتفاعلًا مع قضايا العصر ومستجداته ، وبما يؤدي إلى تصحيح الصورة الذهنية السلبية ، التي تكونت تجاه الخطاب الديني في مراحل الجمود الفكري .

وقد راعينا في أسلوب هذه الخطب السهولة واليسر ، والبعد عن التقعر والتكلف ، والنمطية ، والتقليد ، سائلين الله (عز وجل) أن يكتب لها القبول ، وأن تكون زادًا علميًّا وفكريًّا ومعرفيًّا في مجال الثقافة الإسلامية الرصينة الواعية ، وأن تشكل إضافة متميزة للمكتبة الدعوية في مصر والعالم كله .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أ . د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف

أهمية التخطيط في حياة الفرد والمجتمع

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإنّ الله (عز وجل) لم يخلق الإنسان عبثًا ، بل جعل له في الحياة رسالةً وهدفًا يسعى لتحقيقه ، قال سبحانه وتعالى : {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦].

وهذا الهدف لن يتحقق إلا بتدبيرٍ وإعدادٍ وتخطيطٍ ، فالإنسان الذي يسير على غير هدى لا يعرف له وجهة ، ولا يدرك له غاية ، فهو إنسانٌ تتعاوره الضربات لتسقطه صريع المحن ، بائس الحال ، شقي النفس ، قليل الإنجاز أو عديمه .

قال عمر (رضي الله عنه) : " إِنِّي أَكْرَهُ الرَّجُلَ أَنْ أَرَاهُ يَمْشِي سَبَهْلَلًا " أَيْ : لَا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا فِي أَمْرِ الآخِرَةِ . (الآداب الشرعية لابن مفلح) ، وقد صح في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَال : قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) : " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغ" (صحيح البخاري) .

والتخطيط للمستقبل أخذ بالأسباب ، وهو لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى ، فلا حرج على المسلم أن يقول : " إن شاء الله سأفعل كذا "،

قال تعالى : {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الكهف: ٢٣، ٢٤] ، وقد أشار القرآن الكريم في قصة ذي القرنين إلى أنه أخذ بالأسباب ، وخطّط للمستقبل ، وفي ذلك يقول الله تعالى : {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}[الكهف٩٣-٩٧].

وفي قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) كان التخطيط سببًا لنجاة البلاد والعباد من مجاعة مهلكة ، وخطر محدق ، قام بذلك نبي الله يوسف (عليه السلام) في خطة استغرق تنفيذها خمس عشرة سنة ، وذلك في تأويل يوسف لرؤيا الملك كما حكى القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}(سورة يوسف: ٤٧ – ٤٩) ، لقد وازن سيدنا يوسف (عليه السلام) بين الإنتاج المتقن والعمل الدؤوب والاستهلاك الرشيد ، والادخار المحكم ، لقد أدرك المشكلة ففكر في الحلِّ ولم يبخل به على من سجنوه ظلمًا وعدوانًا ، فإنّ المصلحة العامة عنده مقدّمة على

المصلحة الخاصة ، وهذه دروس بالغة الأهمية ، فلا ينبغي الاكتفاء بعرض المشكلة فقط والوقوف عندها ، بل ينبغي السعي لإيجاد المخرج من الأزمة .

ومن أراد أن يتعلم التخطيط فليتأمل هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد كان (صلى الله عليه وسلم) نموذجًا للقائد والمعلِّم ، فتراه وهو في رحلة الهجرة يخطط ويدبر ويثق في نصر الله (عزّ وجلّ) أولاً وأخيرًا. إنه يأتي بعلي بن أبى طالب (رضي الله عنه) ؛ لينام في فراشه على سبيل التمويه ، ويسلك طريقًا وعِرًا غير مأهول ولا معتاد ، ويختبئ في الغار حتى يهدأ الطلب عليه وعلى صاحبه ، ويدبر من يأتيه في الغار بالأخبار والطعام ، ومن يعفي على الآثار ، ويحسن انتقاء من يقوم بكل مهمة ، وهُو في هَذا كلّه متوكلٌ على الله تعالى ، مُعلنًا أنه في معية الله تعالى ، فيقول لصاحبه : {..لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا..}[التوبة:٤٠] .

ومن حسن التخطيط والأخذ بالمشورة معًا ما كان منه (صلى الله عليه وسلم) في يوم بدر حين قال لأصحابه : " أَشِيرُوا عَلَيّ فِي الْمَنْزِلِ" فَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ : يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْت هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللّهُ فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ وَلَا نَتَأَخّرَ عَنْهُ أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: " بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ". قَالَ فَإِنّ هَذَا لَيْس بِمَنْزِلٍ انْطَلِقْ بِنَا إلَى أَدْنَى مَاءِ الْقَوْمِ فَإِنّي عَالِمٌ بِهَا وَبِقُلُبِهَا ، بِهَا قَلِيبٌ قَدْ عَرَفْت عُذُوبَةَ مَائِهِ وَمَاءٌ كَثِيرٌ لَا يَنْزَحْ ثُمّ نَبْنِي عَلَيْهَا حَوْضًا وَنَقْذِفُ فِيهِ الْآنِيَةَ فَنَشْرَبُ وَنُقَاتِلُ وَنُغَوّرُ مَا سِوَاهَا مِنْ الْقُلُبِ . (مغازي الواقدي).

وفي يوم أحد يدير (صلى الله عليه وسلم) المعركة باقتدار حقّق به المسلمون النصر في أول المعركة ، وهو يخطط للميدان تخطيطًا تميز بالمرونة ، فقد انسحب عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش قبل بداية المعركة ، ومع ذلك يعيد النبي (صلى الله عليه وسلم) توزيع الجيش ليسيطر على الميدان ، ويوزع المسلمين على أماكن القتال ، وعندما خالف المسلمون الخطة دارت عليهم الدوائر ، ففي حديث الْبَرَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ : لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) جَيْشًا مِنْ الرُّمَاةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عبد الله بن جبير (رضي الله عنه) وَقَالَ:" لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا" فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ، عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أَنْ لَا تَبْرَحُوا فَأَبَوْا ، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا. (صحيح البخاري).

وفي يوم الخندق يخطط (صلى الله عليه وسلم) ويستشير أصحابه ، ويأمر بحفر الخندق حول المدينة (سيرة ابن هشام) ، وهو أمر لم يكن معلومًا في خطط العرب في القتال ؛ ليحافظ على الدولة من الأعداء المتربصين بها ، المحاصرين لها ، حتى كشف الله غمهم ، وأزاح همهم .

وإن من حُسْنِ التخطيط حُسْنَ توظيف المهارات ، بأن تضع الرجل في موضعه المناسب ليحسن العمل ، يظهر ذلك جليًّا من خلال عدة مواقف للنبي (صلى الله عليه وسلم) نذكر منها :

اختياره لأسامة بن زيد (رضي الله عنهما) قائدًا لجيش من جيوش المسلمين على الرغم من صغر سنه . (سنن أبي داود) .

ترتيبه لقادة الجيش في غزوة مؤتة ؛ لأجل تحقيق النصر على الروم ، حيث وضع كل رجل في موضعه.(صحيح البخاري) .

اختياره لزيد بن ثابت (رضي الله عنه) ؛ ليتعلم اللغة العبرانية ويتولى الترجمة له (صلى الله عليه وسلم) (سنن أبي داود) .

اختياره لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) لمهمة القضاء في اليمن ؛ لفقهه وعلمه وبراعته. (سنن أبي داود) .

من هذا نرى مدى إدراكه (صلى الله عليه وسلم) لمهارات كل فرد من أصحابه ، ومدى الاستفادة منها بحسن توظيفها .

وعلى المستوى الشخصي يوجه النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه إلى النظر للمستقبل نظرةَ تدبيرٍ وحسابٍ لصروف الزمن ومتغيرات الحياة، فها هو سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) يقول : كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ ، فَقُلْتُ : لِي مَالٌ ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ : "لاَ" قُلْتُ : فَالشَّطْرِ؟ قَالَ : "لاَ" قُلْتُ : فَالثُّلُثِ؟ قَالَ : "الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يَرْفَعُكَ ، يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ ، وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ" . (صحيح البخاري) ، فهذا توجيهٌ إلى أمرين:

الأول : التخطيط للأسرة في مستقبلها المادي تخطيطًا يقيها صروف الزمان.

الثاني : فضل النفقة على الأهل .

وقد تعلم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ذلك من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا به يخطط للدولة الإسلامية فيقيم فيها الدواوين ، ويرتب الولاة ، وينظم بيت المال ، وحين تتعرض الدولة لمجاعة في عهده يحسن إدارة الأزمة والتخطيط لمواجهتها ، وهو بهذا الفكر وهذه الإدارة يقفز بالدولة الإسلامية الفتية قفزات واسعة ، سادت بها الدنيا شرقًا وغربًا . (البداية والنهاية) .

ثم جاء حفيده عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) الذي أعاد التخطيط للبلاد ؛ ليعيد توزيع الموارد للبلاد بالعدالة الاجتماعية المرجوّة ، ويخطط لاستغلال الفائض من الزكاة ؛ ليعيد توزيعه فيما ينفع الناس ، فيوزّع على الفقراء ، ثم يسد الديون ، ثم يُزوّج الشباب الذي لا يستطيع النكاح ، ثم يعطي فقراء أهل الكتاب ، ولحسن تخطيطه وصدقه مع ربه يبارك الله له حتى أطعم الحيوان والطير على رؤوس الجبال . (أخبار عمر بن عبد العزيز للآجري) ، فما أحوجنا إلى هذا التخطيط في حياتنا ؛ لنحقق الكثير لديننا وأنفسنا وبلادنا !

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللَّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن العظماء هم الذين يعرفون هدفهم فيخططون لبلوغه ، فإن كانوا أفرادًا كانوا ناجحين ، وإن كانوا قادة كانوا لشعوبهم ملهِمِين وبالمسئولية قائمين .

إن بلدنا في حاجة ماسّة إلى أن نضع خططًا قوية تنهض بحاضرها ومستقبلها في كل المجالات الزراعية والتجارية والتعليمية والاقتصادية والعسكرية والإدارية ، ولا بدّ أن تراعي هذه الخطط الحفاظ على الكفاءات ، وتُقِيم مبدأ تكافؤ الفرص بما يحقق العدالة الشاملة ، فبدون تخطيط سليم ووعي لمستقبلنا ، وإدراك لما حولنا لن يتحقق لنا تقدم ورفاهية.

وفى الوقت الحالي تمر بلادنا بمنعطف خطير في تاريخها، لا يسمح بالفوضى ، بل لا بد من الإعداد الجيد ، والتخطيط السليم ، والأخذ بالأسباب ، وحسن التوكل على الله ، والثقة فيه ، فليحدد كل منا رسالته وهدفه في الحياة ، وليجتهد لتحقيق هدفه ، وبلوغ أمله ، فالتخطيط السليم والعمل الجاد ثمرتهما حياة طيبة وأجر حسن ، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل٩٧].

وللتخطيط أهميةٌ في حياتنا الخاصة ، فإنهم يقولون : " التدبير نصف المعيشة " ، ويروى مرفوعًا : " ما عال من اقتصد " (مسند أحمد) ، وحسن التدبير وتصريف الأمور وفق الإمكانات المتاحة وعدم تكليف النفس فوق طاقتها أحد أهم عوامل استقرار الأسرة والمجتمع .

مبدأ الحق مقابل الواجب
وسيلة لإصلاح المجتمع

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الإنسان مدني بفطرته ، لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن غيره ، ولا يقضي حاجته وحده ، وإقامة الحياة وإنشاء الحضارة والعمران يتطلب التعايش بين الناس ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات: ١٣] ، وهذا التعايش لن يتم ولا يكون سلميًّا متوازنًا إلا إذا قام على مبدأ معرفة الحق مقابل الواجب ، وهو مبدأ إسلامي أصيل وتوجيه رباني عظيم يتربى عليه المؤمن من خلال معرفته بدينه، فأنت تقرأ قول الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة: ٥]، فالعبادة حق الله تعالى على خلقه وواجبهم نحوه ، والإعانة من الله تعالى لخلقه منحته وعطاؤه ، فحق الله على عباده مقدم على طلب الإعانة ، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ : "يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ". قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: "يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ". قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةَ

ثُمَّ قَالَ: "يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ". قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: "هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ : "فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا". ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: "يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ". قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: "هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ". قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ"(متفق عليه)، وكذلك وضح لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا المبدأ وبينه في قوله : "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ" (سنن الترمذي).

وعلى هذا المبدأ – الحق مقابل الواجب – تُبنى الحضارات وتعمر البلاد ويعم الصلاح ويأتي الإصلاح ، ويتحقق التمكين في الأرض ، كما قال تعالى : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[النور: ٥٥] وقال سبحانه وتعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل: ٩٧].

إن معرفة الإنسان حقوقَه وواجباتِه تجعله إنسانًا إيجابيًّا في مجتمعه، نافعًا لوطنه ، لا يصطدم مع الآخرين من حوله ، فهو لا يعتدي على حقوق الآخرين ، فلا يأخذ ما ليس له ، ولا يُنزَعُ منه ما هو له ، فحين إذٍ لا نجد حقدًا ولاحسدًا ولا أنانيةً ، وتعم المحبة والمودة .

أما جهل الإنسان بحقوقه وواجباته نحو عمله وأسرته ووطنه وعمله وجيرانه وأقرانه فيجعل المجتمع يعاني الكثير من المشكلات والآفات ؛ لأن في ذلك اختلالاً للتوازن ، وإذا اعتمدت الأمة مبدأ السهولة والمطالبة بالحقوق وأغفلت مبدأ القيام بالواجب فإنها أسرع إلى الزوال، فحرصُ الإنسانِ على حقه وتركُه واجبَه هو الأثرة والأنانية ، وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِى أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا". قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ ؟ قَالَ: "تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِى عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِى لَكُمْ" (متفق عليه)، والأثرة والأنانية تحيل المجتمع إلى ساحة من الصراع ، وهذا لا يتفق مع مراد الإسلام وهدفه من إقرار مبدأ الحق مقابل الواجب .

إن الحق ليس هدية تعطى ولا غنيمة تغتصب ، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب ولكل سعيٍ أثرُه ومنفعته وإن قَلّ .

إن معرفة الحقوق والواجبات سبيل النهوض بالبلاد والرقي بالأمة، وهي حقوق متبادلة بين الأفراد ، يعم نفعها على الجميع ولا تأتي في صالح فرد دون الآخر، فهناك مثلاً حقوق للآباء والأمهات في أعناق الأبناء يجب أداؤها ومراعاتها ، وفي مقابلها حقوق للأبناء في أعناق الآباء والأمهات ، فحق التربية والتهذيب والتعليم وغيره واجب على الآباء، يقابله حق البر من الأبناء لهم ، فلا بد للآباء أن يؤدوا واجباتهم ليساعدوا الأبناء على الحق الذي لهم ، فرحم الله والدًا أعان ولده على بره ، وهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوجه الآباء إلى ما تطيب به نفوس بنيهم ويساعدهم على البر ، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله

عنهما) قَالَ انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي. فَقَالَ "أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ". قَالَ لاَ. قَالَ : " فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي – ثُمَّ قَالَ :" أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً". قَالَ بَلَى. قَالَ : " فَلاَ إِذًا " (صحيح مسلم).

وحقوق الأبناء والآباء تأتي في مراحلها وحسب تدرج المراحل العمرية للإنسان ، فإذا كنت اليوم ابنًا فأنت غدًا أبٌ ، وهكذا تتغير الحقوق والواجبات في كل مرحلة عن غيرها. لكن الحق مقابل الواجب بين الآباء والأبناء قد يكون الوفاء به من قِبل الله تعالى ، فهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يَبَرُّ أباه ، ويسلك كل السبل في هدايته وإرشاده ، ثم يلقى منه الصدود والإعراض ، يقول الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}[مريم: ٤١ – ٤٧].

فهذا رفق الابن المؤمن، وهذا ردُّ الأب الكافر ، فكان الجزاء من الله تعالى في ولده إسماعيل (عليه السلام) الذي أطاعه فيما لا يُطاع فيه أحد من الخلق ، يقول تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ

قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}[الصافات: ١٠١، ١٠٢].

وهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين أفراد الأسرة الواحدة ، فللزوج حقوق على الزوجة ، وللزوجة حقوق على الزوج ، والله تعالى يقول: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[البقرة: ٢٢٨]، وقد بيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك بقوله: " أَلاَ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلاَ وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ" (سنن الترمذي).

كما فرض الإسلام حقوقًا بين المسلم وأخيه المسلم ، بيَّنها النبي (صلى الله عليه وسلم) في أحاديث عديدة ، منها قوله (صلى الله عليه وسلم): "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ" قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ " (صحيح مسلم) ، فكل حق من هذه الحقوق هو حق لك على أخيك المسلم ، وواجب له عليك.

وكذا حقوق الجار التي جعلها النبي (صلى الله عليه وسلم) شرطًا للإيمان فقَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ" (متفق عليه) ، فكل حق من حقوق الجيرة كَكَفِّ الأذى وحسن المعاملة،

ومساعدته حين يحتاج المساعدة ، وعيادته إذا مرض ، وتهنئته في فرحه، وتعزيته في مصيبته ، وغير ذلك هي لك حقوق على جارك ، وفي نفس الوقت هي عليك واجبات له .

وهناك حقوق وواجبات متبادلة بين المعلم والتلميذ ، فحق الأستاذ على التلميذ من الأدب والتوقير والطاعة يقابله حق التلميذ على أستاذه من حيث تقديم العلم النافع ، وحسن الأداء ، والرعاية للتلاميذ .

إن الأخذ بمبدأ مقابلةِ الحق بالواجب ضرورة شرعية ومجتمعية ؛ لضمان العدل بين الناس والتعايش في سلام وأمان، فإذا نظرنا إلى هذا المبدأ بين صاحب العمل والعامل وجدنا أن الإسلام قد بين حقوق وواجبات الطرفين، فالعامل يجب عليه أن يلتزم بأخلاقيات العمل التي دعا إليها الإسلام من الصدق والوفاء بالعقود، وأداء الأمانة في العمل وغيره على الوجه المطلوب والشكل المرغوب ، فعَنْ عَدِىِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِىِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولاً يَأْتِى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْبَلْ عَنِّى عَمَلَكَ، قَالَ: "وَمَا لَكَ" قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: "وَأَنَا أَقُولُهُ الآنَ: مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى" (صحيح مسلم) .

يقول الإمام المناوي (رحمه الله تعالى) : " وهذا مسوق لتحريض العمال على الأمانة وتحذيرهم من الخيانة ولو في تافهٍ"، وقد جاء واضحًا صريحًا في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}

[المائدة: ١]، وقوله : {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}[النحل ٩١] ، وفي مثل قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً ، أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا " (السنن الكبرى للبيهقي)، كما بيَّن في المقابل حقوق العامل ، وقد كفلتها له الدعوة الإسلامية كاملة غير منقوصة ، وألزمت صاحب العمل بأداء هذه الحقوق ، فمن ذلك أن الإسلام وضع أجر العامل في مرتبة من القداسة عالية، وتوعد من يأكل حقه بأشد العذاب ، وفى هذا يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن ربه سبحانه : " قَالَ اللَّهُ: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ" (صحيح البخاري) ؛ وهذا لما يترتب على أكله من فساد كبير، بل أمر (صلى الله عليه وسلم) بإعطائه حقه بعد العمل مباشرة قبل أن يهدأ بدنه من قوة العمل ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) : " أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ " (سنن ابن ماجه).

والمواطنون لهم حقوق على الدولة ، منها : حمايتهم وحماية ممتلكاتهم وتوفير الأمن والاستقرار ، وضمان المسكن الملائم والتملك والعمل، وحرية التنقل ، وحرية الرأي ، وضمان التعليم والصحة ، وإقامة المرافق العامة كالنقل والمواصلات ، والمياه النظيفة ، وضمان حرية العبادة ، وتحقيق العدل بين الناس ، وهذا أبو بكر (رضي الله عنه) في كلماته الأولى للأمة بعد أن بويع بالخلافة يوضح جليًّا دور الحاكم في إقامة العدل بين المحكومين وحمايتهم ، فيقول : أَمّا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ فَإِنّي قَدْ وُلّيت عَلَيْكُمْ وَلَسْت بِخَيْرِكُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنْت فَأَعِينُونِي ، وَإِنْ

أَسَأْت فَقَوّمُونِي ، الصّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ ، وَالضّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيّ عِنْدِي حَتّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقّهُ – إنْ شَاءَ اللّهُ–، وَالْقَوِيّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتّى آخُذَ الْحَقّ مِنْهُ – إنْ شَاءَ اللّهُ–، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللّهِ إلّا ضَرَبَهُمْ اللّهُ بِالذّلّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطّ إلّا عَمّهُمْ اللّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْت اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِذَا عَصَيْت اللّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ. قُومُوا إلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمْ اللّهُ . (البداية والنهاية).

أمّا الواجبات التي على المواطن تجاه وطنه – وتُعدُّ من الأمانات التي يجب عليه أن يقوم بها ، قال تعالى :{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}[النساء: ٥٨] لأنه سيُسأل عنها يوم القيامة قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[البقرة: ٢٨١] – فمنها : المحافظة على المال العام كالمرافق العامة والطرق ، وحافلات النقل ، ومؤسسات العمل، والحدائق العامة ، والمدارس والجامعات والمستشفيات ، واحترام القوانين المنظمة للأعمال ، ونشر ثقافة التراحم والتسامح والمحبة بين أبناء الوطن جميعًا، فرسالة الإسلام قد لخّصها القرآن الكريم عندما حدد أهدافَ مهمةِ النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، رسول الرحمة والإنسانية فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء: ١٠٧].

ومن أهم الحقوق : حق الطريق والمحافظة على آدابه ، واحترام القوانين والإرشادات الخاصة بالسير فيه للأفراد والمركبات حفاظا على أمن المجتمع وسلامته .

ومن حق الوطن على أبنائه كذلك : المشاركة في تنميته زراعيًّا ، واقتصاديًّا، وسياسيًّا، وعلميًّا ، ودعم المنتجات الوطنية ، والإسهام في

توظيف الشباب في مؤسسات وشركات رجال الأعمال وأصحاب المصانع، واحترام الآخر مع اختلاف انتمائه الديني ، أو الثقافي ، أو السياسي ، وعدم اللجوء إلى العنف والإرهاب ، أو إشاعة الفوضى والتخريب وحمل السلاح في وجه المواطنين المسالمين الآمنين ، أو حراس الوطن وحماته من الجيش والشرطة ، والخروج عن إطار القانون والإفساد والفساد الاجتماعي ، وغير ذلك من الواجبات اللازمة على المواطن تجاه وطنه .

إن الله (عز وجل) هو الكريم عظيم الجود ، خزائنه لا تنفد ، وعطاؤه لا ينقطع ، ومع هذا يريد من العبد أن يقدم بين يديه شيئًا حتى يثيبه ، يقول الله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[البقرة: ١٥٢]، ويربط الله (عز وجل) بين ما يقدمه العبد وما يمنحه الله إياه ، كأنه يشترط عليه أن يقدم أولاً حتى يعطيه ، فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[محمد: ٧] كل هذا مع غناه عن خلقه ، لكنه سبحانه يريد أن يبث في عباده مبدأً مهمًّا وهو أن من يريدُ عليه أن يقدم أولاً .

لكننا هنا لا بد أن نشير إلى مبدأ لا ينبغي أن يخفى على أحد ، وهو أن هذه الحقوق والواجبات في الأصل عبادة يتوجه بها العباد إلى الله تعالى قبل كل شيء ، فمثلًا صلة الرحم وبر الآباء عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى ، فالجزاء عليها من الله تعالى لا من العبد ، ولهذا حين جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِى قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِى وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَىَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ

وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ: "لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ"(صحيح مسلم) ولم يرخص له النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يقاطعهم كما قاطعوه، وهذا الأمر عام في كل الحقوق والواجبات، فعلى كل واحد فينا أن يعطي الذي عليه حتى وإن لم يأخذ الذي له ، فلو نظرنا إلى العمل مثلًا لوجدنا الله تعالى يحب إتقان العمل ،كما أخبر بذلك النبي (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ"(المعجم الكبير)، فهذا يعني أن إتقان العمل عبادة قبل أن يكون وفاءً بحق صاحب العمل، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا للأمور، أن نعامل الله تعالى في أعمالنا وعلاقاتنا قبل أن نعامل العباد .

وهكذا إن لم يؤدَّ إليك ما هو لك فليس هذا مسوغًا أن تهمل وتترك ما هو واجب عليك ، بل أدِّ ما عليك وقم بواجبك قاصدًا وجه الله تعالى، فهو المكافئ والمجازي والمحاسب ، فإن الإنسان إذا أدى ما عليه فالله مثيبه ومكرمه ولا يضيع أجره ، قال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [يوسف: ٩٠]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}[الكهف: ٣٠].

ولنعلم أنه ما ضاعت أمة ولا هلك مجتمع إلا حينما تغافل الناس وتركوا مبدأ الحق مقابل الواجب، فالبعد عن هذا المبدأ بُعْدٌ عن تحقيق العدالة الاجتماعية، وطريق لنشر الفوضى والأنانية والكثير من العلل الباطنة والظاهرة، وهذا يؤدي إلى تقويض بنيان المجتمع، وهذا ما يأباه العاقل لوطنه، فما بالكم بالمؤمن المخلص؟! إنه يتمنى الرفعة

والعلو لمجتمعه ووطنه، ومن ثَمَّ فهو حريص على هذا المبدأ والقيام به لما فيه من نشر الخير والأمن والأمان والحب والوئام.

❊ ❊ ❊

احترام النظام العام

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابهِ الكريم : {لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[يس: ٤٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، أحسن كلّ شيء خلقه، وأتقن كلّ شيء صنعه ، وكلّ شيء عنده بمقدار ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــــد :

فإن من أسباب تقدم الأمم وعوامل رقيها وحضارتها احترام أبنائها للنظام العام ، فحفظ النظام واحترامه ، والالتزام بالقوانين سلوكٌ دينيٌ وحضاريٌ ؛ إذ لا بد لكل فئة تتعايش في مجتمع واحد من بعض الأنظمة والقواعد العادلة التي تضبط سلوك الأفراد ، وتحفظ على الإنسان حقوقه، ويُلزم فيها بأداء ما عليه من واجبات . وبِدون النظام لن ينال النَّاسُ حَقوقَهم ، ولن يتحقق لهم العَدلُ .

والمتأمِّل في هذَا الكونِ الواسعِ يرى أن النظام سنة من سنن الله الكونية في الخلق ، فالكون كله يسير وفق نظام دقيق ، وترتِيبٍ بديع ، وتنسيقٍ محكم ، وإتقانٍ يُبهِرُ العقولَ ، ولا عجب في ذلك فتلك صنعة بديع السموات والأرض التي قال عنها : {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[النمل: ٨٨] ، فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ خَلَقَهُ اللهُ (عزَّ وجلَّ) وسَخَّرهُ لحِكْمةٍ وبحِكْمةٍ ، فلم يخْلُق سبحانه شيئًا في الكَونِ عبثًا ، فالعبث محال على الله (عز وجل) ، قال سبحانه : {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦] ، وكل شيء في هذا الكون يؤدي دوره ووظيفته التي خلقه الله (عز وجل) من أجلها ، بانتظام وإتقان وإحكام ، بحيثُ لا يتقدم لاحِقٌ على سابِقٍ ، ولا يتأخر سابِقٌ على لاحِقٍ ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[يس: ٣٨ – ٤٠] ، ويقول جلَّ شأنُه : {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}[القمر: ٤٩] .

وكما أنَّ النظامَ سُنَّةٌ كونيةٌ ، فهو أيضًا مبدأٌ أصيـلٌ من مبـادئِ الشريعة الإسلامية ، فلقد جاءت الشريعة الإسلامية بنظام دقيق متناسق ومتناغم مع نظام هذا الكون المنضبط ، ليدل ذلك دلالة قاطعة على أن خالق الكون هو من أنزل هذا الشرع الحنيف ، ففي أمور العبادات نجد أن الصلاة وهي أعظم شرائع هذا الدين لها أوقات محددة ، وطريقة أداء منضبطة ، سواء أداها الإنسان منفردًا أم في جماعة ، بل جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يقول للصحابة : (سَوُّوا صُفُوفَكُمْ ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ) (متفق عليه) ، وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يُعلِّمُ أصحابَهُ احترامَ النظامِ في صلاة الجماعة قائلًا : (إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا ، فإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا ، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا . .) (متفق عليه) ، ولاشك أن هذه صورة من أرقى وأبهى وأجمل صور النظام . وكذلك

الزكاةُ ، والصيام ، والحج ، وسائر العبادات تُؤدَّى وفـقَ نظـامٍ دقيـقٍ مُفَصَّـلٍ ومُوَضَّحٍ كمًّا وكيفًا وأداءً .

فالنظام مبدأ دعا إليه الإسلام ، وأمر أتباعه بأن يجعلوه سلوكًا يمارسونه في حياتهم اليومية ؛ حتى يكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا منظمًا يتحمل كل فرد فيه مسئوليته فتتحقق المصلحة العامة التي يحصد ثمارها المجتمع كله ، يقول نبينا (صَلى اللهُ عَلَيه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ ومَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . . .) (متفق عليه) ، فالمجتمع المسئول مجتمع منظم متماسك ، يعرفُ كل واحد فيه دوره ، ويحترم غيره ، وينظر بعين الخير للجميع .

لقد أسس الإسلام نظامًا عامًّا لم يُسبق إليه ، فأعاد صياغة منهج الحياة؛ ليصير منهجًا وسطًا متوازنًا في كل مناحيها حتى عند الطعام والشراب ، فقد وضع له نظامه وآدابه وثقافته ، فعَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ (رضي الله عنه) ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) يَقُولُ: (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي) ، وعن عُمَر بْنِ أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنه) قال : " كُنْتُ غُلَامًا فِي حجْرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ" (متفق عليه) .

ومن أهم المواضع التي ينبغي أن يُراعى فيها النظام ويسود :

احترام القانون ، فإن احترام القانون بصفة عامة يعد أهم أعمدة النظام ، وصورة من صور استقامة السلوك الإنساني ؛ تحقيقًا لمصالح الفرد والمجتمع ، ونزعًا لفتيل الكثير من الأحقاد والمشكلات ، فالقانون وُضع ليطبق على الجميع بلا استثناء ؛ حماية لكل المواطنين ، وتنظيمًا للعلاقات والمعاملات ، فلا يتصور بقاء المجتمع مستقرًّا دون احترام القوانين .

والمتأمل في حال الدول المتقدمة ، والمجتمعات الراقية ، يعلم يقينًا أنها ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا باحترامها للقوانين ، والتزامها بتطبيقها ، وإنك لتعجب حينما تجد كثيرًا من أبنائنا الذين سافروا إلى هذه الدول يعلنون إعجابهم بِدقة النظام ، والتزام الناس به ، وإخلاصهم في عملهم ، وانضباطهم في مواعيدهم ، ولكنهم هم أنفسهم إذا عادوا إلى أوطانهم مرة أخرى ترى بعضهم عاد سيرته الأولى مِن عدم الالتزام بالنظام ، ومحاولة التفلت من الالتزام بالقوانين وما ينظم الشأن العام .

ومن مظاهر احترام النظام : الالتزام بقواعد المرور وضوابطه ، فإن هذه القوانين وإن كانت من الأمور الحضارية المستجدة إلا أنها مستندة إلى أصول ثابتة في ديننا الحنيف الذي أصّلَ لحقوق الطّريق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ) (متفق عليه) ، فإذا

كانت إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وشعبة من شعب الإيمان ، وسبيلًا لدخول الجنة ، فكيف بمن يحترم قوانين المرور وضوابطه ولا يخالفها بالسير عكس الاتجاه ، أو بزيادة السرعة ، أو غير ذلك من الأمور التي تعتبر تعديًا على حقوق الطريق ، وعلى حقوق الناس ، والتي قد تتسبب في إزهاق روحه أو أرواح غيره ، أو إصابتهم ، أو ترويعهم ، والله (عز وجل) يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: ١٩٥] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا ضَرَرَ ولا ضِرَار) (مسند أحمد) .

ولقد بين لنا النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أن للطريق حقًّا ينبغي علينا القيام به في قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ)، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ : مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ: (غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (متفق عليه) ، فحق الطريق حق عام ينبغي احترامه والالتزام بما ينظم التعامل معه أو فيه .

ومن احترام النظام : الالتزام بمبدأ الحق والواجب ، فكما يريد الإنسان أن يأخذ حقه عليه أن يفي بواجبه تجاه مجتمعه ، سواء في أداء ما عليه من التزام أو سداد ما يُحصل من خدمات ، ولا يعمد إلى التفلت مما عليه من استحقاقات .

إن الأخذ بمبدأ مقابلةِ الحق بالواجب ضرورة شرعية ومجتمعية لضمان العدل بين الناس والتعايش في سلام وأمان ، فإذا نظرنا إلى هذا

المبدأ بين صاحب العمل والعامل مثلًا وجدنا أن الإسلام قد بين حقوق وواجبات الطرفين ، فالعامل يجب عليه أن يلتزم بأخلاقيات العمل التي دعا إليها الإسلام من الصدق والوفاء بالعقود ، وأداء الأمانة على الوجه المطلوب والشكل المرغوب ، وكذلك صاحب العمل عليه أن يؤدي للعامل حقه ، وأن لا يظلمه شيئًا ، وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية ، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معا، حيث يقول سبحانه في العلاقة بين الزوجين: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[البقرة: ٢٢٨] ، ويقول سبحانه في الحديث القدسي: (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ) (صحيح البخاري) .

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا ، وبخاصة في مجال العمل ، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد ، فيكون أحد الشقين معتدلا والآخر مائلا ، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معا ، والوفاء بالحقوق والواجبات معًا ، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله (عز وجل) في الذي لنا .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن النظام سُنَّةٌ كونيةٌ ، وقيمةٌ إنسانيةٌ ، وضرورةٌ اجتماعيةٌ تُعنى به المجتمعات المتقدمة ، وتحرص عليه الأمم المتحضرة ، وتحت مظلته يتساوى الناس في الحقوق والواجبات ، فيحترم الإنسان غيره ، ويؤدي إلى الناس حقوقهم ، ويحب لهم ما يحب لنفسه ، فاحترام الآخرين بصفة عامة دليل احترام الإنسان نفسه ، ولو كان ذلك في بعض الأمور التي يرى بعض الناس أنها هينة كالالتزام بالصف وعدم تجاوز الآخرين والتعدي على حقهم في الأسبقية في أي مكان ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه) .

وعلى هذا المبدأ – من القيام بالواجبات واحترام حقوق الآخرين – عاش أصحاب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) من بعده ، ففي عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) كُلف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بولاية القضاء في المدينة ، فمكث سنة لم يختصم إليه اثنان ، فطلب من الصديق (رضي الله عنه) إعفاءه من القضاء ، فقال أبو بكر (رضي الله عنه) : أمِنْ مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر ؟ قال : لا يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين ، عرف كل منهم ما له من حق ، فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب ، فلم يقصر في أدائه ، أَحَبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه ، وإذا أصيب عزّوه وواسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ، ففيمَ يختصمون ؟! ففيمَ يختصمون"؟! (أخبار القضاة لوكيع القاضي مختصرًا) .

ألا ما أحوجنا إلى احترام النظام والتزام القوانين ، ومراعاة حقوق الآخرين ، وتربية أبنائنا على ذلك ، حتى يسود العدل ، وتنتشر روح الإخاء والمحبة والمودة ، وينعم المجتمع كله بالأمن والأمان والاستقرار، ونرى بلادنا في المكانة التي تليق بها بين الأمم .

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، واحفظ مصرنا وسائر بلاد المسلمين .

* * *

مفهوم عهد الأمان في العصر الحاضر

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا}[الإسراء: ٣٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه ورسوله القائل في حديثه الشريف: (إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ الْمُوفُونَ الْمُطَيَّبُونَ) (مسند أحمد) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد:

فإن الإسلام دين الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، والبر والإحسان ؛ ولا شك أن الوفاء بالعهد قيمة أخلاقية وإنسانية عظمى ، بها تُدعم الثقة ويتحقق الأمن والأمان بين الشعوب بعضها مع بعض ، وتنمو بها أواصر التعاون والمودة والبناء والتقدم بين أبناء المجتمع الواحد ، لذا كان الوفاء بالعهد شعبة من شعب الإيمان ، ودليلًا من دلائل الصدق والإحسان ، فهو أدب رباني جليل ، وخلق نبوي كريم ، وسلوك إسلامي قويم .

ولقد أمر الإسلام أتباعه بضرورة التحلي بخلق الوفاء بالعهود والعقود والمواثيق ، وأكَّد على ذلك تأكيدًا جازمًا ، فقال تعالى: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا} [الإسراء: ٣٤] ، وقال جل شأنه: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[النحل: ٩١] ؛ أي: التزموا الوفاء بكل عهد أوجبتموه على أنفسكم ، سواء أكان فيما بينكم وبين الله (عز وجل) ، أم

فيما بينكم وبين الناس ، ولا تنكثوا الأيمان بعد أن أكَّدْتموها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا وضامنًا حين عاهدتم ، فمن أبرم عقدًا وجب عليه احترامه ، ومن أعطى عهدًا وجب عليه الالتزام به .

كما أخبر الحق سبحانه وتعالى أن أهل الوفاء الملتزمين بعهودهم ومواثيقهم هم أهل محبته ، وهم أهل الصدق والتقوى من خلقه ، حيث يقول سبحانه: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ٧٦] ، ويقول جل شأنه: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[البقرة: ١٧٧] ، وبيَّن سبحانه أنهم أصحاب الأجر العظيم ، وورثة جنة النعيم ، فقال جل شأنه: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[الفتح: ١٠] ، ثم بيَّن سبحانه هذا الأجر العظيم في موضع آخر من كتابه ، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} [المؤمنون: ٨] .

ولقد أعلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من قيمة الوفاء بالعهود ، وحذر من نقضها ، أو عدم الوفاء بها ؛ حيث إن في خيانتها وعدم الوفاء بها فسادًا للمجتمعات ، وفقدًا للثقة بين الناس ، وتضييعًا للأمانات ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (آيةُ المنافقِ ثلاثٌ : إذا حدَّث كذَب ، وإذا وعدَ أخلفَ ، وإذا اؤتمِنَ خانَ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (المُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ ، إلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلًا ، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا) (صحيح البخاري) ، وحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من عقوبة الغدر ،

فقال: (إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَيقال: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ) (متفق عليه) ، قال ابن كثير (رحمه الله): والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًّا ، لا يطلع عليه الناس ، فإذا كان يوم القيامة يصير علمًا منشورًا على صاحبه بما فعل ، وهكذا يظهر للناس ما كانوا يُسرُّونه من المكر والخيانة ، ويخزيهم الله (عز وجل) على رؤوس الخلائق.(تفسير ابن كثير) .

وإن من جملة العهود التي أمر الشرع الحنيف التزامها ، وأكد على الوفاء بها ، وعدم نقضها "عهدَ الأمان" ، وهو بمفهوم العصر الحاضر : ما تمنحه الدولة من تصريح ، أو تأشيرة ، أو إذن بالدخول إلى أراضيها لأحد رعايا الدول الأخرى ، سواء أكان سائحًا ، أم زائرًا ، أم مقيمًا ، بموجب الأعراف ، والمواثيق ، والاتفاقيات الدولية في التعامل مع الدبلوماسيين ، ومَن في حكمهم ، أو بموجب الاتفاقيات الثنائية بين الدول ، بأي طريق من الطرق المعتبرة قانونا ، والمعترف والمعمول بها لدى الدولة المضيفة ، وفق قوانينها المنظمة ، وبمجرد حصول هذا الشخص على تصريح الإقامة ، أو تأشيرة أو إذن الدخول أصبح له حق وحرمة داخل هذه الدولة ، وأصبح هذا العهد الذي أعطته الدولة له مُلزمًا لكل مواطنيها ، والمقيمين بها ، لا يجوز نقضه ، أو الالتفاف عليه ، أو التحلل منه ، لا شرعًا ، ولا قانونًا ، ومن رأى مخالفة تمس أمن وطنه ، أو تخالف النظام العام لدولته، فليس له إلا أن يرفع الأمر لأهل الاختصاص، حتى تتمكن أجهزة الدولة من محاسبته في ضوء ما تقتضيه وتنظمه القوانين ؛ إذ ليس لآحاد الناس محاسبته على ما بدر منه ، أو التعرض له بسوء ، وإلا صارت الأمور إلى الفوضى وعدم الانضباط .

ومما لا شك فيه أن الوفاء بهذا العهد من أوجب الواجبات وألزمها شرعًا ، وقانونًا ، ووطنيةً ، وإنسانيةً ، فإذا كان ديننا الحنيف قد أعلى من شأن عهد الأمان ، فإن ذمة المسلمين في ذلك واحدة ، بمعنى أن العهد الذي يقطعه أحد المسلمين على نفسه ، يكون مُلزمًا لجميع المسلمين ، فما بالنا إذا صار هذا العهد ميثاقًا يضبطه وينظمه الشرع والقانون معًا ، متعاضدين ، يقوي كل منهما الآخر ، ويدعمه ، ويستوجبه ؟ لا شك أن ذلك يقتضي الوفاء بالذمم والعهود ، لا نقضها ، ولا تضييعها ، ولا حتى مجرد المساس بها .

إن الإسلام دين حفظ العهود والعقود ، دين لا يعرف الغش ، ولا الخداع ، ولا الخيانة ، فلم يثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) – منذ بداية دعوته – ولا عن أحد من أصحابه (رضوان الله عليهم) أنهم منعوا أحدًا الأمان ، أو نقضوا عهد أمان منحوه لأحد ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم):{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ}[الأنفال: ٥٨] ، وكان بين سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) وبين الروم عهد ، فأراد معاوية (رضي الله عنه) أن يخرج على مقربة من حدود الروم ، فإذا انتهى الموعد باغتهم ، فلحق به رجل من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا ، فإذا عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) ، فأرسل إليه معاوية (رضي الله عنه) فسأله ، فقال: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) يقول : (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ، ولا يحلّها حتّى ينقضي أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء) ، فرجع معاوية (رضي الله عنه). (سنن أبي داود) .

بل وتظهر عظمة الإسلام وتتجلى في أعلى صورها في أمر الله (عز وجل) لنبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يجير ويؤمن من استجاره ، ولو كان مشركًا ، بل ولو كان محاربًا ، حيث يقول سبحانه : {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ}[التوبة : ٦] .

ولقد رسخ النبي (صلى الله عليه وسلم) لهذه القيم النبيلة التي تحقق الأمن والأمان للإنسانية كلها بقوله وفعله ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (سنن الترمذي) ، وها هو النبي (صلى الله عليه وسلم) يجسد لنا عمليًّا أروع الأمثلة في الوفاء بالعهد حتى مع أعدائه ؛ فعن يوم بدر يقول حُذَيْفَةُ بْن الْيَمَانِ (رضي الله عنه) : مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، قَالُوا : إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ، فَقُلْنَا : مَا نُرِيدُهُ ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (انْصَرِفَا ، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ) (صحيح مسلم) .

وعليه ، فإننا نؤكد أن من واجبنا جميعًا الحفاظ على العهود والمواثيق التي تلتزم بها الدولة تجاه كلِّ إنسان يدخل إلى بلادنا ، وأن نكون متعاونين ومتضامنين على حفظ دمه ، وعرضه ، وماله ، وخصوصيته، كما أن من واجبنا حسن استقباله ، وإكرامه ؛ ليرى منا ما نحب أن يتصوره عن عظمة ديننا ، وعمق حضارتنا ، ورقي إنسانيتنا ؛ بما يسهم في تكوين الصورة الذهنية التي نريدها لديننا ، ووطننا ، ومجتمعنا ، وهذا هو حال الأمم والشعوب الراقية المتحضرة .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن الإسلام دين العدل والتسامح والتعايش السلمي ، والمسلم دائمًا أمن وأمانٌ ، سلمٌ سلامٌ في كل مكان يحل فيه ، في بلاده ، وفي غيرها ؛ فإذا انتقل المسلم لبلد آخر ، سواء أكان من بلاد المسلمين ، أم من غيرها ، فإن التأشيرة التي تمنحها هذه الدولة له – كعهد أمان ، يأمن به على نفسه – هي في المقابل عهد أمان منه لأهل هذا البلد ؛ يأمنون به على أنفسهم وأموالهم ، ويُلزمه ذلك أن يخضع لقوانين هذا البلد ، ويلتزم بها ، ويؤدي ما عليه بأمانة وصدق ، فيحرم عليه أخذ شيء من أموالهم بغير حق ، أو الاعتداء على أعراضهم ، أو الغدر بهم بأية صورة

من الصور ؛ حتى يكون خير سفير لدينه ، ووطنه ، وحضارته ، فبمجرد دخوله تلك البلاد قد التزم وعاهد الله (عز وجلّ) على الوفاء ، حتى لا يقع تحت طائلة قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[البقرة: ٢٧] .

يقول الإمام الشافعي (رحمه الله) : إذا دخل الرجل دار غير المسلمين بأمان منهم ، فلا يحل له أن يأخذ شيئًا من أموالهم – قل أو كثر – حتى ولو كانوا في حالة حرب مع المسلمين ؛ لأنه إذا كان منهم في أمان ، فهم منه في أمان مثله ؛ ولأنه لا يحل له في أمانهم إلا ما يحل له من أموال المسلمين . ولله دَرُّ القائل :

وَفاءُ العَهدِ من شِيَمِ الكرامِ ... ونقضُ العَهدِ من شِيَمِ اللِّئَامِ
وعندي لا يُعَدُّ من السّجايا ... سِوَى حِفظِ المَوَدّةِ والذِّمامِ

اللهم اهدنا واهد بنا ، واجعلنا سببًا لمن اهتدى ، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

* * *

الإتقان سبيل الأمم المتحضرة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ العزيزِ :{وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـد :

فإن الإتقان في العمل والاهتمام به والمحافظة عليه والتميز فيه من أهم القيم والمبادئ التي دعا إليها الإسلام ، فهو أساس نهضة الأمة ، به يعلو شأنها، وتستقيم حياتها، وبه يكون بناؤها بناءً قويًا شامخًا، والإتقان هو الذي تقوم عليه الحضارات، ويعمر به الكون ، وكذلك هو هدف من أهداف الدين يسمو به المسلم ويرقى به إلى مرضاة الله تعالى والإخلاص له ؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، وإخلاص العمل لا يتم إلا بإتقانه.

ولقد لفت الله تعالى أنظارنا إلى الإتقان، حيث خلق كل شيء بإتقان مُعجز، يقول تعالى:{...صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}. (النمل: ٨٨)، وأوجب على الإنسان السعي نحو الإحسان والإجادة ، ونهاه عن الإفساد فقال: {... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: ١٩٥]، وقال: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}(القصص: ٧٧).

ولقد دعانا القرآن الكريم في كثير من آياته إلى إتقان العمل وتجويده والإخلاص في أدائه ؛ طلبًا لمرضاة الله تعالى، ونصحًا لعباده ، وخدمة

وتعاونًا بين أفراد المجتمع، ووعد على ذلك الثوابَ العظيمَ والثناء الحسن في الدنيا والآخرة ، وبيَّن أن الإنسان وهو يزاول عملًا ما يكون تحت رقابة الله العلـيم بمكنونات الصدور وخفايا القلـوب، وأنه لا يغيب عنه مثاقيل الذَّر من أعمـال العبـاد ، فهو سبحانه يسطرها لهم ويسجلها عليهم ويجازيهم بها يوم يلقونه ، قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}(يونس:٦١)، فالله تعالى مطلع على جميع أحوالكم في حركاتكم وسكناتكم، فراقبوا الله تعالى في أعمالكم وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، فعلى كل عامل أن يتقن عمله ويبذل فيه الجهد لإحسانه وإحكامه تعبدًا وتقربًا إلى الله تعالى قبل أي شيء آخر، فالله (عز وجل) هو الذي يراه ويراقبه في عمله، يراه في مصنعه وفي مزرعته وفي أي مجال من مجالات سعيه، يقول تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة: ١٠٥] .

يقول الشوكاني رحمه الله : قوله :{وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون}فالأمر فيه تخويف وتهديد : أي إن عملكم لا يخفى على الله ، ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله (عزّ وجلّ) ، وفيه أيضًا ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء أكان خيرًا أم شرًّا رغب إلى أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشرّ ، وما أحسن قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ** وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والمراد بالرؤية هنا : العلم بما يصدر منهم من الأعمال ، ثم وعد سبحانه بوعيد شديد فقال : {وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [التوبة: ١٠٥] أي : وستردّون بعد الموت إلى الله سبحانه ، الذي يعلم ما تسرّونه وما تعلنونه ، وما تخفونه وما تبدونه . (فتح القدير) .

وفي السنة النبوية دعوة إلى محاولة الوصول إلى الأفضل والأحسن والأتقن ، ففي الصلاة يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، وفي قراءة القرآن يقرؤه الماهر به الذي بشره الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه مع السفرة الكرام البررة ، وفي قصة مشروعية الأذان حينما رأى عبد الله بن زيد الرؤيا قال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (أَلْقِهِ عَلَى بِلاَلٍ، فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا) (سنن أبي داود)، ويأمر من يلي أمر الميت بقوله: (إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ) (صحيح مسلم). وهكذا بينت السنة النبوية أن كل عمل يعمله الإنسان لا بد وأن يكون حسنًا متقنًا ، وأن يراعي الله تعالى فيه ؛ لأن الله مطلع على قلوب العباد ويحصي عليهم أعمالهم دقَّت أو جلَّت .

فالإحسان والإتقان والحرص على بلوغ الكمال في العمل قربة وطاعة لله عز وجل، وإن لم ينتفع الإنسان بذلك في الدنيا ؛ لأنه فعل شيئًا يحبه الله تعالى، فعَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي كُلَيْبٍ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ أَبِيهِ جَنَازَةً شَهِدَهَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا غُلَامٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ، فَانْتَهَى بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُمْكِن لَهَا، قَالَ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (سَوُّوا لَحْدَ هَذَا) حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ

سُنَّةٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: (أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ) (شعب الإيمان للبيهقي)، فها هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأمر بالإتقان في موضوع لا ينفع ولا يضر، لكنه يريد أن يُربيَ المسلمين على الإجادة والإتقان، يريد تربية الشخصية المسلمة على تَلَمُّسِ طريق الكمال.

والذي يتقن عمله ويحسنه لن يضيع سعيه وجهده، بل سينال جزاءً حسنًا في الدنيا والآخرة ، يقول الله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}(الكهف:٣٠)، ويقول تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}[آل عمران: ١٩٥]، فالذي يسعى نحو الإجادة والإتقان في كل عمل يعمله صالحٌ فاضلٌ ، نورُ الهدى ساطع في قلبه، حريص على حقوق الله وحقوق الناس ، معتصم بالفضيلة يضع كل شيء في مكانه الجدير به واللائق له ، فالمسلم مطالب بالإتقان في كل أعماله التعبدية والسلوكية وما يتصل منها بالمعايش ؛ لأن كل عمل يقوم به المسلم يعد عبادة ما دام مقرونًا بنيّة التعبد لله تعالى يُجازى عليه ، قال تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢]

أما الذي لا يتقن عمله ولا يراقب الله تعالى فيه فإنه آثم، آثم بقدر ما يتسبب فيه من ضياع الأموال وإهدار الطاقات، فهذا الموظف الذي يقصر ويهمل ولا يتقن عمله ويرضى لنفسه أن يتقاضى أجرًا حرامًا ، يخاصمه فيه الشعب كله يوم القيامة ، فهذا عمر (رضي الله عنه) يقول لمعيقيب عامله على بيت المال الذي أعطى ولده درهمًا وجده وهو

يكنس بيت المال: (ويحك يا معيقيب! ' أوجدتَ عليَّ في نفسك شيئًا؟ قال: قلت: ما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد (صلى الله عليه و سلم) في هذا الدرهم؟!) (الورع لابن أبي الدنيا) .

فهذا الذي يعمل في رصف الطرق فلا يراعي الله في عمله فيتسبب في فساد الطرق آثم بقدر ما يتسبب فيه من حوادث وقتل، وهذا الفلاح الذي لا هَمَّ له إلا جمع المال وفي سبيله يُهلك أجسام الناس بالمبيدات السامة غشاش قاتل ، يأثم بقدر كل كبد أفسده وبقدر كل كُلْيَةٍ أفشلها، وهذا الصانع الذي لا يتقن صنعته فينتج سلعة مغشوشة آثم غشاش يدخل فيمن تبرأ منهم النبي (صلى الله عليه وسلم) حين قال: (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) [صحيح مسلم].

فمن كانت هذه صفتهم يتحملون وزر تأخر الأمة وتخلف البلاد ، نشكوهم إلى الله تعالى ، يقول عمر (رضي الله عنه) : (إلى الله أشكو ضَعْفَ الأمين وخيانة القوى) (مجمع الأمثال للميداني) ، أما يعلم هؤلاء جميعًا أن الله يراهم، {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}[العلق: ١٤]، ألم يعلموا أن الرقيب عليهم هو الله تعالى؟! {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(النساء: ١).

إن من أشد أسباب تأخرنا وإهدار الطاقات والثروات في بلادنا وجود نوعية من الموظفين أو من العاملين في المجالات المختلفة لا يبالون بما وقعوا فيه من تقصير أو تأخر أو غياب، يخرجون من أعمالهم قبل إنهاء ما كلفوا به من أعمال وأداء ما حُمِّلُوه من أمانة، متناسين أن هذه الأعمال أمانة سيسألون عنها يوم القيامة، {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}(الصافات: ٢٤).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن وطننا الحبيب لن ينهض ويحقق آماله إلا بعد أن يزكي كل عامل قلبه بالإخلاص وينقي لُبَّهُ بالإحسان، ويعلم أنه لن تعلو مرتبته إلا بحسن العمل وجودة الإنتاج، وسلامة الصنع ونبل المقصد، وسيجد المجتمع عند ذلك في إتقان العمل ما يوفر الجهد والمال والوقت ، وما يحفظ الحقوق من الضياع والإهمال، وهنا تسعد البلاد وتنعم بهذا الإتقان ، وتجني من ثمار عقول وسواعد أبنائها ما يغنيها عن غيرها ويحفظ لها عزتها وكرامتها، أما حين يسود الإهمال ويستبدُّ الكسل والخمول وينعدم الضمير فسيتجرع المجتمع مرارة ذلك، ويسهم ذلك في تخلف الأمة برمتها.

إن من أسباب تقدم غيرنا في الميادين المختلفة إتقان العمل وإحسانه وقيام كل فرد بواجبه وما يناط به من عمل على خير وجه ، فمن أتقن وأحسن تقدم وإن كان كافرًا، ومن أساء وقصر شقي وتأخر وإن كان مسلمًا ؛ ومن ثمَّ قيل: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً ، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً ، فهذه سنة الله في خلقه، وقد قال الله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}(هود: ١٥)، وفي نفس السورة يقول (عز وجل) : {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}(هود: ١١٧)، فالله سبحانه لا يخلف سننه مع من يصلحون بها دنياهم ولو كانوا أهل إشراك، فإذا ما أدرك المسلم أهمية الإتقان وضرورته وما يؤدي إليه من

نتائج جيدة ، وإذا أدرك كذلك عاقبة الإهمال والتقصير وخطورته وما يؤدي إليه من عواقب وخيمة دفعه ذلك إلى الإتقان وإجادة ما يقوم به من أعمال لينفع نفسه ومجتمعه.

ما أحوجنا اليوم إلى أن نربيَ أجيالًا على مراقبة الله تعالى، فالمراقبة تكسب الأمة المسلمة الإخلاص في العمل، كما أنها تجرد العمل من مظاهر النفاق والرياء، فكثير من الناس يتقن عمله ويجوّده إن كان مراقبًا من رئيس له، أو قصد به تحقيق غايات له أو سعى إلى السمعة والشهرة لأنه يفتقد المراقبة الداخلية التي تجعله يؤدي عمله بإتقان في كل الحالات دون النظر إلى الاعتبارات التي اعتاد بعضهم عليها.

فأين نحن من مراقبة الله تعالى؟! وأين نحن من الإحسان الذي ذكره النبي (صلى الله عليه وسلم): (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (متفق عليه)، ورحم الله ابن المبارك حيث قال لرجل: "رَاقِبِ اللهَ تعالى ، فسأله عن تفسيره فقال: كن أبدًا كأنك ترى الله (عز وجل)" (إحياء علوم الدين)، ويقول أبو بكر (رضي الله عنه) : (إن عليك من الله عيونًا تراك) (مجْمَعُ الأَمْثَالِ لِلمَيْدَانيّ) ، فالمسلم يستشعر دائمًا أن الله تعالى يراه ويطلع عليه فيتقن عمله إرضاءً لله تعالى ، بغض النظر عمن يراه ويراقبه من الخلق .

إن تَمَثُّلَ هذه المعاني الإيمانية هو المخرج مما يعانيه المجتمع ، فإنه من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسانٍ حارسًا يحرسه ، أو مراقبًا يراقبه ، وحتى لو فعلنا ذلك فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه ، لكن من

السهل أن نُربيَ في كل إنسانٍ ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إلى الخير؛ لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم .

* * *

روح العمل الجماعي وضوابطه

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة: ١٠٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فإن الأمم لا تُبنى بالكلام ولا بالشعارات ، إنما تبنى بالعلم ، والعطاء ، والتضحية ، ومن أهم سبل بناء الأمم وتقدمها العمل الجاد المتقن ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥]، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنّ اللهَ (عز وجل) يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (المعجم الكبير). فالدين والوطنية معًا يتطلبان منا الجهد والعرق والعمل والإنتاج ، ولا سيما أن ديننا هو دين العمل والإتقان .

وإذا كان الفرد هو العنصر الأساس في بناء المجتمع فإن دوره الحقيقي في هذا البناء لا يكتمل ولا يتم إلا من خلال العمل مع بقية أفراد المجتمع ، حيث إن الإنسان بمفرده قد ينجز بعض الأعمال ، لكن إذا أُضيف فِكره إلى فِكر غيره ، وجهده إلى جهد غيره ، لا شك أن

الإنجاز سيكون أكبر وأعظم وأنفع ؛ لذا فقد أعلى الإسلام من شأن العمل الجماعي وجعله من أهم عوامل وأسس بناء الدول والحضارات ؛ لما فيه من استثمار للطاقات ، وتوحيد للهمم ، وتعاون من أجل تحقيق الأهداف المشتركة التي تحمل الخير للناس جميعًا ، يقول سبحانه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢].

والمتدبر في الخطاب القرآني يرى أن الآيات التي تحث على بث روح العمل الجماعي ، والقيام بالمهام كفريق واحد كثيرة ومتعددة ، ومن ذلك قول الحق سبحانه في الأمر بعبادته: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة: ٢١] ، وفي شأن الصلاة التي هي أعظم شعائر الدين ، يقول سبحانه :{وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[الأنعام: ٧٢] ، بصيغة الجمع ، ويقول سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج : ٧٧] ، ويقول جل شأنه مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم) : {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[الكهف: ٢٨] ، ويقول سبحانه : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران : ١٠٣] ، وحذرنا سبحانه من الفرقة فقال:{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[الأنفال: ٤٦] .

ومما لا شك فيه أن القيام بالأعمال ، وأداء المهام بهذه الروح الجماعية يقوي أواصر المودة والمحبة والأخوَّة والتآلف بين أبناء المجتمع الواحد ، فيتحقق فيهم وصف الله تعالى : {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}[المؤمنون:٥٢]، ويصدق فيهم قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه)، وعندما أراد أحد الشيوخ أن يعلم أبناءه أهمية الوحدة وأنها سبب القوة، وخطورة الفرقة وأنها سبب الشتات والضياع ، جاء بحزمة من الحطب وقال : من يستطيع منكم أن يكسر هذه الحزمة بضربة واحدة أو بضربتين ، فحاول كل واحد منهم فلم يفلح ، ففكك حزمة الحطب ووزعها على أبنائه ، وأعطي كل واحد منهم عودًا فكسره بضربة واحدة ، فقال:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا *** وإذا افترقن تكسرت أفرادًا

ولقد ضرب لنا القرآن الكريم الكثير من الأمثلة الرائعة التي تُرغب في العمل الجماعي ، وتحثُّ عليه ، وتُوضح كيف كان أثره في تحقيق الأهداف العظيمة ، فهذا سيدنا إبراهيم (عليه السلام) حين أمره الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة ذَهَبَ إِلَى ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ (عليه السلام) ، وَقَالَ لَهُ : (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ . قَالَ : فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ ، قال: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا . فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ (عليه السلام) يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ ، وَإِبْرَاهِيمُ (عليه السلام) يَبْنِي) ، فشَيَّدَا مَعًا أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ

خلّد الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْمَوْقِفَ الْعَظِيمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة : ١٢٧] (صحيح البخاري).

وفي سورَةِ الْكَهْفِ يحدثنا ربنا سبحانه عن أُنموذج رَاقٍ مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّكَامُلِ والعمل بروحٍ جماعيةٍ فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، وذلك عندما وصل هذا الملك العادل إِلَى قَوْمٍ لَا يَعْرِفُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَهُ، فطَلَبُوا مُسَاعَدَتَهُ، فَأَجَابَهُمْ لما طلبوا ، ولكنه ألزمهم أن يتعاونوا معه ، وأشركهم في العمل واسْتَثْمَرَ طَاقَاتِهِمْ ، فكانوا جميعًا يدًا واحدةً حتى تم هذا البناء الضخم ، الذي كان سببًا في حمايتهم من أذى يأجوج ومأجوج، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [الكهف: ٩٣- ٩٧].

وهذا كليم الله موسى (عليه السلام) يسأل الله (عز وجل) أن يشد من أزره بأخيه هارون (عليه السلام) ليكون له سندا وعونا له في المهمة التي كلفه الله (عز وجل) بها، وفي ذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا موسى (عليه السلام) : {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي *

هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [طه : ٢٥– ٣٥].

وكذلك المتدبر في السِّيرة النبوية العطرة يرى فيها صفحات مشرقة منَ التعاون والمشاركة والعمل الجماعي في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) مع أصحابه الكرام ، يقول سَيِّدُنَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): (إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكَانَ يُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ) (مسند أحمد) .

وكذلك كان (صلى الله عليه وسلم) يشاركهم العمل والبناء بنفسه ، ويحثهم على الاجتماع وعدم الفرقة ، ففي يوم الخندق يقول البراء بن عازب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ: (اللهم لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا ، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا ، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ، وإِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا) (صحيح البخاري) .

وحِينَما أَرَادَ سيدنا سلمان الفارسي (رضي الله عنه) زِرَاعَةَ ثَلَاثِمِائَةِ نَخْلَةٍ ليفتدي بها نفسه من الرق ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لِأَصْحَابِهِ: (أَعِينُوا أَخَاكُمْ). قَالَ سَلْمَانُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ: الرَّجُلُ يَأْتِي بِثَلَاثِينَ فَسِيلَة، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ يَأْتِي بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُمائَةِ فَسِيلَةٍ، فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنْ أَحْفِرَ لَهَا وَقَالَ : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي ؛ أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ). قَالَ : فَحَفَرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي ، حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه

وسلم) مَعِي إِلَيْهَا ، فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ النَّخْلَ وَيَضَعُهُ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ . (مسند أحمد).

ولقد أثنى النبي (صلى الله عليه وسلم) على الأشعريين بأبلغ ثناء عندما كانت روح العمل الجماعي غالبة عليهم في تصرفاتهم وأفعالهم في أصعب المواقف ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)(متفق عليه) .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللَّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلمْ وَبارِكْ عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن العمل الجماعي الذي نسعى إليه هو العمل الذي يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق ، هو الذي يقوم على أسس شرعية كالتكافل بين أبناء المجتمع بحيث لا يُرى فيهم جائع ولا محتاج ، أو على أسس تربوية وعلمية كتعاون العلماء في بحوثهم العلمية ، والطلاب في منجزاتهم الدراسية والعملية ، أو على أسس وطنية من أجل العمل على نهضة الوطن ورقيِّه في جميع المجالات .

وليس العمل القائم على الدعوات الهدامة التي تجتمع على القتل والتخريب وسفك الدماء ، وتدمير الأوطان ، ومحاولات إضعافها أو إسقاطها ، تلك الدعوات القائمة على الكذب والافتراء ، وتزييف الحقائق ، لا تألو على دين أو وطن أو ضمير .

إن العمل الجماعي الذي ننشده هو العمل البناء لصالح الدين والوطن والإنسانية، وهي متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض ، فما أحوجنا إلى ترسيخ هذه الروح في نفوس أبنائنا وتحويلها إلى منهج حياة يعيشون به فينتشر الحب ويسود الوئام بين أبناء المجتمع الواحد ، ونرقى بأمتنا إلى المكانة التي تليق بها في كل المجالات ، على أننا نؤكد أن الشعب المصري حينما تسود روح العمل الجماعي بين أبنائه فإنه يحقق من الأعمال ما يراه غيره مستحيلًا ، والمشاهدة والتجربة والواقع قديما وحديثا خير شاهد ودليل على ذلك .

اللهم أَمِّنَّا في أوطاننا ، ووفق أئمتنا وولاة أمورنا

واحفظ بلادنا من كيد الكائدين وفساد المفسدين.

* * *

عوامل بناء الدول

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه العزيز : {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة : ١٠٥]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فإن من مبادئ الإسلام الأصيلة ، وتعاليمه الجليلة حب الوطن ، والدفاع عنه ، والعمل على تقدمه وازدهاره ، والشرَفُ كله في شعور الإنسان بانتمائه الحقيقي لوطنه ، والسعي الجاد لبنائه ، والعمل على رقيِّه ورفعته ، فكل الأمم التي تقدمت علميًّا وحضاريًّا يقف وراءها رجال مخلصون امتلأت قلوبهم بحب أوطانهم ، فشمروا عن ساعد الجد بالعمل المثمر العائد بالنفع على العباد والبلاد ، ومصرنا الغالية تستحق من أبنائها ذلك وأكثر ، فهي القلب النابض للعروبة والإسلام ، وهي درع الأمة وسيفها ، وحصنها الحصين في مواجهة الإرهاب والتحديات ، ومن ثمَّ فإن الدفاعَ عنها ، والعملَ في سبيل نهضتها ورقيها ، واجب ديني ووطني، فهي مهد الحضارات ، وموطن الرسالات ، وهي البلد الذي ذكر في القرآن الكريم بالأمن والأمان ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}[يوسف : ٩٩].

ولا شك في أن التقدم والبناء والتفوق يضمن للأمة العزة والكرامة واحترام الناس ، غير أن بناء الدول لا يكون بمجرد الكلام ولا الأحلام ولا الأماني ، بل لا بد من جهد وعرق وبذل وتضحية وأخذٍ بمقومات البناء وأسباب التقدم والحضارة ، ومنها : **العلم** ، **والإدارة الجيدة** ، فالبناء يحتاج إلى علم وخبرة ودربة وتخصص ، وليس مجرد هواية ، وعندما ننظر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نجد أنهما يؤكدان على ضرورة توفر الكفاءة والكفاية والأمانة، قال تعالى على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام) : {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}[يوسف: ٥٥] ، وقال جل شأنه على لسان ابنة شعيب في شأن سيدنا موسى (عليه السلام) : {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦].

ولقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من تولية غير الأكفاء ، وأخبر أن ذلك علامة من علامات الساعة ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) (صحيح البخاري) ، وأهل الأمر في كل مجال: هم أهل الكفاءة والأمانة معًا ، ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) يوظف أصحابه وعماله حسب العلم والكفاءة والقدرة على القيام بالمسئولية ، ولا يولي أحدًا مجاملة ، أو بسبب قرابة ، أو محبة ، فعن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قلت: يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي ، ثم قال: (يَا أَبَا ذَرٍّ ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) (صحيح مسلم) ، وقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) لعَبْدِ الرَّحْمَنِ بن سَمُرَةَ : (يا

عبد الرحمن: لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا) (صحيح البخاري).

ومن أهم عوامل وأسس بناء الدول والحضارات : **العمل الجاد والإتقان** ، ولقد أعلى الإسلام من قيمة العمل وجعله بابًا من أبواب العبادة، بل جعله من أعلى مراتب العبادة ؛ حيث وصفه النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه جهاد في سبيل الله ، فعن كعب بن عجرة (رضي الله عنه) ، أن رجلًا مرّ على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فرأى الصحابة (رضي الله عنهم) من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا: يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله ؟! فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّها فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) (المعجم الكبير للطبراني) ، فالدين والوطنية معًا يتطلبان منا الجهد والعرق والعمل والإنتاج ، ولا سيما أن ديننا هو دين العمل والإتقان ، يقول الله عز وجل: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك : ٢]، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة : ٩ – ١٠]، ويقول (صلى الله عليه

وسلم) : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (صحيح البخاري).

على أننا نؤكد أن ديننا الإسلامي لم يطلب منا مجرد العمل إنما طلب منا العمل الجاد المتقن ، حيث يقول سبحانه: {إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف : ٣٠]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه) (شعب الإيمان للبيهقي).

ومن أسس بناء الدول والحضارات: **العدل** ، فالدول تبنى بالعدل الذي يسوي بين الناس جميعًا في الحقوق والواجبات ، دون تمييز لأحدٍ على أحدٍ ، وهو أمر الله (عز وجل) في كتابه الكريم ، حيث يقول سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[النحل : ٩٠]، وقد قالوا : إن الله (عز وجل) ينصر الدولة العادلة ، ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة ، ولو كانت مسلمة ؛ لأنها لو كانت مسلمة حقًا لما رضيت بالظلم ، أو قامت عليه ، ولذا قالوا أيضًا : إن الدول قد تدوم مع الكفر والعدل ، ولا تدوم مع الإسلام والظلم ؛ لأن تدينها حينئذ سيكون تدينًا شكليًّا ، لا يعي مفهوم الإسلام ، ولا مضامينه السامية القائمة على الحق والعدل ، ورفض الظلم والبغي ، بكل ألوانهما وأشكالهما .

ومن أسس بناء الدول : **الوعي بالتحديات** ، فإنَّ الوعيَ بقيمةِ الوطن ، وبالتحديات التي يُواجهها ، وبالمخاطر التي تحيطُ به ، أمرٌ يتطلب الإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا لأننا دون إدراك هذه التحديات ودون الوعي بها لا يمكن أن نضع حلولًا ناجحة أو ناجعة لها ، ومما لا

شك فيه أن قضية الوعي بقيمة الوطن ، وبمشروعية الدولة الوطنية ، وضرورة دعم صمودها ، والعمل على رقيها وتقدمها ، أحد أهم المرتكزات لبناء الدولة القوية ، وأحد أهم دعائم الولاءِ والانتماءِ للوطن والحفاظ على مقدراته .

كما أن الوعي بأهمية الوطن يقتضي أن نصحح المفاهيم الخاطئة التي حاولت الجماعات الإرهابية والمتطرفة ترسيخها في الأذهان ، حيث عملت وبنت فلسفتها على محاولات إحداث القطيعة وفقدان الثقة بين سائر الشعوب وحكامها والمسئولين فيها ، مع أن تعاليم الأديان تدعونا إلى إكرام الحاكم العادل ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ) (سنن أبي داود) ، وجعل الحق سبحانه الحاكم العادل يوم القيامة في السبعة الذين يظلهم سبحانه في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ، . .) (متفق عليه) ثم ذكر في مقدمتهم : الإمام العادل .

ومن أسس بناء الدول : **الوحدة والتآلف** ، فحين تتوحد الأمة، وتتماسك كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ويؤدي إلى وحدة الاتجاه والفكر والشعور بحيث إذا اشتكى منه عضو اشتكى كله ، فلا عداوة بينهم، ولا تمييز بين عناصرهم ، ولا صراع بين الطبقات لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[الحجرات : ١٠]، ويترتب على هذه الأخوة الحب والسلام والتعاون والوحدة ، وقد أكد هذا نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ

وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه)، وقال في حديث آخر : (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) (متفق عليه)، إن الوحدة والتآلف تؤدي إلى قوة الأمة وقدرتها على مواجهة التحديات ، وذلك بأن تكون صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص، وتكون أمة واحدة متآلفة متحابة فيما بينها ، قال تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون : ٥٢]، وقال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء : ٩٢]، وقال سبحانه : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[آل عمران : ١٠٣]، فلا نصر لقوم متفرقين مشتتين ، متباغضين متنافرين ، لا نصر إلا بوحدة صف خالصة ، وقلوب متآلفة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إن من أهم عوامل وركائز بناء الدول: **إعلاء القيم الأخلاقية والسلوكية** ، فالأمم والحضارات التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وعوامل قيامها ، ولله در القائل :

وَإِذَا أُصِيبَ القومُ فِي أَخْلَاقِهِمْ * * فَأَقِمْ عليهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلًا

إنَّ للأخلاق في الإسلام منزلة عالية ، فبها يرتقِي المسلمُ في درجاتِ الإيمانِ ، وتثقل موازينه يوم العرض على الواحد الديان ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ في مِيزَانِ العبدِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ ، وَإِنَّ الله يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ) (سنن الترمذي)، ولما سُئل (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ: (تَقْوَى اللهِ ، وَحُسنُ الخُلُقِ) (سنن الترمذي)، وجعل (صلى الله عليه وسلم) حسن الخلق معيار كمال الإيمان أو نقصانه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَكْمَلُ المُؤمنينَ إيمَانًا أحسَنُهُمْ خُلُقًا . . .) (سنن الترمذي)، فحسن الخلق يحمل صاحبه على الخِلال الحميدة كالرَّحمة ، وحبِّ الخير للغير ، والسَّعي لنفع النَّاس ، وتحقيق النفع العام للبلاد والعباد بعيدًا عن الأنانية وحب الذات ، فديننا الحنيف قائم على الإيثار وحب العطاء ، لا على الأثرة والشح والأنانية .

ومن أهم أسس وعوامل بناء الوطن: **التضحية في سبيله** ، فالوطنية الحقيقية نظام حياة ، وإحساس بنبض الوطن وبالتحديات التي تواجهه ، والتألم لآلامه ، والفرح بتحقق آماله ، والاستعداد الدائم للتضحية من أجله ، والدفاع عن الوطن وحمايته ، والتضحية من أجله مطلب شرعيٌّ ، وواجبٌ وطنيٌّ على كل من يعيش على أرضه ، ويستظل بسمائه ؛ فحب الوطن لا يتوقف عند مجرد المشاعر والعواطف فحسب ، بل يجب أن يترجم إلى عمل وسلوك صالح نافع للفرد والمجتمع ، ومن ثمَّ فلا بد من التضحية لأجل بقائه قويًّا عزيزًا ، فالانتماء للوطن يوجب على أبنائه أن يعتزوا به ، وأن يتكاتفوا جميعًا للحفاظ عليه ؛ لأن استقرار الأوطان ضرورة

لتحقيق غاية الله من الخلق في إعمار الكون ، ورفعة الدين ، وإقامة شعائره ؛ لذا فقد أعلى الله (عز وجل) شأن من يبذلون أرواحهم في سبيل الله دفاعًا عن أوطانهم ، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ}[التوبة : ١١١].

اللهم وفقنا لما فيه خير بلادنا ورفعتها ،

واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين .

* * *

البرُّ بالأوطان من شمائل الإيمان

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم : {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ}[البقرة: ١٢٦] ، وأَشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَن تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبعـــد :

فإن حبَّ الأوطان والحفاظ عليها فطرة إنسانية أكدها الشرع الحنيف وجعلها من شمائل الإيمان ودلائله ، فهذا نبينا (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يقول مخاطبًا مكة المكرمة: (والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله ، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى الله ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ؛ ما خَرَجْتُ) (سنن الترمذي) ، ولما هاجر (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إلى المدينة واتخذها وطنًا له ولأصحابه الكرام لم ينس (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) وطنه الذي نشأ فيه ، ولا وطنه الذي استقر فيه ، وقد قال: (اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا ، وَصَحِّحْهَا لَنَا ، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ) (متفق عليه) ، فدعاء النبيِّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) لنفسه ولأصحابه بحب المدينة ، والدعاء بإصلاح هوائها ، والمباركة في مدّها وصاعها ، يعلمنا كيف يكون حبُّ الإنسان لوطنه ، وبره به .

وعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ الله عَنْهُ) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ المَدِينَةِ ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى

دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا) (صحيح البخاري) ، وعندما عدَّد الحافظ الذهبيُّ طائفةً من محبوبات النبيِّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قال : "وكان يحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أَبَاهَا ، ويحبُّ أسامةَ ، ويحب سبطَيْه ، ويحب الحلواء والعسل ، ويحب جبل أُحُدٍ ، ويحب وطنه ، . . . " (سير أعلام النبلاء) ، وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ الأصمعي : سمعتُ أعرابيًّا يقول: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ الرَّجُلَ ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَحَنُّنُهُ إِلَى أَوْطَانِهِ ، وَتَشَوُّقُهُ إِلَى أَهْلِهِ، وَبُكَاؤُهُ عَلَى مَا قَضَى مِنْ زَمَانِهِ . (المجالسة وجواهر العلم للدينوري).

والمتأمل في جوهر الرسالات السماوية ، يجد أن جميعَها دعت إلى حبِّ الأوطان والدفاع عنها ، وجعلت ذلك فريضةً دينيةً ، ولم يكن النبيّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) بِدْعًا من الرسل في حبه لوطنه ، فهذا سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يدعو لوطنه قائلا : {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}[إبراهيم: ٣٥] ، وهذا نبي الله موسى (عليه السلام) حينما قضى الأجل الذي كان بينه وبين الرجل الصالح في مدين توجه تلقاء مصر من شدة شوقه ومحبته لوطنه الذي ولد فيه وتربى على أرضه .

ومما لا شك فيه أنه لا يوجد إنسان عاقلٌ ولا وطنيٌّ شريفٌ ولا مؤمنٌ صادقٌ إلاّ وهو على استعداد لأن يفتدي وطنه بنفسه وماله ، فإن حفظ الوطن من الكليات الست التي أقرتها الشريعة الإسلامية ودعت إليها ، وهو واجب الوقت الذي ينبغي أن يقوم به كل إنسان ، كلٌ في مجاله وميدانه ، ولا سيما في زماننا هذا ؛ حيثُ تتعرض أوطاننا للاستهدافِ ومحاولات الهدم ، والعبث بأمنها واستقرارها ، من قِبل جماعات متطرفة

حاولت أن تُهوِّن من شأن الوطن وأن تضع الناس في تقابلية خاطئة بين الدين والوطن ، مع أن الدين لا بد له من وطن يحمله ويحميه ، وقد قرر الفقهاء أن العَدُوَّ إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين كان الدفاعُ عنه فرض عينٍ على أهله جميعًا ، ولو فنوا عن آخرهم في سبيل الدفاع عنه ، ولو لم يكن الدفاع عن الأوطان من صميم مقاصد الأديان لكان لهم أن ينجوا بأنفسهم ودينهم ، وهو ما لم يقل به أحد من أهل العلم ، فحماية الأوطان والحفاظ عليها والبر بها والعمل على رقيها وتقدمها من صميم مقاصد الأديان ؛ لأن الدفاع عن الوطن هو دفاع عن العرض والأرض والكرامة والدين والوطن جميعًا .

ولقد ضرب لنا النبي (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أروع الأمثلة في حماية الوطن ، والدفاع عنه ، والحفاظ على أمنه واستقراره ، سواء من خلال تصرفاته الفردية (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، أم من خلال قراراته ومعاهداته كقائد للأمة ، أم من خلال تربيته لأصحابه على قيمة حب الوطن والدفاع عنه ، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) – قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ – وَهُوَ يَقُولُ: (لَنْ تُرَاعُوا ، لَنْ تُرَاعُوا ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ ، فَقَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا ، أَوْ : إِنَّهُ لَبَحْرٌ) (متفق عليه) .

ولقد كانت وثيقة المدينة التي أبرمها النبي (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مع جميع الطوائف التي تسكن بها من أول قراراته (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم)

حينما قدم إلى المدينة ، وكان الهدف منها الدفاع عن المدينة وحمايتها والحفاظ على أمنها واستقرارها ، وربَّى النبيُّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أصحابه على أن التضحية بالنفس والمال دفاعًا عن الأوطان وحرماتها ومقدساتها من صميم الجهاد في سبيل الله ، ولا أدل على ذلك من أن الله (عز وجل) قد أعلى من شأن من بذلوا أرواحهم دفاعًا عن دينهم وأوطانهم ، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ}[التوبة: ١١١] ، ولله در أمير الشعراء شوقي وهو يجسد حقيقة البر بالأوطان فيقول:

بِـــلادٌ ماتَ فِتيَتُهـــا لِتَحيـــا وَزالوا دونَ قَومِهِـــمُ لِيَبــقُــوا

وَقَفتُــمْ بَيــنَ مَــوتٍ أَو حَيــاةٍ فَإِن رُمتُمْ نَعيمَ الدَهرِ فَاشْقُـوا

وَلِلأَوطــانِ فــي دَمِ كُـلِّ حُرٍّ يَدٌ سَلَفَــت وَدَيــنٌ مُستَحِــقُّ

وَمَن يَسقــي وَيَشـرَبُ بِالمَنـايا إِذا الأَحرارُ لَم يُسقـوا وَيَسـقوا

وَلا يَبـني المَمالِكَ كَالضَحايـا وَلا يُدني الحُقُــوقَ وَلا يُحِـقُّ

فَفي القَتلـى لِأَجيـالٍ حَيــاةٌ وَفي الأَسرى فِدًى لَهُمُ وَعِتقُ

وَلِلحُرِّيَّـــةِ الحَمـــراءِ بــابٌ بِكُــلِّ يَــدٍ مُضَــرَّجَـــةٍ يُــدَقُّ

ومن صور البر بالأوطان : الاتحاد وعدم شق الصف ، والحرص على المصلحة العامة ، وتقديمها على المصلحة الخاصة ، فواجبنا جميعًا تجاه وطننا ووجوب البر به يقتضي توحيد الجهود ، ونبذ الخلافات ، فنحن أمام قضية تهدد وجودنا ، فيجب علينا تجاوز أي خلاف ، فليس أمامنا سبيل سوى أن نكون على قلب رجل واحد ، امتثالًا لقول الله تعالى:

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جميعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران١٠٣] ، وقوله جلَّ شأنُه:{وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦] ، وقوله تعالى: {وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلا تَتّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣] ، ويقول نبينا (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا ، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) (صحيح مسلم) .

إن وحدة الأمة واعتصامها بدينها ، والحفاظ على ثقافتها وهويتها ، هو سرّ بقائها ، ودعامة قوتها ، والسبيل إلى نهضتها ، ولقد ضرب النبي (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مثلًا للأمة في تماسكها وتآزرها فقال: (مثل المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ ، كَمَثَلِ الجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى) (متفق عليه) .

وعندما أراد أحد الشيوخ أن يعلِّم أبناءه أهمية الوحدة وأنها سبب القوة ، وخطورة الفرقة وأنها سبب الشتات والضياع ، جاء بحزمة من الحطب وقال: من يستطيع منكم أن يكسر هذه الحزمة بضربة واحدة أو بضربتين ، فحاول كل واحد منهم فلم يفلح ، ففك حزمة الحطب ووزعها على أبنائه ، وأعطى كل واحد منهم عودًا فكسره بضربة واحدة ، فقال:

تَأْبَىَ الرِّماحُ إِذَا اجْتَمَعْنَّ تكسُّرًا وَإِذَا افْتَرَقْنّ تَكَسّرتْ آحَادَا

إنَّ أمة ربها واحد ، ودينها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، وقبلتها

واحدة ، ولغتها واحدة ، ينبغي أن تكون يدًا واحدة ، قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء : ٩٢]، وقال النبي (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ) (سنن الترمذي) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن من صور البر بالأوطان حمايتها من الدعوات المشبوهة والهدامة ويكون ذلك ببناء جسور الثقة بين أبنائها ، وعدم الانصياع للشائعات ووأدها في مهدها ، وحسن الظن بالناس ، بحيث لا نترك بيننا فرصة لخائنٍ ، أو عميلٍ ، أو مأجورٍ على حساب الوطن ، فالجميع تحت لواء واحد هو لواء الوطن الذي تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواءً موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة ؛ لذا يقول نبينا (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً ، فَقُتِلَ ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي ، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا ، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ) (صحيح مسلم) .

وكذلك من صور البر بالأوطان : العمل على إعمارها ورفعتها وتقدمها بالجد والاجتهاد ، على أننا نؤكد أن ذلك لن يتحقق إلا بتقديم يد العون المخلصة ، وتقديم الكفاءات والمتخصصين في كل المجالات ، كل بما يحسن ويتقن ، وأن ندرك جميعًا حجم المخاطر التي تحاصرنا من كل جهة ، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة على مواصلة مسيرة البناء والتعمير ، ولنعلم أنه حيث تكون المصلحة ، ويكون البناء والتعمير والعمل والإنتاج ، وسعادة الناس وتحقيق أمنهم واستقرارهم ، فثمة شرع الله ، وهذا هُو الدينُ الحق ، وكل ما يدعو للفساد والإفساد ، والتخريب والقتل، والدمار ، فثمة عمل الشيطان وجماعات الفتنة والدمار والخراب ، فديننا فن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، وديننا دين البناء والتعمير لا الإفساد ولا التخريب .

وعلينا أن ندرك أن أعداءنا لا يكلّون ولا يملّون من تدبير المؤامرات ، ومحاولة الإيقاع بنا في شرك الفتن والتفرق والعصبية المذمومة ، وهم يراهنون على تغييب الوعي ، ويلبسون الحق بالباطل ، ولكن هيهات ، فنحن بوعينا ووحدتنا وإبصارنا الحق ، قادرون بحول الله وقوته أن نحمي أنفسنا ومواطنينا ووطننا من كل ذلك ، فنحن نبغي الحق والحق أحق أن يتبع ، ونحن نريد الصلاح والطيب الذي ينفع البلاد والعباد ، والله عز وجل يقول: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف: ٥٨] .

اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

* * *

خدمة المجتمع بين العمل التطوعي والواجب الكفائي والعيني

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الحج: ٧٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعــد:

فإن ديننا الإسلامي الحنيف قد دعا إلى كل عمل إنساني من شأنه أن يحقق النهضة والرقي في المجتمعات ، ولا شك أن خدمة المجتمع من أهم عوامل تحقيق النهضة والرقي ، ونشر المحبة والتآلف بين أبناء المجتمع الواحد ، وإن من أهم سِمات المُجتمعات الراقية أن تكون مترابطة قوية ، متماسكة في بنيانها ، يشد بعضها بعضًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه) .

ولقد حثَّنا الشرع الحنيف على خدمة المجتمع من خلال الترغيب في العمل التطوعي ، والدعوة إلى المسابقة في الخيرات ، والمنافسة فيها ، والمسارعة إليها ؛ حتى لا تسيطر علينا الفردية ، أو الأنانية ، أو

السلبية، فقال تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[المائدة : ٢] ، وقال سبحانه: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جميعًا} [المائدة: ٤٨] ، وقال سبحانه: {وَسَارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] ، وقال جل شأنه في وصف المؤمنين: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: ٦٠ ، ٦١] ، وقال تعالى في الحثِّ على نفع الناس ، وقضاء حوائجهم ، والسعي إلى تفريج كربهم: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤] .

وقد أرشدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهمية العمل التطوعي وفضله ، وبين مكانته بدعوة صريحة إلى تقديم يد العون للآخرين ، وبذل الفضل لهم ، والتوسعة عليهم ، فعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ) (صحيح مسلم). وقال (صلى الله عليه وسلم) : (يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّك إِنْ تَبْذُلِ

الْفَضْلَ خَيْرٌ لَك ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَك ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...) (صحيح مسلم) ، وعندما سُئل النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : أيُّ الناس أحب إلى الله (تعالى) ؟ وأي الأعمال أحب إلى الله (عز وجل) ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعَهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا ، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلِأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، (يعني المسجد النبوي) شَهْرًا ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ – وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ – مَلَأَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ) (المعجم الأوسط للطبراني) .

وكان النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يحرص على متابعة أصحابه ، ويتعهدهم بالسؤال عن ذلك ؛ تحفيزًا لهم على فعل الخير ، ومن ذلك أنه (صلى الله عليه وسلم) سألهم ذَاتَ يَوْمٍ : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟) ، فقَالَ سيدنا أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا يا رسول الله ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً) ، فقَالَ سيدنا أَبُو

بَكْرٍ (رضى الله عنه) : أَنَا يا رسول الله ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا) ، فقَالَ سيدنا أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه) : أَنَا يا رسول الله ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا)، فقَالَ سيدنا أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه) : أَنَا يا رسول الله ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ) (صحيح مسلم) .

والعمل التطوعي هو : ما تَبَرَّعَ الإنسان ليقوم به من تلقاء نفسه مما لا يلزمه ولا يجب عليه ، ولا يبتغي من وراء ذلك نفعًا ماديًّا ولا معنويًّا ، وإنما يقدمه عن طواعية واختيار ؛ رغبة في نفع الناس ومساعدتهم ؛ وطلبًا لمرضاة الله (عز وجل) ، فالعمل التطوعي دليل على الإيجابية التي يجب على المسلم أن يتحلى بها ، والتي تعني الشعور بالمسئولية والمشاركة الفاعلة في بناء المجتمع بالتوجيه والإصلاح والارتقاء بالفرد والوطن ، ومن ثم يتحقق فيه قول الله تعالى:{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة: ٧١] .

والعمل التطوعي بالنسبة للمسلم نوع من أنواع العبادة يقوم به المسلم انطلاقًا من شعوره بالمسئولية تجاه مجتمعه ، وتجاه الإنسانية كلها، بل وتجاه جميع المخلوقات ، وقد ذكر لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن رجلا دخل الجنة في كلب سقاه ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي

بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا ، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا ؟ فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) (متفق عليه). وعن أنس (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهَرًا ، أَوْ حفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غرَسَ نَخْلًا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

وعلى الرغم من أن العمل التطوعي لخدمة المجتمع من باب المندوب أو المستحب ، فإن الأمر قد يتحول من الندب إلى الوجوب ، وقد قسم أهل العلم الواجب إلي عيني وكفائي ، فالواجب العيني: هو ما يجب وجوبًا لازمًا علي كل فرد من الأمة ، لا يقوم غيره فيه مقامه ، والواجب الكفائي : إذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم به أحد أثموا جميعًا ، فلو أن رجلًا تطوع لإدارة عمل خيري تكلف إنشاؤه مبالغ كثيرة ، وتعلقت بهذا العمل مصالح بعض أفراد المجتمع ، فإن عليه أن يتم هذا العمل ولا يتوقف في منتصف الطريق بحجة أنه متطوع وليس ملزمًا بشيء ، ويكون هذا الوجوب كفائيًّا إذا كان هناك أحد غيره يمكنه القيام بهذا العمل ، ويكون واجبًا عينيًّا في حقه إذا لم يكن هناك من يقوم بهذا العمل بدلًا منه ، فضلًا عن أن

النكوص عن تحمل المسئولية المجتمعية يتنافى مع الشهامة والمروءة التي يُحتِّمها علينا الواجب الإنساني ، وقد قال بعض الحكماء: أعظم المصائب أن تقدر على المعروف ثم لا تصنعه ، ولله در المتنبي حيث قال:

وَلم أرَ في عُيُوبِ النّاسِ شَيْئًا   كَنَقصِ القادِرِينَ على التّمَامِ

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

لا شك أن خدمة المجتمع من خلال العمل التطوعي صورة من صور حماية الأوطان والعمل على رقيها وتقدمها ، فإن حماية الأوطان لا تقتصر على مواجهة العدوان فحسب ، بل تقوم أيضًا على تحقيق التكافل الاجتماعي ، والتعاون على البر والتقوى وصولًا إلى حياة اجتماعية كريمة ينعم فيها الفقير بنعمة الأخوة الإنسانية الرحيمة ، ويجد فيها المحتاج من يشاطره الألم ويفرج عنه همومه وأحزانه من بني وطنه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (متفق عليه) .

فإن واجب الوقت وفقه الأولويات يحتمان على جميع أبناء الوطن المخلصين المدركين لطبيعة المرحلة ، وحجم التحديات المحيطة بنا أن يقفوا جميعًا صفًّا واحدًا حتى تتحقق الكفاية لوطنهم كل في مجال عمله ، فأهل الطب يتعاونون في تحقيق الكفاية لوطنهم ، وكذلك رجال القانون ، والهندسة ، والزراعة ، والتعليم ، وسائر التخصصات والصناعات وذلك بتنمية روح البذل والعطاء والتطوع ، والبعد عن الأثرة والأنانية وحب الذات ، وبهذا يتحقق التكافل الاجتماعي ويتحقق التكامل أيضًا ، فهذا يعمل بيده ، وذاك ينفق من ماله ، وهذا يعلم الناس ، وبهذا يتم توظيف جميع الطاقات والمواهب لخدمة مجتمعنا ، ولعل من أهم الأولويات سعي رجال الأعمال المخلصين الوطنيين لاستثمار أموالهم في بلدهم وتوفير فرص العمل لأبناء هذا الوطن الكريم ، ويقول الشاعر:

كُونُوا جميعًا يَا بَنِيّ إذَا اعْتَـرَى خَطْــبٌ ، وَلاَ تتفَرقُــوا آحَـــادًا
تَأبَى الرِّمَاحُ إذَا اجتَمَعْنَ تَكَسُّرًا وَإذَا افْتَــرَقْــنَ تَكَسّــرَتْ أَفْـرَادًا

إن حوائج الناس متنوعة ، ودروب العمل التطوعي كثيرة ما بين إطعام جائعٍ ، وكسوة عارٍ ، وعيادة مريضٍ ، وتعليم جاهل ، وإنظار معسرٍ ، وإعانة عاجزٍ ، وتفريج هم ، وإزالة غم ، وكفالة يتيم ، وسعيٍ في شفاعةٍ حسنةٍ تفكُ بها أسيرًا ، أو تصلح بها بين متخاصمين ، أو تحقنُ بها دمًا فكل ذلك من التطوع بالخير ، فإن كنت لا تملك هذا ولا ذا فادفع بكلمةٍ طيبةٍ ، وإلا فكُفَّ أذاك عن الناس ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ) قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: (يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ) ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ: (يُعِينُ ذَا

الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ) ، قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: (يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ) ، قيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ : (يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ) (متفق عليه) .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين .

* * *

مفهوم المواطنة والانتماء
وواجبنا تجاه السائحين والزائرين والمقيمين

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ العزيزِ :{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة: ٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فقد جُبِل الإنسان بفطرته على حب الوطن والانتماء إليه ، يشترك في هذا جميع الناس على تنوع أعراقهم واختلاف مشاربهم ، ولأن الإسلام هو دين الفطرة والإنسانية ، فلم يقف في وجه هذا الميل الطبيعي ، بل أقره ورغَّب فيه وحضَّ عليه ، وجعله سبيلاً لزيادة التماسك بين أبناء الوطن الواحد .

وقد اقترن حب الوطن في القرآن الكريم بحب النفس ، فقال تعالى : {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اُقْتُلُوا أَنْفُسكُمْ أَوْ اُخْرُجُوا مِنْ دِيَاركُمْ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ}[النساء: ٦٦] ، فليس غريبًا أن يشعر الإنسان بالحنين الصادق لوطنه عندما يُغادره إلى مكانٍ آخر ، فما ذلك إلا دليلٌ على قوة الارتباط وصدق الانتماء للوطن .

وهذا ماحثَّت عليه الشرائع السماوية ، وأكده ديننا الحنيف ، ولعلَّ خير دليلٍ على ذلك : ما أعلنه نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن حبِّه

ووفائه لوطنه مكة المكرمة ، وهو يغادرها مهاجرًا إلى المدينة ، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ) (سنن الترمذي) ، وفي رواية : أنه (صلى الله عليه وسلم) وَقَفَ عَلَى الْحَزْوَرَةِ – موضع بمكة – فَقَالَ لمكة : (عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ ، وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ، وَلَوْلاَ أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ. (مسند أحمد).

ألا ما أروعَها من كلمات عبَّر بها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) وهو يودِّع وطنه ، فكشفت عن عظيم حبِّه لوطنه ، وتعلُّقه الكبير به لِمَا له مِنْ مَكَانَةٍ فِي نَفْسِهِ ، فمكة هي الأرض التي ولد ونشأ وشبَّ وتزوَّج فيها ، وله فيها (صلى الله عليه وسلم) ذكرياتٌ لا تُنسى ، فالأوطان ذاكرة الإنسان .

إن حقيقة المواطنة هي انتماء الإنسان إلى وطنه الذي يعيش فيه ، وأرضه التي تربى عليها وترعرع في خيراتها ، وهي ليست مجرد علاقة بين فرد أو جماعة وبين الدولة وحسب ، ولكنها دعوة إلى التمتع بالحقوق ، وأداء الواجبات ، والعيش ، والتعامل المشترك من خلال المشتركات الإنسانية بين جميع أبناء الوطن الواحد على اختلاف ألوانهم ، وأجناسهم ، ومعتقداتهم ، وثقافاتهم .

ولقد تجسَّد مفهوم المواطنة من خلال وثيقة المدينة التي كانت بمثابة الدستور الأول المنظم للعلاقات بين البشر ، والتي تعد أفضل

أنموذج في فقه التعايش السلمي بين البشر جميعًا على اختلاف أديانهم وأعراقهم ؛ لذا حققت نجاحًا على أرض الواقع ، فحينما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وجد بها مزيجًا إنسانيًّا متنوعًا من اليهود والوثنيين والمشركين ، فلم يقم (صلى الله عليه وسلم) بعزلهم عن المجتمع أو إقصائهم أو المصادرة على عقولهم ، وإنما دعاهم إلى الإسلام، فمَنْ أبى منهم الدخول فيه ، ترك له النبي (صلى الله عليه وسلم) حرية الاعتقاد ، مع توفير الأمن والأمان له ، ومعاملتهم معاملة إنسانية كريمة ، والواقع خير شاهد على أن الدول والشعوب التي أرست قيم المواطنة والتزم أفرادها بما عليهم من واجبات وتمتعوا بما لهم من حقوق في إطار التعايش السلمي هي أكثر الدول أمنًا وأمانًا وتقدمًا اقتصاديًّا وعلميًّا وتحقيقًا للاستقرار والعدل ، وأن الدول التي دخلت في فوضى الصراعات الدينية ، أو العرقية ، أو القبلية ، أو المذهبية ، واشتعلت فيها نيران العصبية قد ذهبت إما إلى تفكيك وانقسام وقتل وتشريد ، أو إلى سقوط لا قيام منه .

على أن المواطنة تتضمن حقوقًا وواجبات ، فمن حقوقها :

* حرية العقيدة والعبادة وممارسة الشعائر الدينية لكل أبناء الوطن الواحد ، فقد أعطى الإسلام لكل إنسان الحرية في اختيار الدين الذي يعتقده ويؤمن به ، دون إكراه أو إجبار ، وأساس هذه الحرية قوله تعالى:{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة: ٢٥٦] ، ويقول سبحانه :{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم}[هود: ١١٨، ١١٩] .

* كذلك من حقوق المواطنة : المحافظة على الدماء والأموال والأعراض، والمتأمل في جوهر الشريعة الإسلامية ليلحظ بوضوح أنها قد جاءت لتحقيق مصالح العباد بالأمن والاستقرار ، فالأمن على الحياة مطلب إنساني أكد عليه الإسلام حتى مع غير المسلمين ؛ لذا جعل الله (عز وجل) قتلَ نفسٍ واحدةٍ بمثابةِ قتلٍ للناسِ جميعًا ، فقال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[المائدة: ٣٢] ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّمَا رَجُلٍ أَمَّن رَجُلاً عَلَى دَمِهِ ، ثُمَّ قَتَلَهُ ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا) (صحيح ابن حبان) ، والأمر لا يقف عند حد القتل المادي فقط ، بل يشمل أيضًا القتل المعنوي في شتَّى صوره وأشكاله ، سواء أكان ذلك بالإذلال، أم بالقهر والتعذيب ، أم بسلب الحرية ، أم بغير ذلك من الصور .

وقد نهى الشارع عن أكل أموال الناس بالباطل لحرمتها ، فأوجب قطع يد السارق ؛ حفاظًا على المال من الضياع والسرقة ، وحذر الأمة من أن يأكل بعضهم مال بعض ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}[النساء: ٢٩] .

وكذلك حفظ الشارع للأعراض حرمتها فأوجب صيانتها ، وتوعد المخالف باللعنة فقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ

الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[النور: ٢٣] ، ويقول سبحانه في شأن الخوض في الأعراض :{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}[النور: ١٥] ، كذلك نهى الشارع عن الاقتراب من الفاحشة ، فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}[الإسراء: ٣٢].

* ومن حقوق المواطنة أيضًا : العدل والإنصاف بين أبناء الوطن الواحد في ضوء أسس المواطنة المتكافئة والتعايش السلمي واحترام الحقوق والواجبات المتبادلة تجاه الوطن والمواطن ، وقد جاء الإسلام بحفظ الحقوق وصيانتها لتحقيق العدل المأمور به ، قال تعالى: {إِنّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}[النحل: ٩٠] ، وقال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[النساء: ٥٨] ، والإنسان مطالب بأن يعدل حتى مع أعدائه ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتّقْوَى}[المائدة: ٨] .

وكما أن المواطنة تمنح المواطنَ حقوقًا فإنها تلزمه ببعض الواجبات، منها:

* التضحية من أجل الوطن ، فالتضحية من أجل الأوطان علامة على حبها ، وحب الوطن ليس كلامًا ، أو ادعاءً ، أو مجرد شعاراتٍ رنانةٍ ، إنما هو فطرةٌ صادقةٌ تظهر في إخلاص العمل ، والتضحية بكل غالٍ ونفيسٍ .

وللتضحية صورٌ متعددة ، منها : التضحية بالنفس ، وهي أعلى وأغلى صور التضحية من أجل المحافظة على الأوطان ، فحراسة الأوطان

والدفاع عنها واجب شرعي وضرورة وطنية عدّها الشرع من أفضل الأعمال عند الله (عز وجل) ، وقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) حراس الوطن الذين يضحون بأنفسهم دفاعًا عن الوطن بقوله : (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله).(سنن الترمذي).

وجدير بالذكر أن هناك فرقًا بين التضحية بالنفس في سبيل الدين والوطن وبين من يفجر نفسه لإيذاء الآخرين ، فليس هناك شرع يبيح أو يجيز ذلك ، فمفجر نفسه سواءٌ أصاب غيره أم لم يصب منتحر ، يعجل بنفسه إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.

* كذلك من واجبات المواطنة : العمل الجاد المثمر ، واستثمار ثروات الوطن من أجل تحقيق نهضته وازدهاره ، ولن يتحقق ذلك إلا برجال مخلصين قادرين ، يشاركون في تشجيع الاستثمار ، وتنمية المجتمع ، وفي الوقوف بجانب الفقراء والمحتاجين ، فهذا واجب وطني ومطلب شرعي يتحتم عليهم أن يقوموا به ، قال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[المائدة: ٢] ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (... وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ...) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعَهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُور تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا..) (المعجم الأوسط للطبراني) .

* ومنها : تقديم مصلحة الوطن العامة على المصلحة الخاصة ، والمشاركة في المحافظة على أمنه واستقراره ، والتصدي بحزم لكل حملات التخريب والإفساد ، وهذا لا يكون إلا بوحدة الصف والهدف ، وأن نكون جميعًا على قلب رجل واحد ، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..} [آل عمران: ١٠٣] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

إن الانتماء للوطن يحتم على المواطن الوفاء بكل حقوقه وعهوده ومواثيقه وقوانينه ومن أهمها : الحفاظ على كل من دخل بلدنا سائحًا ، أو زائرًا ، أو مقيمًا ، لأن الإذن الذي يحصل عليه بدخول بلدنا إنما هو بمثابة عهد أمان وضمان من أن يؤذىَ أو يعتدىَ عليه بأي نوع من أنواع الاعتداء ، وأن الاعتداء على أي من السائحين ، أو الزائرين ، أو المقيمين ، إنما هو خيانة دينية وطنية ، وجريمة نكراء .

ونؤكد أن السياح والمقيمين لهم جميعًا أمان الله وأمان رسوله (صلى الله عليه وسلم) وأمان الوطن ، ولهم حق الحماية الكاملة ، وأن الاعتداء على أي منهم قولًا أو فعلًا أمر يرفضه الشرع الحنيف ويجرمه القانون ، ويستوجب أشد العقوبات ، فقد أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعقود ، فقال:

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[المائدة : ١]، وقال سبحانه : {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}[النحل: ٩١] ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً ، أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا) (صحيح البخاري) ، وتوعد النبي (صلى الله عليه وسلم) كل من خالف ما عاهد الناس عليه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن رب العزة سبحانه : (ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفي مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ .(صحيح البخاري).

ومن ثمّ فإن التعامل مع السائحين والمقيمين والزائرين لبلادنا ينبغي أن يكون بالحسنى ، مع وجوب حمايتهم وكفّ الأذى عنهم ؛ لأن الخروج على ذلك إنما هو خروج على مقتضيات الشرع والوطنية والإنسانية السوية .

* * *

بناء الوعي وأثره في مواجهة التحديات

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابهِ الكريم : {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ}[الروم: ٤٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فإنَّ الوعيَ بقيمةِ الوطن ، وبالتحديات التي يُواجهها ، وبالمخاطر التي تحيطُ به ، أمرٌ لا غنى عنه ، خاصة ونحن في مرحلةٍ شديدةِ الحرج في تاريخ منطقتنا ؛ فالمخاطرُ جسام ، والتحدياتُ هائلة ، والأمرُ أقرب ما يكون إلى زمن الفتن التي تجعلُ الحليمَ حيرانَ لشدةِ اختلاط الأمور ، واضطرابها ، وتقلبها .

ومما لا شك فيه أن قضية الوعي بالوطن ، وبمشروعية الدولة الوطنية ، وضرورة دعم صمودها ، والعمل على رقيها وتقدمها ، إحدى أهم المرتكزات لصياغة الشخصية السّوية ، وإحدى أهم دعائم الولاءِ والانتماءِ للوطن والحفاظ على مقدراته وكل ذرة من ثراه النّدِي .

إن الوعي بالمخاطر يحتاج إلى إعمال العقل الذي كرَّم الله (عز وجل) به الإنسان حتى يميز بين الصالح والطالح ، حيث يقول سبحانه : {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[يونس : ١٠١] ، ويقول سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}

[المؤمنون: ٧٨] ، وقد نعى القرآن الكريم على أولئك الذين لا يُعملون عقولهم في التفكر والتدبر ، ولا يستخدمونها فيما خلقت له ، فقال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[الأعراف : ١٧٩] ، ثم أخبر أن هؤلاء يوم القيامة تدوم حسراتهم ، ويعلنون ندمهم ، فقال سبحانه حكاية عنهم : {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: ١١] ، ولذلك قيل: " إِنَّ تَفَكُّرَ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةٍ ".

ومما يزيد الأمر خطورة وحرجًا أن أعداء الأمة دائمًا يراهنون على تغييب الوعي ، وليس ذلك جديدًا على أصحاب الدعوات الهدامة والأفكار المتطرفة الذين لا يرقبون في الأمة إلًّا ولا ذمة ؛ فمنذ بداية دعوة الإسلام قام أعداء الدين بمحاولات متعددة للصَّدِّ عنه ، معتمدين على تغييب الوعي بقلب الحقائق وكَيْل الاتهامات ، قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إلا اخْتِلَاقٌ}[ص: ٤ – ٧]، وكذلك يغيبون الوعي بعدم إفساح المجال لمجرد سماع كلمة الحق ، قال سبحانه حكاية عنهم:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[فصلت: ٢٦].

ولا خلاف في أن تشكيلَ وعي أمة أو بناء ذاكرتها ليس أمرًا سهلًا ولا يسيرًا ، ولا يتم بين لحظة وأخرى ، أو بين عشية وضحاها ، إنما هو عملية شاقة مركبة ، وأصعب منه إعادة بناء هذه الذاكرة ، أو ردها إلى ما عسى أن تكون قد فقدته من مرتكزاتها ، فما بالكم لو كانت هذه الذاكرة قد تعرضت للتشويه ، أو محاولات الطمس ، أو المحو ، أو الاختطاف ، ولا سيما لو كان ذلك قد استمر لعقود أو لقرون ؟!

إنّ بناء وعي بَني وطننا يتطلب الإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا ؛ لأننا دون إدراك هذه التحديات ، ودون الوعي بها ، لن نستطيع أن نضع حلولًا ناجحة تسهم في خلق حالة من الوعي الحقيقي ، ولعل من أخطر التحديات التي تواجهنا تلك التحديات التي تهدد أمننا واستقرارنا في أوطاننا ، فالأمن نعمة من أجل نعم الله (عز وجل) على الإنسان ، حيث يقول سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}[العنكبوت: ٦٧] ، فبدونها لا يهدأ للإنسان بال ، ولا تطمئن له نفسٌ ، ولا يهنأ بالحياة حتى لو أوتي الدنيا بحذافيرها ، فسعادة الدنيا ونعيمها في تحقيق الأمن والاستقرار ، يقول نبينا (صَلى الله عَلَيه وسلم) : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا في سربِهِ ، مُعَافًى في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا) (الأدب المفرد للبخاري) ، فبدون الأمن لن تقوم دولة ، ولن يطمئن أحدٌ على نفسه أو أهله أو جيرانه .

من أجل ذلك يجبُ علينا أن نكون جميعًا في يقظة ووعي وحيطة وحذر ، وأن نتعظ بغيرنا ، وأن نستفيد من تجارب الحياة وخبراتها، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}[النساء : ٧١] ، ويقول نبينا

(صَلى الله عَلَيه وسلم) : (لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ) (متفق عليه) ، فلنعلم أن حفظ ودوام أمن وطننا أمانة في أعناقنا جميعًا ، كل في مجاله وميدانه ، كيف لا ؟ والحفاظ على الوطن من أهم الضروريات لحفظ الدين وبقاء الدنيا ، فبدون الوطن لن نتمكن من عبادة الله (عز وجل) ، وبدون الوطن لن نستطيع إعمار الأرض التي أمرنا الله (عز وجل) بإعمارها ، وإن أي وطني شريف لا يتردد لحظة في أن يفتدي وطنه بنفسه وماله ، فكيف يكون المُفتدى به أهم وأغلى من المفتدَى ، ومن ثم يجب الأخذ على أيدي المفسدين العابثين بأمن الوطن واستقراره ، وتحذير الناس منهم ، حتى لا يوردونا موارد الهلاك .

كذلك من أهم التحديات التي نواجهها: التحديات الاقتصادية ، فهذه المرحلة الفاصلة من تاريخ وطننا توجبُ علينا التكاتف لمواجهة المشكلة الاقتصادية ، ولا يتحقق ذلك إلا بالعمل الجاد والمثمر ، وضرورة تحريك المال واستثماره ، وزيادة الإنتاج ، فقد حثَّ رسول الله (صَلى الله عَلَيه وسلم) المسلم على العمل وعمارة الأرض حتى يدركه الموت ، أو تأتيه الساعة ، فقال (صَلى الله عَلَيه وسلم): (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (الأدب المفرد للبخاري) ، وتلك دعوة صريحة للعمل والإنتاج ، لتُعَمَّر الديار ، وتزدهر الأوطان ، وبهما يكفي المؤمن نفسه ومن يعول .

فعلى شباب الأمة أن يدرك أن الوعي الحقيقيّ هو البناء لا الهدم، والإعمار لا التخريب ، وعليهم أن يقتحموا الصعاب ، وأن يواجهوا التحديات بعزيمة قوية ، وروح وثابة نحو البناء والتعمير ، وعمارة الكون ،

وحب الخير للناس جميعًا ، مؤمنين بحق الجميع في الحياة الكريمة ، بغض النظر عن الدين ، أو اللون ، أو الجنس ، أو العرق .

إضافة إلى ضرورة التكافل الاجتماعي الذي حث عليه ديننا الحنيف من خلال الترغيب في العمل التطوعي ، والدعوة إلى المسابقة في الخيرات ، والمنافسة فيها ، والمسارعة إليها حتى لا تسيطر علينا الفردية ، أو الأنانية ، أو السلبية ، فقال تعالى:{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[المائدة : ٢] ، وقال سبحانه:{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جميعًا} [المائدة: ٤٨] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) (صحيح مسلم) ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ) (صحيح مسلم). وقال (صلى الله عليه وسلم): (يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّك إِنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَك ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَك ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى) (صحيح مسلم) .

كذلك من الأخطار التي تواجهنا : خطر الانحراف الفكري ، فإن من أبرز مظاهر عظمة الإسلام الاعتدال والوسطية ، حيث يقول سبحانه : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطًا}[البقرة: ١٤٣] ، فمنهج الإسلام معتدل متوازن ، أساسه التخفيف واليسر ، قال تعالى : {يرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ}[النساء: ٢٨] ، وقال سبحانه: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[البقرة: ١٨٥] ، ويقول (صَلى الله عَلَيه وسلم) : (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ،

وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (صحيح البخاري) .

ولقد حذر النبيُّ (صَلى الله عَلَيه وسلم) من كل مظاهر الغلو والتطرف، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) (سنن النسائي) ، وعن أَنسٍ (رضي اللَّه عنه) قَالَ: (جاءَ ثَلاثةُ رهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْواجِ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يسْأَلُونَ عنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَلَمَّا أُخبِروا كأَنَّهُمْ تَقَالُّوْها وقالُوا: أَين نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قَدْ غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فأُصلِّي اللَّيلَ أَبدًا ، وَقالَ الآخَرُ: وَأَنا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا وَلا أُفْطِرُ ، وقالَ الآخرُ: وأَنا أَعْتَزِلُ النِّساءَ فَلاَ أَتَزوَّجُ أَبدًا ، فَجاءَ رسولُ اللَّه (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إِلَيْهِمْ فَقَالَ:"أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وكذَا ؟ ، أَما واللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُم لَهُ لكِنِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصلِّي وَأَرْقُد ، وَأَتَزَوّجُ النِّسَاءَ ، فمنْ رغِب عَنْ سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّى) (متفق عليه) . **أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم**

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

إن للإرهاب مخاطرَ كثيرة ، والوعي الحقيقيّ هو سلاحنا لإدراك هذه المخاطر ؛ فالإرهابُ يحارب مقاصد الشريعة التي من أهمها : حفظ

الدين ، والوطن ، والنفس ، فالإرهاب لا يقر حرية الاعتقاد التي كفلها القرآن الكريم للناس جميعًا في قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٢٥٦] ، والإرهاب لا يعرف حرمة دور العبادة التي حفظها الإسلام كلها ، دون أدنى تفرقة ، وحرم الاعتداء عليها قولًا أو فعلًا ، حيث يقول سبحانه: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠] ، والإرهاب لا يعرف حرمة النفس التي حرم الله (تعالى) التعدي عليها ، سواء أكانت مسلمة أم غير مسلمة ، حيث قال سبحانه : {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ}[الأنعام: ١٥١] ، والإرهاب لا يعرف قيمة الأوطان ، وإنما يعيث فسادًا في الأرض التي أمرنا الله (عز وجل) بإعمارها ، ونهانا عن الإفساد فيها ، حيث يقول سبحانه: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦] ، ويقول سبحانه : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٤ ، ٢٠٥] .

فما أحوجنا إلى الوعي الحقيقي بالتحديات التي تواجهنا ، وضرورة التصدي لها ، والعمل – بكل إخلاص – على الحفاظ على الوطن ، والدفاع عنه ، وأن يقوم كل منا بمسئوليته ، ويؤدي واجبه تجاهه ، فللوطنِ فِي الإسلامِ شأن عَظِيمٌ ، والتَّفرِيطُ فِي حَقِّهِ خَطَرٌ جَسِيمٌ؛ لذلك أعلى النبي (صَلى الله عَلَيه وسلم) من قيمة الشرفاء والنبلاء الذين يدافعون عن وطنهم ، ويضحون من أجله بكل غالٍ ونفيس .

ولا شك أن رجال قواتنا المسلحة البواسل وشرطتنا الوطنية الشرفاء لهم دور بارز في مواجهة التحديات بما يقدمون من تضحيات كبيرة في سبيل دينهم ووطنهم ، وجزاؤهم في ذلك عند الله عظيم ، حيث يقول نبينا (صَلى الله عَلَيه وسلم) : (عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (سنن الترمذي).

أما شهداؤنا الأبرار فهم أحياء عند ربهم يرزقون ، يقول سبحانه: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[آل عمران: ١٦٩ - ١٧١] ، ويقول (عز وجل) : {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَات بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}[البقرة: ١٥٤] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ) (مسند أحمد) ، ودماء الشهداء ريحها كريح المسك تتطاول لها الأعناق ، وتنحني لها الهامات إجلالًا واحترامًا ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ) (متفق عليه) .

فتحية إعزاز وتقدير لكُل وطني غيور على وطنه حريص على أمنه وسلامته ، وتحية إجلال وتوقير لحماة مصر الأبرار وشهدائها الأطهار الذين روت دماؤهم الزكية شجرة العزة والكرامة في وطننا ، ولن يضيع وطن أخلص له أبناؤه ، وبذلوا لأجله أرواحهم وأنفسهم وأموالهم ، وهنيئًا لهم ما أعدّ الله لهم في دار كرامته ومستقر رحمته .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنّا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار

واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

* * *

ترتيب الأولويات
وأثره في حياة الفرد والمجتمع

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فمن الواجبات الشرعية لكل مسلم أن ينضبط لديه ميزان الدين الصحيح ، فيرتب الأوامر الشرعية والتعاليم الإسلامية حسب وضعها في دين الله تعالى ، حتى لا يؤخر ما قدمّه الدين أو يقدِّم ما أخره، أو يضيع الفاضل بانشغاله بالمفضول ، فيظن المرء أنه محسنٌ والحال أنه مخدوع، يقول الله تعالى :{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}[الكهف١٠٣، ١٠٤].

والقرآن الكريم حافل بكثير من الآيات التي ترغب المسلم في السعي نحو الأفضل والأكمل في كل شيء ، وتطالبه بأن يستفرغ جهده لتحقيق الأولى في عمله الديني والدنيوي معًا ، من هذه الآيات قوله تعالى : {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها}[الأعراف : ١٤٥] ، وقوله جل شأنه: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا }[النساء :٨٦] ، وقوله سبحانه : {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[النحل : ١٢٥] ، وقوله تعالى : {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ}[الإسراء : ٥٣] ، إلى غير ذلك من الآيات التي يشتمل عليها القرآن الكريم وكلها تدعو المسلم إلى السعي الدؤوب نحو الأفضل والأكمل في كل شيء .

وفي السنة النبوية إشارات إلى وضع كل شيء في مكانه الجدير به، وعدم الانشغال بالنوافل عن الحقوق والواجبات ، فهذا سيدنا سلمان الفارسي (رضي الله عنه) الذي آخَى النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) بَيْنَهُ وبين أَبِي الدرداء ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مبتذلة ، فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ قَالَتْ : أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ : كُلْ ، قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ ، قَالَ: فَأَكَلَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ قَالَ : نَمْ ، فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ : نَمْ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ : قُمِ الآنَ فَصَلَّيَا ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ : إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) : "صَدَقَ سَلْمَانُ". (صحيح البخاري) .

ويتضح من توجيهات النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه في مواضع عديدة أن تقديم الأولويات من أوجب الواجبات ؛ لأنها تحدث توازنًا في حياة الإنسان ومعاشه .

ومراعاة الأولويات في حياتنا تستلزم العلم بالواقع والفقه بالواجبات الشرعية معًا ؛ ولهذا فقد قدّم الإسلام العلم على العمل ، ورفع شأن العلماء العاملين على العابدين بغير علم ، فعن أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله

عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: " إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ " (سنن أبي داود) ، فالعلم شجرة والعمل ثمرة ، العلم والد والعمل مولود ، والعلم مع العمل ، والرواية مع الدراية .

وإننا إذ نتكلم عن ترتيب الأولويات فهناك مشكلات تتقلب فيها الأمة ، علينا أن نرتبها ونبحث لها عن حلول ، فهذا أولى من أن نهتم بأمور هي من نوافل العبادات ، كمن يهتم بصيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، وهو للواجبات مضيع ، ولحقوق العباد آكل ، أو كمن يحرص على حج النافلة وهو لمصالح العباد معطل ، فالذين يحجون ويعتمرون مرات ومرات تطوعًا وتنفلًا مع احتياج بعض أهليهم وجيرانهم وبني وطنهم إلى الطعام والكساء والدواء واحتياج أوطانهم إلى مقومات أساسية لا تستقيم حياة أبنائه إلا بها ، وبخاصة في مجالات الصحة والتعليم ، فهؤلاء نذكرهم بأمرين :

أولهما : أن قضاء حوائج الناس والقيام بمتطلبات حياتهم ليس مجرد نافلة، إنما هو واجب شرعي ووطني ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ" (مسند البزار) ، ويقول الحق سبحانه:{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}[الماعون: ١ – ٣].

فإذا كان هذا جزاء من لا يحض غيره وهو لا يملك فما بالنا بمن لا يؤدي حق الله تعالى؟ يقول الحق سبحانه: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[التوبة : ٣٤] ،

ويقول سبحانه مخاطبًا أهل النار : {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}[المدثر: ٤٢ – ٤٤]، ويقول سبحانه: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُم مَّنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[محمد : ٣٨].

وعلى العكس من ذلك فإن جزاء المحسنين المنفقين جد عظيم عند الله تعالى وعند الناس، يقول الحق سبحانه:{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦١] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " (متفق عليه).

الثاني : أن قضاء حوائج الناس مقدم على ألف حجة وحجة بعد حجة الإسلام التي هي حجة الفريضة ، ومن ألف عمرة نافلة ، فالأول الذي هو قضاء حوائج الناس إصلاح للفرد والمجتمع ، والآخر الذي هو حج النافلة وتكرار العمرة لا يخرج عن دائرة صلاح النفس ، والإصلاح مقدم على الصلاح وقد يصير ذلك ضروريًّا ومُحَتَّمًا في مثل الظروف الاقتصادية التي نمر بها .

كما أن الأول مصلحة عامة ، والثاني يدخل في دائرة المصالح الخاصة ، والعام مقدم على الخاص ، والأعم نفعًا مقدم على محدود النفع أو قاصر النفع .

والأول – الذي هو قضاء حوائج الناس – لا يخرج عن كونه فرض عين أو فرض كفاية ، ولا شك أن الفرض والواجب عينيًا كان أم كفائيًّا مقدم على سائر النوافل لا على حج النافلة وتكرار العمرة فحسب ، ولهذا فإننا نرى النبي (صلى الله عليه وسلم) يقدم قضاء حوائج الناس على الاعتكاف في مسجده هو (صلى الله عليه وسلم) : " أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ – شَهْرًا، وَمَنَ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ "(المعجم الأوسط للطبراني) .

وقد نقل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في إحيائه عن أبي نصر التمار أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له : كم أعددت للنفقة؟ فقال : ألفي درهم، قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهدًا أو اشتياقًا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال : ابتغاء مرضاة الله ، قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس ، مدين يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوي قلبك تعطيها واحدًا فافعل ، فإن إدخالك السرور على قلب

المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر ، سفري أقوى في قلبي ، فتبسم بشر - رحمه الله - وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطرًا فأظهرت الأعمال الصالحات ، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

ومن نماذج الأولويات التي ينبغي أن يلتفت إليها المؤمن : أن العفو والصفح أولى من الانتصار ، قال تعالى : {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُون ، وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِين}[الشورى: ٣٩-٤٠] ، فإذا كان الانتصار وردُّ العدوان لا لوم فيه ولا عدوان ولا مؤاخذة ، فإن المغفرة أفضل وأليق بالمؤمن.

ومن هذه النماذج أيضًا أن الصدقة حال الصحة أولى من الوصية : فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا رسول الله ، أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: " أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم" قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان (صحيح البخاري) ، ومن ثم فإن الإحسان في وقت الصحة والعافية ، أفضل وأكثر أجرًا من بذل المال حال المرض واقتراب الأجل.

ومن ذلك : ضرورة الوعي بترتيب الأولويات في باب الصدقة الجارية مثلًا في هذا الزمان أن يوجه كثير من الناس أموالهم في بابٍ واحد من أبواب الصدقات كمن يبني مسجدًا في قرية يوجد بها مساجد أكثر من

حاجة المصلين ، في الوقت الذي هي في أمسِّ الحاجة إلى مستشفى أو مدرسة أو غير ذلك من مصالح الناس ومرافقهم الضرورية ، أو ما تقتضيه مصلحة الدين والبلاد والعباد ، فإن كان يبنيه لنفسه فليفعل ما يشاء ، وإن كان يبنيه لله فمصالح العباد واحتياجاتهم مما يحبه الله ويرغب فيه ؛ لأن ذلك دليل على الإخلاص وعلى ابتغاء ما عند الله (عز وجل).

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

من الأولويات التي يقررها الإسلام : أن إبراء المعسر وإعفاءه أولى من إنظاره ، يقول الحقّ سبحانه:{ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:٢٨٠]، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " (صحيح مسلم).

ولعل من أشد الأزمات التي نتعرض لها اليوم ، بل هي أساس أزمات كثيرة : أزمة عدم الوعي بالقضايا الجوهرية والمصيرية ، والاهتمام بقضايا بعيدة عن الواقع ، ومن ذلك ضرورة الوعي بترتيب الأولويات ، ومن هنا رأينا من يحرص على المفضول ويترك الأفضل ، ومن يحرص على بعض المستحبات ويُفرِّط في الفرائض والواجبات أو يتساهل في المحرمات ، الأمر الذي يستلزم المعرفة بفقه الأولويات وكيفية الموازنة بين المصالح والمفاسد والترجيح بينها إذا تعارضت.

وقد كان ابن عمر (رضي الله عنهما) يقول لأهل العراق : ما أَسْأَلَكم عن الصغيرة وأَجْرَأَكُم على الكبيرة (صحيح مسلم) ، يعني ما أكثر سؤالكم عن الصغائر مع جرأتكم على الكبائر .

وحتى نكون واعين بمشكلاتنا قادرين على حلها لا بُدّ أولاً من إصلاح الأسرة التي هي نواة المجتمع ، فنرتب أولويات الحياة الأسرية والتي من أهمها : البر والصلة بين أفراد الأسرة ، فلدينا مشكلة العقوق بين الأبناء والآباء والتي اهتمّ بها القرآن وكثيرًا ما تحدّث عنها وأمر ببر الوالدين ، وبخاصة الأم ، فقال الحقّ سبحانه وتعالى : {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ }[الأحقاف : ١٥– ١٦] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ : "أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: " ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : "ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : " ثُمَّ أَبُوكَ" (صحيح البخاري) . وتقديم الأمّ هنا ؛ لضعفها وحاجتها إلى مزيد رعاية وعناية ولأولويتها بالاهتمام .

كما أنّ من الأولويات: الاهتمام برعاية الأبناء وتربيتهم تربية تتفق مع مبادئ الإسلام : تقدم أولويات التربية من حيث الأخلاق ، والحفاظ على العبادة ، وتقديم القدوة الصالحة التي تتمثل في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام ، مع مراعاة عدم الإمعان في الرفاهية لدرجة خرق المروءة ، أو القسوة والشدة لدرجة انعدام الرحمة ، فعَنْ أَبِي سَلَمَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ رضي الله عنه أَبْصَرَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ : إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ" [صحيح مسلم].

فإذا أحسنا ترتيب أولوياتنا وأحسنا توظيف طاقاتنا وجميع إمكاناتنا العلمية والثقافية والمادية وفق هذه الأولوية فإن ذلك بلا شك يسهم في نهضتنا ورقينا وتقدمنا بإذن الله تعالى .

* * *

سمات وسلوك
الشخصية الوطنية

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جميعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران: ١٠٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيّدنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعــد :

فإن العلاقة بين الدين والوطن علاقة تكامل ، الدين والوطن لا يتناقضان ، الدين والوطن يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات ، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين ، وأن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا ، فالأديان رحمة ، الأديان سماحة ، الأديان إنسانية ، الأديان عطاء .

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج . والدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج ، والتميز والإتقان ، ويطاردان البطالة والكسل ، والإرهاب والإهمال ، والفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، وإثارة القلاقل والفتن ، والعمالة والخيانة .

وإن الوطنية الحقيقية ليست مجرد شعارات ترفع أو عبارات تردد ، الوطنية إيمان وسلوك وعطاء ، الوطنية نظام حياة وإحساس بنبض

الوطن وبالتحديات التي تواجهه ، والتألم لآلامه ، والفرح بتحقيق آماله ، والاستعداد الدائم للتضحية من أجله ، يقول النبيّ (صلى الله عليه وسلم): (مَن قُتِلَ دونَ مالِهِ فَهوَ شَهيدٌ ، ومن قُتِلَ دونَ أَهْلِهِ فَهوَ شَهيدٌ ، ومن قُتِلَ دونَ دينِهِ فَهوَ شَهيدٌ ، ومن قُتِلَ دونَ دمِهِ فَهوَ شَهيدٌ) (سنن الترمذي ، وأصله متفق عليه) .

فالشخصية الوطنية هي التي على استعداد لأن تحترق لتنير دروب الوطن ، ولأن تفتديه بنفسها وما تملك ، وتعرف للوطن حقه وقدره ، وتدرك أنها بلا وطن كالسمك بلا ماء ، وكالطائر بلا هواء ، ولله در شوقي حيث قال:

بِــــلادٌ ماتَ فِتيَتُهـــا لِتَحيـــا	وَزالوا دونَ قَومِهِـــمُ لِيَبــقُــوا
وَقَفتُــمْ بَيــنَ مَــوتٍ أَو حَيــاةٍ	فَإِن رُمتُمْ نَعيمَ الدَهرِ فَاشْقُـوا
وَلِلأَوطــانِ فــي دَمِ كُـلِّ حُرٍّ	يَدٌ سَلَفَــت وَدَيــنٌ مُستَحِــقُّ
وَمَن يَسقــى وَيَشــرَبُ بِالمَنايا	إِذا الأَحرارُ لَم يُسقـوا وَيَسـقوا
وَلا يَبــني المَمالِكَ كَالضَحايـا	وَلا يُدني الحُقُــوقَ وَلا يُحِـقُّ
فَفي القَتلـى لِأَجيــالٍ حَيــاةٌ	وَفي الأَسرى فِدًى لَهُمُ وَعِتقُ
وَلِلحُرِّيَّــــةِ الحَمـــراءِ بــابٌ	بِكُــلِّ يَــدٍ مُضَـرَّجَـــةٍ يُـــدَقُّ

إن الوطني الحق لا يكذب وطنه ، ولا يخون أهله ، ولا يغشهم ، ولا يخدعهم ، ولا يتآمر عليهم ، ولا يبيع قضاياهم بأي ثمن ، الوطني الحق كالمثقف الحق لا يباع ولا يشترى بالدنيا وما فيها ، فالوطنية الحقيقية بناء لا هدم ، إعمار لا تخريب ، الوطنية الحقيقية هي فن صناعة الحياة

وعمارة الكون ؛ حيث يقول سبحانه : {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[هود : ٦١] ، فالوطني الحق يسعي ويكد ويعمل ، ويأخذ بالأسباب ، ولا يركن إلى الخمول والكسل ، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[الملك: ١٥] ، فحيث تكون المصلحة ، ويكون البناء والتعمير ، فثم شرع الله وصحيح الإسلام والوطنية الحقيقية ، وحيث يكون الهدم والتخريب والدمار فثمة عمل الشيطان وجماعات الفتنة والدمار والخراب.

الوطنية الحقيقية تعني الارتقاء بالوطن من خلال إتقان العمل ، وبذل الجهد لتصحيح الصورة الذهنية للوطن في نفوس أبنائه ، وفي أعين ونفوس الآخرين ؛ لأن الصورة الذهنية لأي شخص أو مجتمع تنعكس سلبًا أو إيجابًا على قبوله أو رفضه والتعامل معه ، وعلى كل منّا أن يعمل على رسم الصورة الذهنية التي تليق بدينه ووطنه كل في مجاله وميدانه ، من إتقان العمل وتجديده ، ومن تمثيله في الداخل والخارج ، وحسن معاملة السائحين والزائرين ، فالسائح تتكون لديه صورة ذهنية عن الوطن من خلال معاملة أبناء هذا الوطن له من مواقف ربما يراها البعض يسيرة ، ولكنها تترك أثرًا مترسخًا ومتجذرًا في ذاكرة السائح يحمله معه إلى بلاده ، كحسن استقباله ، أو إنهاء الإجراءات في سهولة ويسر بدءًا من الحصول على إذن الدخول ، ومرورًا بفترة إقامته ، ووصولًا إلى لحظة مغادرته .

وقد تتكون الصورة الذهنية لدى السائح بنظرته إلى مستوى النظافة والنظام واللمسات الجمالية والطراز المعماري لدى الشعب المضيف ، وغير ذلك من مظاهر الجمال التي دعا إليها ديننا الحنيف .

ومما لا شك فيه أن الجانب السلوكي من أهم الجوانب المؤثرة في بناء الصور الذهنية ، وقد قالوا: "حال رجل في ألف رجل خير من كلام ألف رجل لرجل" ، فالناس لا يصدقون الكاذب ، وإن خطب فيهم ألف خطبة وخطبة عن الصدق ، ولا يأتمنون الخائن أو الغادر وإن أعطاهم ألف عهد وميثاق وحدثهم ألف حديث وحديث عن الأمانة والوفاء ؛ لذا يجب أن يكون لنا وجه واحد ظاهره كباطنه ، وليس لنا وجهان أحدهما ظاهر والآخر خفي ، إذ يمكن للإنسان أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت ، لكن لا يمكن لأي إنسان مهما كان ذكاؤه ومهما كانت حصافته وحيطته ودهاؤه أن يخدع كل الناس كل الوقت .

إن الوطنية الحقيقية تعني – أيضًا –: احترام وتقدير كل قيم الوطن ، من رفع رايته وعلَمه عاليًا محليًّا ودوليًّا ، واحترام نشيده الوطني المعبر عن حب الوطن ، وتفعيل المواطنة التي تعني: حسن الولاء والانتماء للوطن ، والحرص على أمنه واستقراره ، وتقدمه ، ونهضته ، ورقيه ، كما تعني الالتزام الكامل بالحقوق والواجبات المتكافئة بين أبناء الوطن جميعًا ، دون أي تفرقة على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس أو اللغة .

والواقع والمشاهدة يؤكدان أن أكثر الدول إيمانًا بمبدأ المواطنة وحرصًا على تطبيقه وأكثرها إيمانًا بحق التنوع والاختلاف واعتباره

إضافة وتراثًا ؛ هي أكثر الدول أمنًا وأمانًا واستقرارًا وتقدمًا وازدهارًا ، كما أن جميع الدول التي وقعت في فخ الاحتراب والاقتتال الطائفي أو العرقي أو المذهبي أو القبلي سقطت وتمزقت وهوت وتشرد أبناؤها وعانوا الأمرَّين ، ولَم تقم لها ولا لهم قائمة ، لذا كان من أهم أسس ودعائم بناء الدولة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، والمعاهدات بين المسلمين وغيرهم من أبناء مجتمع المدينة على اختلاف دياناتهم .

وإننا لنتساءل: هل من يسعى للقتل والفساد والتخريب يمكن أن يكون متدينًا أو وطنيًّا ؟! هل من يعطل مسيرة التقدم والرقي في وطنه يمكن أن يكون وطنيًّا أو متدينًا ؟! هل من يستغل موقع عمله في التربح غير المشروع يمكن أن يكون وطنيًّا أو متدينًا ؟! والجواب: لا يمكن أن يكون متدينًا ، ولا يمكن أن يكون وطنيًّا فالمتدين الحقيقي ، والوطني الحقيقي من يفتدي وطنه بالغالي والنفيس ، وهل هناك أغلى من الوطن، ومن أراد أن يدرك قيمة الوطن فليسأل من فقدوا أوطانهم عن ذلك .

ومن أهم سمات الشخصية الوطنية أن تكون إيجابية في حب الخير للناس ونفعهم، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (ألا أخبرُكُم بخيرِكُم من شرِّكم ؟) قالَ: فسَكَتوا ، فقالَ ذلِكَ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فقالَ رجلٌ: بلَى يا رسولَ اللَّهِ ، أخبِرنا بخيرِنا من شرِّنا ، قالَ: (خيرُكُم مَن يُرجَى خيرُهُ ويُؤمَنُ شرُّهُ ، وشرُّكم من لا يُرجَى خيرُهُ ولا يُؤمَنُ شرُّهُ) (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم):

(خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَضَى لأَحَدٍ مِنْ أُمَّتِي حَاجَةً يُرِيدُ أَنْ يَسُرَّهُ بِهَا فَقَدْ سَرَّنِي ، وَمَنْ سَرَّنِي فَقَدْ سَرَّ اللَّهَ ، وَمَنْ سَرَّ اللَّهَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

إنَّ على كل منّا واجبًا تجاه بناء الشخصية الوطنية يجب علينا أن نقوم به بداية من الأسرة ، فالأب والأم تقع عليهما مسئولية كبرى في تنشئة أبنائهما تنشئة وطنية حقيقية ، فيغرسان في أبنائهما حب الوطن ، والحفاظ عليه ، والعمل على رقيه وتقدمه ، وهما مسئولان بسلوكهما عن أسرتهما أمام الله (عز وجل) ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ؛ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه) .

كما أن للمسجد دوره المهم في بناء الشخصية الوطنية ؛ ففيه يتعلم المسلم أحكام دينه وواجبه تجاه وطنه ، وفيه يدرك أن مصالح الأوطان

لا تنفك عن مقاصد الأديان ، وأن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني ، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها ، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا ، ومن ثمة فإن دور المسجد كبير في نشر صحيح الإسلام ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة سواء عن الدين أو الوطن .

كما أن للمدرسة دورها المحوري في بناء الشخصية الوطنية ؛ فالمدرسة تتقاسم مع الأسرة التربية والتعليم ، وهي أمينة على عقول أبنائنا ، فيجب أن تكون على قدر مهمتها الشريفة وغايتها النبيلة ، وتؤدي مسئوليتها وواجبها تجاه وطنها ، بحسن غرس العلم في عقول الأطفال ، وتدريبهم عمليًّا على حب الوطن ، علمًا وسلوكًا وتطبيقًا ، وتنشئتهم على القيم النبيلة ومكارم الأخلاق ، ولله در شوقي حين قال:

قدْ ينفع الإصلاحُ والتهذيبُ في عهدِ الصِغَرْ
والنشء إنْ أهْمَلْتَهُ طِفْلًا تَعَثَّرَ في الكِبَرْ

وكذلك للجامعة دورها التعليمي والتربوي أيضًا ، فهي تبني على ما تم تأسيسه في الأسرة والمدرسة ، ومرحلتها مرحلة الشباب والقوة ، وبها يبنى الوطن ، وفيها تتشكل الشخصية الوطنية ، حين تقوم الجامعة بدورها المهم في حسن بناء هذه الشخصية ، وغرس قيم المواطنة ، وحسن تأهيل الشباب علميًّا وثقافيًّا ، ودفعهم إلى العمل والإنتاج والابتكار ، والاعتماد على قوتهم العلمية والبدنية والذهنية ، والاستفادة من طاقتهم بما يعود نفعه على أنفسهم ، وعلى وطنهم .

كما أن لأندية الشباب المختلفة دورًا مهمًّا في بناء الشخصية الوطنية ؛ فهي محل اجتماعهم ، وملتقى أنشطتهم ، فينبغي استثمار ذلك ليكون بناءً للروح الرياضية ، وابتعادًا عن التعصب الممقوت ، وغرسًا لقيم التعاون، وبيانًا لأهمية روح الفريق الواحد في العمل ، كل ذلك لإعلاء قيمة ومكانة هذ الوطن الذي يجمعنا ، ونستمتع بمقدراته ، ونحيا جميعًا في رحابه ، إلى جانب ما سبق فإن للكلمة دورها النافذ الذي لا ينكر ، والذي يؤثر سلبا أو إيجابًا .

فعلى المفكرين والكتاب والإعلاميين دور مهم في بناء الشخصية الوطنية الإيجابية ، فهم يسهمون بقوة في تشكيل وعي المجتمع ، وتقع علينا جميعًا كل في مجاله وميدانه مسئولية كبرى أمام الله وأمام الوطن، نسأل الله العلي العظيم أن يوفقنا للقيام بحقها ؛ خدمة لديننا ووطننا .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها

واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين.

* * *

فروض الكفايات
ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة :١٢٢]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح العباد ، والسُّمُوّ بالنفس البشرية إلى أعلى درجات الرقي والتحضر وحسن التعامل مع الآخرين ، عن طريق الالتزام بمنهج الله (عَزَّ وجَلَّ) وسنة رسوله (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ومن ثم يتمكن الإنسان من القيام بالمهمة التي خلقه الله (عَزَّ وجَلَّ) من أجلها ، ألا وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وعمارة الأرض ، قال سبحانه : {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود :٦١] .

ومن جملة الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام لتحقيق الخير للإنسان ما يعرف بفرض العين ، وفرض الكفاية ، أما فرض العين فهو ما يجب وجوبًا عينيًّا لازمًا على شخص معين بذاته بحسب قدرته واستطاعته لا يقوم غيره فيه مقامه ، ويمثل له علماء الشريعة بالصلاة ، والصيام ،

والزكاة ، والحج ، فلا يجزئ صيام الأمة كلها عن إفطار من أفطر ، ولا يغني عنه صيامها من الله شيئًا ، وكذلك الصلاة والزكاة ، ففرض العين إذا أقامه المسلم نال ثوابه وحده ، وإذا تكاسل عنه تحمل إثمه وحده.

وأما فرض الكفاية فهو لا يتعلق بشخص بعينه ، بل يتعلق بجميع أفراد المجتمع ؛ لكن إذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم به أحد أثموا جميعًا، ومن ثم ففرض الكفاية هو ما يجب على المجتمع أن يقوم به من إنفاق المال ، أو بذل الجهد لدفع الضرر عن الفقراء والمساكين وغير القادرين ، يقول الحق سبحانه: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران :١٠٤].

فالكل في سفينة واحدة ، ولكي تصل إلى برِّ الأمان لابد من تكاتف الجميع وإلا هلكوا جميعًا ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا) (صحيح البخاري).

وإذا كان بعض الفقهاء القدامى قد مثلوا لفروض الكفاية ببعض الأمور، كردِّ السلام ، وتشميت العاطس ، واتباع الجنائز ، وتغسيل الميت ، وتجهيزه ، وتكفينه والصلاة عليه ، ونحو ذلك ، فإنما ذكروا ذلك كله على سبيل المثال لا الحصر ، حيث إن مفهوم فروض الكفاية يتسع لكل ما فيه

صلاح البلاد والعباد ، فهي لا تتوقف عند مجرد الشعائر فحسب ، بل تتناول كل ما تقوم به حياة الفرد والمجتمع ، أو ما يهدف إلى المصلحة العامة، انطلاقا من قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠] ، وقول نبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (مُتفَقٌ عَليْه) .

على أن كثيرًا من الناس يعتقدون أنهم أدوا ما عليهم بدفع زكاة أموالهم ، وغاب عنهم ما في المجتمع من أيتام وأرامل، وفقراء ومساكين، ومرضى ومنكوبين ، فليعلم الجميع أنه إذا أصيب أحد بكرب ، أو احتاج شيئًا وجب عليهم أن يدفعوا عنه ذلك الكرب ، أو يقضوا له تلك الحاجة متضامنين، فإذا قام به واحد منهم سقط الحرج عن الباقي ، وإذا تخلف الجميع أثموا جميعًا.

ومن أمثلة فروض الكفاية التي تحقق التوازن المجتمعي: التكافل الاجتماعي: فالإسلام لا يَعْرِف الفردية أو الأنانية أو السلبية ، وإنما يعرف الإخاء الصادق ، والعطاء الكريم ، والتعاون على البرِّ والتقوى ، وهذا ما دعا إليه نبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ)، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ) (صحيح مسلم).

ولقد ضرب الأشعريون أروع الأمثلة في التكافل المجتمعي فاستحقوا ثناء رسول الله (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) ، فعَنْ أَبِي مُوسَى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا – نَفِدَ زادهم – فِي الغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ) (مُتفَقٌ عَليْه)، فهذا مثال عمليٌّ واقعيٌّ ، تنتفي فيه كل مظاهر الفردية والأنانية ، ويستحضر الجميع روح الجماعة والأخوة الممزوجة بفضيلة المحبة والإيثار إحساسًا بكونهم جسدًا واحدًا يقوى بالتعاطف والتراحم والتكافل والتعاون (ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ) فكان التعقيب المحمـدي على هـذا الفعل الجميـل بقوله (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) : (فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ) .

ومن فروض الكفاية : قضاء حوائج الناس ، فقضاء حوائجهم والقيام بمتطلبات حياتهم من الواجبات الشرعية والوطنية ، يقول (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (مسند أحمد) ، وفي حديث آخر نرى النبي (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) يقدم قضاء حوائج الناس على الاعتكاف في مسجده ، حيث يقول: (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ – شَهْرًا... وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى تَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ) (المعجم الأوسط).

والمتأمل في واقع الناس اليوم يجد منهم الفقير الذي لا يجد ما يسد جوعه ، والمريض الذي لا يجد دواءه ، والأرامل ، واليتامى والضعفاء ، ومن لا عائل لهم ، هؤلاء وغيرهم أحق بقضاء مصالحهم وحوائجهم ، وكان (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يحرص على متابعة أصحابه في قضاء حوائج الناس والسعي في مصالحهم ، فيسأل عمن فعل واستجاب وعمن حرص واقتدى ، فقَالَ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه): أَنَا، قَالَ: (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟)، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، فَقَالَ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ) (صحيح مسلم).

كذلك من فروض الكفاية التي تسهم في سد حاجات المجتمع: العمل على تخريج المتميزين من الأطباء والمهندسين والعلماء المتخصصين بما يحقق كفايته في شتى المجالات العلمية والإنتاجية.

يقول الإمام الغزالي في الإحياء: "أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا ،كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما ، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين ، ... وكذلك فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات ".

فلو خلا بلد من هذه العلوم والصناعات تعرض أهل هذا البلد للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، ومن لا يملك قوته وسلاحه وعتاده ودواءه لا يملك إرادته ، ومن ثمَّ وجب علينا جميعًا وجوبًا دينيًّا ووطنيًّا أن نعمل وبمنتهى الهمة والجد على تحقيق الكفاية لوطننا في جميع المجالات حتى نصبح أمة منتجة ، أمة مصدرة ، أمة نافعة لنفسها وللإنسانية ، وليست عالة على غيرها ، لا في طعامها ، ولا في شرابها ، ولا في كسائها ، ولا في علاجها ، فعلاج مرضى المجتمع أمانة في أعناق أطبائه ، ومحو أمية المجتمع أمانة في أعناق مُعلِّميه ، وحفظ أمنه أمانة في أعناق جيشه وشرطته ، وعدل المجتمع أمانة في أعناق قضاته ، ففروض الكفايات تقوم على المسئولية التضامنية لأفراد المجتمع ، كل في مجاله وميدانه ، يقول سبحانه وتعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة :٢].

إن القيام بفروض الكفاية خير وسيلة للقضاء على الفقر، والجهل، والمرض، حتى لا يجوع فقير ، ولا يضيع يتيم ، ولا يحتاج مسكين ، ومن ثمَّ يتحقق التوازن المجتمعي ، والعدل بين الناس ، وضمان الأمن والأمان ، من خلال إنفاق المال لإطعام الجائعين ، ورعاية اليتامى والمساكين ، وعلاج المرضى والمعاقين ، وبذل الجهد لإغاثة الملهوفين والمنكوبين ، وإزالة الكرب عن المكروبين ، وتقديم يد العون للفقراء والمحتاجين ، وبذلك يتحقق التوازن المجتمعي.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

ومن أمثلة فروض الكفايات التي تسهم في سد حاجات المجتمع: السعي إلى تحقيق القوة في جميع جوانب حياتنا الإيمانية ، والعلمية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والإنتاجية ، يقول تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُم اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ} [الأنفال :٦٠]، ولم يحدد الله تعالى نوع هذه القوة ، فهي شاملة لكل قوة تُصلح الأمة ، سواء كانت قوة روحية أم علمية أم جسدية ، أم غير ذلك.

ومن أمثلة فروض الكفايات: تلبية حاجات المجتمع الضرورية بمراعاة فقه الواقع وتقديم فقه الأولويات ، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فلابد من القيام بذلك ، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فلابد من القيام بها ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدين عن المدينين ، وتفريج كروب الغارمين والغارمات فلابد من القيام بذلك ، وإن كانت الحاجة في توفير المياه النقية الصالحة لكل أفراد الأمة ، فلابد من القيام بهذا الواجب سدًّا للحاجات الضرورية للمجتمع ، وهذا ما فعله سيدنا عثمان

ابن عفان (رضي الله عنه) عندما اشترى بئر رومة استجابة لأمر رسول الله (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حين قال: (مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ) (صحيح البخاري)، قال سيدنا عثمان: فَابْتَعْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقُلْتُ: إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ بِئْرَ رُومَةَ، قَالَ: (اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ) (سنن النسائي)، فقد كانت حاجة المجتمع ماسة لشراء المياه ، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم.

ومن ثمَّ فإن فروض الكفايات تتعلق بكل حاجات المجتمع ، وتغطي كل مجالات الحياة ، ولنعلم أن إحياء الواجب الكفائي يسهم في تحقيق التكافل والتوازن المجتمعي من جهة ، وسد حاجات الوطن الأساسية والضرورية من جهة أخرى ، فما أعظم ديننا لو فهمناه فهمًا صحيحًا وطبقناه تطبيقًا واعيًا ؛ لأنه يحرص أشد الحرص على ما فيه صالح البلاد والعباد والإنسانية .

* * *

تقديم المصلحة العامة على الخاصة
وأثره في استقرار المجتمعات وبناء الدول

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فإن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح العباد ، والسُّمُوّ بالنفس البشرية ، والارتقاء بها إلى أعلى الدرجات، لذا فإن ديننا الإسلامي الحنيف دعا إلى الإيثار وسخاء النفس، وهو خلق كريم ، وسلوك قويم، وقيمة إنسانية راقية ، وصفة يتميَّزُ بها الصفوة من عباد الله ، وقد أثنى القرآن الكريم على الأنصار ، ووصفهم بهذا الخلق النبيل ، فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩].

وعندما نزل ضيفٌ بالنَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَبَعَثَ إِلَى نِسَائه يسألهنَّ عن طعام ، فَقُلْنَ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (مَنْ يَضُمُّ هَذَا، أَوْ يُضِيفُ هَذَا ؟) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا،

وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ ! فَقَالَ : هَيِّئِي طَعَامَكِ ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً ، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ السِّرَاجَ فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلانِ ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَا غَدَا إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ ، أَوْ عَجِبَ مِنْ فِعَالِكُمَا ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[الحشر : ٩] (متفق عليه).

إن خلق الإيثار من أسمى صور الرُّقِيِّ الأخلاقِيِّ، فمِنْ خلالِهِ يستطيعُ المؤمنُ أَنْ ينتصر على نفسه ، ويتغلَّب عَلَى هواهُ طاعةً للهِ (عز وجل)، وهو مرتبة عالية مِن مراتب البذل والسخاء ، وهو خلق يحمل صاحبه على الخِلال الحميدة كالرَّحمة ، وحبِّ الخير للغير ، والسَّعي لنفع النَّاس بعيدًا عن الأنانية وحب الذات ، وغير ذلك من الأخلاق السَّيِّئة والخِلال الذَّميمة، فديننا الحنيف قائم على الإيثار وحب العطاء، لا على الأثرة والشح والأنانية.

وإذا كان الإيثار على إطلاقه خُلقًا كريمًا فإن إيثار الأوطان على المصلحة الشخصية لهو من أنبل أنواع الإيثار وأسخاها نفسًا ، فهو إيثار للعام على الخاص ، يقول شوقي:

بِلادٌ ماتَ فِتيَتُها لِتَحيا	وَزالوا دونَ قَومِهِمُ لِيَبقوا

ولا خلاف بين العقلاء وأولي الألباب في أنّ ما يحقق النفع العام للبلاد والعباد مقدمٌ على ما يحقق النفع الخاص لشخص بعينه أو مجموعة

من الأشخاص؛ ذلك أن المصلحة العامة تشمل كل ما يحقق إقامة الحياة من أمور مادية، ومعنوية، تجلب الخير والنفع للناس، وتدفع عنهم الشر والمفاسد ، وتحقق حماية الوطن واستقراره وسلامة أراضيه، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات ، ولقد جاء الشرع الحنيف بما يتوافق مع العقل ويتناسب معه، حيث رغب في تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهذا واضح جلي في سيرة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

لقد أكد القرآن الكريم على أن الحفاظ على المصلحة العامة وتقديمها على المصالح الخاصة هو منهج الرسل والأنبياء جميعًا ، فما أرسل الله (عز وجل) نبيًّا ولا رسولًا إلا لإسعاد قومه وتحقيق الخير لهم دون مقابل مادي أو منفعة دنيوية ، قال تعالى على لسان نبيه نوح (عليه السلام) : {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [هود: ٢٩] ، وقال سبحانه على لسان نبيه هود (عليه السلام): {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[هود: ٥١] ، ويقول سبحانه على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام): {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ}[هود:٨٨– ٨٩].

ومن أروع الأمثلة في ذلك ما جاء عن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ

يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟" فَقَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ "، قَالَ: (فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ) ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) (متفق عليه) ، وقد كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما أراد وأخرج الله (عز وجل) من أصلابهم رجالًا وَحَّدُوا الله ، وحملوا راية السلام والإسلام للعالم أجمع.

وهذا هو عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في عام الرمادة وقد اشتد بالمسلمين الفقر والجوع فحضرت تجارته من الشام فإذا هي ألف بعير محملة بُرًّا، وزيتًا، وزبيبًا فجاءه تجار المدينة، فقال لهم: (ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد ، بعنا هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه، قال: حبًّا وكرامة ، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: نزيدك الدرهم درهمين، فقال لهم: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة ، قال: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا خمسة، قال: أُعطيت زيادة على هذا، فقالوا له: يا أبا عمرو ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد،

فمن ذا الذي أعطاك؟ فقال : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا ، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين) (الشريعة للآجري) .

وحينما أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) على الصحابة بشراء بئر رومة وَكَانَت تحت يد رجل يهودي، وكان يغالي في ثمن مائها ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلاَءِ الْمُسْلِمِينَ) (صحيح البخاري) فأتى عثمان (رضي الله عنه) اليهودي وساومه عليها ، فأبى أن يبيعها كلها ، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم ، فجعله للمسلمين ، وكان لسيدنا عثمان يوم ولليهودي يوم ، فكان إذا جاء يَوْم عثمان استقى المسلمون مَا يكفيهم يومين. فلما رأى ذَلِكَ اليهودي قَالَ: أفسدت عليَّ بئري ، فاشترِ النصف الآخر، فاشتراه عثمان (رضي الله عنه) بثمانية آلاف درهم ، وكانت هذه استجابة من سيدنا عثمان (رضي الله عنه) لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاشتراها ؛حرصًا على المصلحة العامة للمسلمين .(سنن النسائي).

وهذا هو أبو طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) يتصدق بأحب ماله إلى قلبه ويجعله صدقة جارية ، فقد كَانَ (رضي الله عنه) أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران:٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى

تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ) فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) (متفق عليه).

هكذا رَبَّى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، أصحابه على هذه القيم والمبادئ التي من خلالها يرتقي الإنسان بنفسه ، ويكون عنصرًا مفيدًا في مجتمعه ، يعرف ما له وما عليه ، فيتحقق الأمن والأمان والكفاية والاستقرار في المجتمع .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إن المتأمل في كثير من التشريعات الإسلامية يرى أنها تحث وترغب وتعمق مبدأ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ومن صور ذلك:

* في مجال التجارة : نهى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن الاحتكار والاستغلال ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ) (صحيح مسلم) ، فالمحتكر وإن كان ظنه أن في ذلك تحقيق مصلحة شخصية له بنمو ربحه وتكثير ماله ، إلا أن ذلك لما كان فيه ضرر على

المجتمع وتضييق على الناس ، كان في نظر الشارع يستحق العقوبة ؛ مراعاة لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية .

* في مجال التكافل المجتمعي: فقد نهى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن ادخار الغذاء وتخزينه إذا كان المجتمع في حاجة إليه ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلاَ يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ) فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا العَامَ المَاضِي؟ قَالَ: (كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا) (متفق عليه) ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَال رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ)، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ) (صحيح مسلم) .

* في مجال المعاهدات الخارجية : حيث ردَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أبا بصير (رضي الله عنه) بعد صلح الحديبية وفقًا للمعاهدة التي كانت بينه (صلى الله عليه وسلم) وبين قريش مع احتمال تعرض هذا الصحابي للأذى؛ حفاظًا على العهد الذي عاهد عليه قريشًا ، وهذا من باب الوفاء بالعهد من جهة ، ومن باب تقديم وتغليب المصلحة العامة من جهة أخرى .

على أننا نؤكد أنَّ من المصالح العامة تلبية حاجات المجتمع الضرورية ومراعاة فقه الواقع وتقديم فقه الأولويات ، فإن كانت حاجة

المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فالأولوية لذلك، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فالأولوية لذلك ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدَّين عن المدينين وتفريج كروب الغارمين فالأولوية لذلك ، فقضاء حوائج الناس والقيام بمتطلبات حياتهم من الواجبات الشرعية والوطنية، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (المعجم الكبير).

ولإعلاء المصلحة العامة أعلى الإسلام من شأن الوصية والصدقة الجارية ، فقال نبينا (صلَّى الله عليه وسلم): (ما حَقُّ امرئٍ مُسلمٍ له شيءٌ يُوصي فيه، يبيتُ لَيلَتين إلَّا ووصيتُه مكتوبةٌ عندَه) (متفق عليه)، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) (صحيح مسلم)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعٌ يَجْرِي أَجْرُهَا لِلْعَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (مسند البزار).

* * *

حماية الأوطان وسبل بنائها

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز على لسان يوسف عليه السلام: {وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}[يوسف: ٩٩] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فإن من أعظم نعم الله (عز وجل) علينا أن جعل لنا وطنًا نعيش فيه آمنين مطمئنين ، ومن حق هذا الوطن وواجبه علينا أن نحافظ على أمنه وأمانه واستقراره ، وأن نعمل على حمايته ، والدفاع عنه بكل ما أوتينا من قوة ، حتى نترجم حبنا له إلى واقع معيش وعمل ملموس .

وإذا كان الوطن هو مهد الإنسان ، ومَرتع صباه ، فلا بد أن يشعر الإنسان الصادق بحبه لهذا الوطن ، اعترافًا بجميله ، فيجتهد في حمايته ورفع شأنه ، ويعمل جاهدًا على رفعته ورقيه ، ويردّ عنه كيد الكائدين.

وقد علَّمنا النبي (صلى الله عليه وسلم) حب الوطن في أرقى صوره في مواقف كثيرة ، منها ما كان منه (صلى الله عليه وسلم) حين أخرجه قومه من بلده مكة التي وُلد فيها ونشأ وترعرع بين جنباتها ، وهاجر إلى المدينة المنورة ، فخاطب مكة متأثِّرًا لفراقها ، وكأنها عاقل يسمع ويجيب: (عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ) (مسند أحمد) ، وفي رواية :

(مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ) (سنن الترمذي).

ومن هنا نؤكد أن حماية الأوطان والمحافظة على أمنها وسلامتها والدفاع عنها واجب على كل إنسان ينعم بالعيش فيها.

وجدير بالذكر أن حماية الأوطان ليست قاصرة على حمل السلاح ومواجهة العدوان والأخطار الخارجية فحسب ، بل هناك وسائل أخرى لحماية الأوطان ، تتمثل في عدم السماح لأحد بالمساس بها أو النيل منها أو العبث بها ، أو الإفساد فيها ، أو الكيد لأهلها ، أو ترويع أبنائها ، بل على العكس من ذلك فإنه ينبغي العمل على النهوض بها ، وبنائها في كافة المجالات والقطاعات ، ومن ذلك :

البناء الاقتصاديّ : فلا شك أننا في حاجة إلى أن نتعاون جميعًا من أجل بناء الوطن اقتصاديًّا ، ولا يتحقق ذلك إلا بالعمل الجاد المثمر ، وزيادة الإنتاج حتى يكون الإنسان في حياته عاملاً معطاءً ومعمِّرًا في الأرض حتى يدركه الموت أو تأتيه الساعة ، وقد حثَّ على ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (الأدب المفرد للبخاري).

ولن تتحقق حماية الوطن اقتصاديًّا إلا بتضافر الجهود للعمل والإنتاج وتهيئة المناخ المناسب للاستثمار ، ومنع كل صور الغش والاحتكار ، واستغلال حاجة الفقراء ، فهذه كلها أمور تتنافى مع الدين والخلق والوطنية التي تقتضي أن يرعى الناس حقوق بعضهم البعض وأن لا

يكون كل منهم سببًا في تضييق العيش على الآخر والإضرار بمصالحه فهذا أمر محرم في كل الشرائع والأديان ، لما يسببه من نشر للبغض والكراهية بين الناس .

كما أن بناء الوطن اقتصاديًّا يتطلب ترشيد الإنفاق والاستهلاك وعدم الإسراف والتبذير ، فقد أرشدنا القرآن الكريم والسنة النبوية إلى كل ذلك ، قال تعالى : {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١] ، وقال عز وجل : {وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[الإسراء: ٢٧] ، وعن المقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي).

ومنها : البناء الاجتماعي: الذي يقوم على التعاون المثمر بين جميع أفراده بالمحبة والمودة والاحترام الكامل ، بحيث يتمكن الشباب من الاستفادة من حكمة الشيوخ ، ويستفيد الشيوخ من طاقة الشباب فيوجه كل واحد منهما طاقاته إلى ما يعود نفعه بالخير على البلاد والعباد وهذا التعاون أحرى ما يكون بين كافة أطياف المجتمع وفئاته وطبقاته.

ويتحقق أيضًا بالمساواة بين جميع أفراده في الحقوق والواجبات، إذ لا مجال للمجاملة أو المحسوبية ، أو أكل المال بالباطل ، فلا يجوز لأحد أن يأخذ مال غيره بدون حق ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ}

[النساء: ٢٩] ، كما يتطلب البناء الاجتماعي التراحم والتعاون ، بحيث يرحم الكبير الصغير ، والغني الفقير ، فيعود الغني بفضله على أخيه الفقير ممتثلاً لقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) (صحيح مسلم) .

ولكي يتحقق الحفاظ على الوطن اجتماعيًّا لابد من أن يتحلى كل أبنائه بالمشاركة الإيجابية في إصلاحه ، والإسهام في النُّهُوضِ به ، فإن الإسلام دعا إلى الإيجابية في كل ما من شأنه خدمة الوطن ورفعته طوال حياة الفرد منذ نعومة أظفاره حتى نهاية حياته، فالمسلم لا يقف من الأحداث موقف المشاهد فحسب ، بل يجب أن يكون إيجابيًّا ، يسعى إلى محاربة الفساد والإفساد والتخريب ، ممتثلاً لقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم) ، فاليد للسلطان ، واللسان للعلماء ، والقلب لعامة الناس ، وحيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ) (صحيح البخاري) ، فما استحق المسلمون الخيرية إلا بإسهامهم الإيجابي في بناء أوطانهم وابتغاء النفع للإنسانية جمعاء ، يقول تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[آل عمران: ١١٠].

إن المسلم الحق ينبغي ألا يكون سلبيًّا متكاسلا أو متقاعسًا عن الإسهام في بناء وطنه وحمايته ، بل يجب أن يكون إيجابيًّا متحملا مسئوليته تجاه مجتمعه ، حتى يسهم في رقيه ورفعته ، فالإسلام لم يعف أحدًا من المسئولية ، حتى الخادم جعله مسئولاً في مال سيده ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه).

ومنها : البناء السلوكي : ولا يكون ذلك إلا بنشر القيم الخلقية والإنسانية بين جميع أفراد المجتمع ،كالصبر ، والحلم ، والرفق ، والرحمة والوفاء، والصدق والأمانة ، وغيرها من مكارم الأخلاق التي هي جوهر رسالة الإسلام ، ولقد أولاها النبي (صلى الله عليه وسلم) عناية فائقة ، حين أعلن أن الغاية من بعثته إنما هي إتمام مكارم الاخلاق، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مكارم الأَخْلاقِ) (مسند البزار).

ومن البناء السلوكي الذي يحمي الأوطان : عدم السخرية والاستهزاء بالآخرين، أو التقليل من شأنهم غمزًا أو لمزًا أو بث الشائعات الكاذبة بين الناس ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الحجرات : ١١] ، ويقول سبحانه : (إِنَّ

الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [النور: ١٩] ، فبهذه القيم الخلقية تُحمى الأوطان وتعصم من كل مظاهر الفوضى والانحلال وتصان من الضياع ، فسلامة الوطن وقوة بنيانه ، وسمو مكانته وعزة أبنائه بتمسكهم بالقيم الفاضلة والأفعال الحميدة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إن من وسائل حماية وبناء الأوطان : البناء العلميّ والفكريّ ، فلا شك أن ذلك من أهم سبل البناء وتحقيق التقدم لأي مجتمع ، لذلك حرص الإسلام على نشر العلم بين أبناء الأمة فكانت أول آيات القرآن الكريم نزولاً: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[العلق: ١ : ٥] وبعدها نزلت سورة القلم الذي هو أول أداة من أدوات تحصيل العلم ، قال تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١] ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن مكانة العلم في الإسلام لا تدانيها مكانة ، كما قال ربنا في كتابه: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}[الزمر: ٩].

فالعِلم هو أحد أهم أعمدة بناء الأوطان وحمايتها والنهوض بها ، فبه يُقضى على التخلّف والفقر والجهل والأمية وغيرها من الأمور الّتي تؤخّر الوطن ، ولا ينكر أحد أن النمو الاجتماعي والاقتصادي في أي دولة من الدول مرهون بالعلم.

كما أن البناء الفكري يسهم في تنمية العقول وتصحيح المفاهيم الخاطئة ، ويعمل على حماية المجتمع من أصحاب الدعوات الهدامة والأفكار المتطرفة التي تصدر من مرضى القلوب وضعفاء النفوس ، الذين لا يحبون وطنهم ، بل يعملون على زعزعة أمنه ، وهدم بنيانه وتمزيق أوصاله وتفريق كلمته، وليس لهم هدف سوى نشر الفوضى التي تؤدي إلى فتن عظيمة تعصف بالبلاد والعباد من قتل وتدمير وتخريب ، وزعزعة لأمن الفرد والمجتمع.

فالإنسانُ إذَا أحبَّ وطنَهُ استشعَرَ مسئوليةَ المحافظةِ علَى أمنِه واستقرارِه ، ولاَ يستجيبُ لِمَنْ يَسْعَى لِتخريبه مِنَ الأدعياء ، فكم يحتاجُ وطنُنا اليوم إلى قلوبٍ سليمةٍ منفتحة على كلِّ أبوابِ الخير ، وكم يحتاجُ وطنُنا إلى جموعٍ متآلفة متعاونة تقية ، تتعاملُ فيما بينها بإحسانٍ وأمانٍ واطمئنان.

❊ ❊ ❊

التسامح الديني
وضرورة تفويت الفرص على أعداء الدين والوطن

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥]. وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد:

فإن من أبرز القيم الخُلُقية والإنسانية التي حرص القرآن الكريم على تأصيلها قيمة التسامح ، فقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[الأعراف:١٩٩]، وقد رسَّخ الإسلام لهذه القيمة في قلوب أتباعه، فبيّن أنَّ الأنبياء إخوة ، نؤمن بهم جميعًا ولا نفرق بين أحد منهم، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[البقرة:١٣٦] ، ويقول سبحانه: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[آل عمران: ٨٤]، وأكد النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على ذلك بقوله: (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَهُمُ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) (مُتفقٌ عَليْه).

إنَّ الدين الإسلامي الحنيف يدعو إلى التواصل والتعايش والتسامح والتراحم بين أتباع الديانات كافة ، وجعل العلاقة بين الناس قائمة على أساس التعارف والتآلف ، فقال سبحانه : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، [الحجرات:١٣] وقال (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى}(مسند أحمد). فالناس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وعقائدهم إخوة في الإنسانية ، تنشأ بينهم علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية قوامها التعارف والتآلف وتبادل المنافع والمصالح المشتركة ، ونلمح هذا من خلال تعامل النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مع مجتمع المدينة ، حيث أسس نظامًا عامًّا هدفه التعايش السلمي بين الناس جميعًا على أسس إنسانية خالصة .

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلام وارتفعت رايته؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسان وبما جبلت عليه العقول السليمة من حب الخير للناس أجمعين، فليس في ثقافة الإسلام ولا تعاليمه ما يدعو إلى العنف والكراهية ، يقول الحق سبحانه : {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة:٨٣]، للناس كافة على اختلاف عقائدهم وألوانهم ولغاتهم ، فهي دعوة للتعايش والتآلف وحسن المعاملة مع الخلق.

ومن أبرز صور التسامح الديني في الإسلام أن كفل للجميع حرية الاعتقاد وعـدم الإكراهِ علَى الدخول في الإسلام، قالَ تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة:٢٥٦] ، وقال (عَزَّ وجَلَّ): {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩] ، ويقول سبحانه : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[هود: ١١٨، ١١٩].

وقدْ طبَّقَ النَّبيُّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابُهُ (رضوانُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ) هذَا الأساسَ تطبيقًا عمليًّا، فلمْ يُكرهُوا أحدًا علَى الدُّخولِ فِي الإسلام ، ولَمْ يهدمُوا كنيسةً أوْ صومعةً أوْ أيَّ مكانٍ للعبادةِ، بَلْ كانَتْ أمكنةُ العبادةِ مُصانَةً عندَ المسلمينَ.

ولم يكتف الإسلام بحرية التديّن ، بل نجده قد ألزمنا بعدم السب أو التعرض لأي من أصحاب الديانات الأخرى ، بما يسيئ لهم أو لمعتقدهم، أيًّا كان مصدر هذه الديانات ، فقال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام:١٠٨].

ومن أبرز صور التسامح الديني في الإسلام دعوته لضرورة التعايش مع الآخر على أساس المواطنة ، فحينما هاجر النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى المدينة وجد بها مزيجا إنسانيًّا متنوعًا فوجد بها يهودًا توطنوا ، ومشركين مستقرين ، فلم يتجه تفكيره (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة أو الخصام ، بل قَبِلَ - عن طيب خاطر -

وجودهم ، وعاهدهم على حرية الاعتقاد والأمن والأمان ، والدفاع المشترك عن الوطن ، ووضع صحيفة المدينة التي تعد أفضل أنموذج عملي في فقه التسامح الديني، وهي وثيقة تشهد بحكمته (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في إرساء مبدأ التسامح والتعايش بين جميع طوائف البشر ، من خلال المبادئ التي تحقق العدالة المطلقة ، والمساواة التامة بينهم جميعًا، حيث جعل لغير المسلمين ما جعله للمسلمين من الحقوق والواجبات ، وقد اشتملت هذه الوثيقة على (أَنَّ يَهُودَ المدينة أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهُمْ ، وَأَنْفُسُهُمْ) (السيرة النبوية لابن هشام)، وكذا كل العهود والمواثيق والمكاتبات التي عهد بها (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى الرؤساء والملوك أصَّلَتْ للتسامح الديني والتعايش السلمي.

وكذلك تُعدُّ زيارة نصارى نجران لمدينة الرسول (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ومقابلته (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ومحاورته لهم أنموذجًا رائعًا للتسامح الديني لا مثيل له ، فلما حانت صلاتهم سمح لهم النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بإقامة صلاتهم في مسجده المبارك (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (دَعُوهُمْ)، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ ، فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ) (دلائل النبوة للبيهقي)، كما أن النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) استقبل وفدًا من نصارى الحبشة، وأكرمهم بنفسه وقال: (إِنَّهمْ كَانوا لأصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ ، فإني أحبُّ أنْ أكافِئَهُمْ) (شعب الإيمان للبيهقي).

وجدير بالذكر أن العدل والإنصاف ، وحسن معاملة الناس جميعًا من أهم ركائز التسامح الديني ، فالإسلام قَدْ حفظَ حقوقَ الآخرينَ وصانَهَا،

ونصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ شاهِدَةٌ علَى هذَا، فقد جاءت آيات القرآن الكريم تأمر بالعدل والإحسان وتحثُّ عليهما وتدعو إلى التمسك بهما ، يقول تعالى: {إِنّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}[النحل: ٩٠] ، ويقول تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: ٥٨] ، فالمسلم مطالب بأن يحقق العدل مع جميع الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وألا يظلم أحدًا من الناس أبدًا ، بل إن الإسلام يأمرنا ببرِّ كل من لا يتعرض لنا بأذى ، فقال سبحانه: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة: ٨].

وليس أدل على ذلك من أن ينزل جبريل الأمين (عَلَيْهِ السَّلام) على قلب النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بآيات تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ببراءة يهودي اتهمه مسلم بالسرقة ، فقال تعالى : {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا}[النساء: ١٠٥ـ ١٠٧].

وتُعد الوثيقة العمرية التي أبرمها الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مع أهل إيلياء صفحة مضيئة في تاريخ الحضارة الإنسانية على العموم ، فقد أعطاهم فيها أمانًا على أنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصُلبانهم ، وقضى لهم بأنه لا تُسكَن كنائسهم ، ولا تُهدم ولا يُنتقص منها، ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم،

ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضام أحد منهم ، و من أحب أن يبقى على دينه فعلى المسلمين أن يبلغوه مأمنه دون غدر أو خيانة ، ففي هذا العمل نبل وشهامة وتسامح واحترام للأديان الأخرى .

هذا هو منهج الإسلام الذي يدعو إلى التسامح الديني والحفاظ على الآخرين وعلى حقوقهم وحرماتهم ، وتأمين المجتمع وقيمه ، ويحافظ على الأصل الذي على أساسه تُبنَى المجتمعات ، وهو التعارف والتآلف والتعايش والتسامح.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

إن من أهم عوامل الحفاظ على التسامح الديني هو الاصطفاف صفًّا واحدًا لمواجهة المتطرفين والتصدي لهم بحزم ، ومحاربة أفكارهم الهدامة التي تؤدي إلى الفرقة والتنازع وضياع الوطن.

ومما لا شك فيه أننا في هذه الأيام في حاجة ملحة - أكثر من أي وقت مضى - إلى تعميق وترسيخ قيم التسامح الديني والانتماء الوطني ، وإعلاء المصلحة الوطنية على أي مصلحة أخرى ، والوقوف بحسم في وجه من يضر بالوطن ، أو يتآمر مع الغير ضد مصالحه ، والتحذير من المحاولات التي تعمل على إثارة الفوضى والشغب والفتن ، والعمل على

تفكيكها فذلك أمر واجب على كل وطني شريف ، من باب التعاون على البر والتقوى الذي أمر به الإسلام ، قال تعالى: {...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[المائدة : ٢]. فقد علمنا الإسلام منهجًا واضحًا لوقاية الأمة من القلة التي تفسد ولا تصلح ، وتهدم ولا تبني ، وتخرب ولا تعمر، قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[الأنفال: ٢٥].

هذا وقد نهى ديننا الحنيف عن ترويع الآمنين أو التعرض لهم بأي سوء ، فكل الدماء حرام ، وكل الأعراض مصانة ، وكل الأموال محفوظة، لا تمييز في ذلك على أساس الدين أو اللون أو الجنس ، فكل أنواع الأذى مرفوضة ، حيث قال (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّم): (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ) (صحيح مسلم) ، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى لَيْلَى قَالَ: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّم) أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيّ (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) : (لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا) (سنن أبي داود).

إن رسول الإنسانية الأعظم (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) الذي وقف لجنازة يهودي احترامًا لإنسانيته جعل من نفسه خصمًا لكل من يؤذي أحدًا من غير المسلمين ، مواطنًا ، أو معاهدًا ، أو ذميًّا ، في ماله أو نفسه أو عرضه ، حيث قال (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهدًا ، أَوِ انْتَقَصَهُ ، أَوْ

كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (سنن أبي داود)، بل وصل الأمر إلى أن كل من خالف مبادئ الإنسانية السوية وتعاليم الإسلام السمحة واستباح دم إنسان شريك له في الوطن لمجرد الاختلاف الديني فإن ريح الجنة محرم عليه ، قال (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا ليوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (صحيح البخاري).

ونؤكد أن الإسلام بريء من آفة الفكر التكفيري المتشدد الذي يدعو لسفك الدماء البريئة بغير حق ، أو يدعو إلى الإفساد في الأرض ، اتباعًا لأناس جُهَّالٍ ضلُّوا وأضلوا بغير علم ، أو أصحاب مصالح خاصة يوظفون الدين لمصالحهم وأهوائهم ومطامعهم السلطوية ، ولن يجني هؤلاء إلا حسرة وندمًا وسوء عاقبة في الدنيا والآخرة ، ومن ثم فإن مواجهة هذه الفئات الضالة وردعها عن ترويع الآمنين وتدمير البلاد ضرورة دينية وواجب وطني ، حتى لا يعيثوا في الأرض فسادًا.

* * *

المسئولية
دينية ووطنية ومجتمعية وإنسانية

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ...} [المائدة : ٢]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فقد حدد الحق سبحانه وتعالى للإنسان مهمة عظيمة بجانب مهمة العبادة، وهي مهمة إعمار هذا الكون ، قال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[هود: ٦١] أي: طلب منكم عمارتها وإصلاحها ، والنظر فيما أودع فيها من خيرات وما قدر فيها من أقوات.

إن الإنسان مدني بطبعه لا يستطيع أن يعيش وحده منقطعًا في صحراء، أو منعزلاً في كهف ، بل يعيش مع غيره في مجتمع متماسك البنيان ، يتأثر به ويؤثر فيه ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات : ١٣]، فإقامة الحياة وإنشاء الحضارة والعمران يتطلب التعايش والتعاون بين الناس ؛ لذا كان لابد من نشر قيم المسئولية المجتمعية التي يتحقق بها مبدأ إعمار الكون الذي دعا إليه الإسلام .

فالمسئولية مبدأ إسلامي أصيل ، يتربى عليه المؤمن من خلال معرفته بدينه حق المعرفة ، فيدرك الإنسان ما له من حقوق وما عليه من واجبات، فيلتزم بالوفاء بها ، فيصبح إيجابيًّا في مجتمعه نافعًا لوطنه ، لا يعتدي على حقوق الآخرين ، ولا يمنعه أحدٌ شيئًا من حقه .

وما من لحظة من لحظات حياة الإنسان إلا وتتجسد فيها قيمة المسئولية بكل صورها ، سواء أكانت مسئولية فردية أم مجتمعية ، قال (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (مُتفَقٌ عَليْه) ، فبين الحديث الشريف أن المسئولية في الإسلام تمتاز بالشمولية ، فتعم كل أفراد المجتمع .

والمسئولية في الإسلام نوعان ، مسئولية فردية معني بها الأفراد ، ومسئولية مجتمعية وإنسانية معني بها المجتمع كله ، فالمسئولية الفردية تعني: أن يكون الإنسان مسئولاً عن نفسه وجوارحه وبدنه ، وعقله ، وعلمه وعمله وأسرته، وعباداته ومعاملاته ومسئولياته ، فإن أحسن ووفَّى بحقها أمام الله (عَزَّ وجَلَّ) وأمام نفسه ومجتمعه تحقق له الثواب ، ونال الأجر والعطاء ، وإن أساء وفرط في هذه المسئولية فقد باء بنفسه إلى الخسران المبين ، وإلى هذه المسئولية أشار (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بقوله: (لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ) (سنن الترمذي).

ومن لوازم المسئولية الفردية أن يكون الإنسان عفيف اللسان ، طاهر اليد ، مأمون الجانب مع كل البشر ؛ قال (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (سنن الترمذي).

أما المسئولية المجتمعية والإنسانية فتعني: قيام الجميع أفرادًا ومؤسسات بواجباتهم تجاه أوطانهم ومجتمعاتهم ، والمحافظة على ثروات المجتمع ، والعمل على تنميتها ، ونشر قيم الأمن والأمان والسلامة والطمأنينة والمواطنة القائمة على العدل والإنصاف والتسامح الديني ، ونشر ثقافة التعايش السلمي ، وغير ذلك بما يحقق نهضة الأمة والمجتمع والبشرية كلها .

وتقوم المسئولية المجتمعية على أساس فروض الكفايات التي إن قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع ؛ لأن فرض الكفاية لا يتعلق بشخص بعينه ، بل يتعلق بجميع أفراد المجتمع ، فإطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وإغاثة الملهوف ، وتعليم الجاهل كل ذلك يدخل في فروض الكفايات ، يقول سبحانه : {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة: ١٢٢].

والمسئولية المجتمعية لها الدور الأكبر في تحقيق التوازن المطلوب في المجتمع، والمسئولية الإنسانية هي السبيل الأسمى لتقوية الروابط والعلاقات الإنسانية بين البشر ، ومن صورها : تعليم الجاهل ،

ورفع الأمية بكل صورها : التعليمية ، والثقافية ، والدينية ، فكل صاحب قلم وفكر ، وكل عالم ومثقف ، وكل صاحب منبر دعوي وإعلامي مسئول عن رفع الجهل ، وحماية الأمن الفكري لأفراد المجتمع ، فالجميع في سفينة واحدة ، ولكي تصل إلى برِّ الأمان لا بد من تكاتف الجميع وإلا هلكوا جميعًا .

ومن صورها – أيضًا – : تحقيق كفاية الوطن في طعامه وشرابه وكسائه ودوائه ، وتوفير سلاحه وعتاده ، وتحقيق القوة في جميع المجالات العلمية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والإنتاجية ، يقول تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ }[الأنفال: ٦٠]، ولم يحدد الله تعالى نوع هذه القوة ، فهي شاملة لكل قوة تصلح الأمة ، سواء كانت قوة روحية، أم علمية ، أم جسدية ، أم اقتصادية ، أم عسكرية ، أم غير ذلك.

ومن صورها : قضاء حوائج المحتاجين ، ورعاية اليتامى والمساكين، وعلاج المرضى ، وبذل الجهد لإغاثة الملهوفين والمنكوبين ، وإزالة الكرب عن المكروبين ، حتى لا يجوع فقير ، ولا يضيع يتيم ، ولا يحتاج مسكين.

ومن صورها : تقويم السلوك المعوجّ ، انطلاقا من قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران:١١٠]، وامتثالاً للتوجيه النبوي في قوله (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّم): (مَن رَأى مِنكُم مُنكَرَاً فَليُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَستَطعْ فَبِقَلبِه وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم)، فالتغيير

باليد يكون للسلطان ، وباللسان للعلماء ، وبالقلب لعامة الناس ؛ لأن المجرم إذا استشعر أن المجتمع كله سيكون لافظًا له ، رافضًا لسلوكه ، متجنبًا التعامل معه ، فإنه سيراجع نفسه ألف مرة ومرة قبل أن يقدم على عمل إجرامي ، وأما إذا استشعر عكس ذلك فإنه سيتمادى في إجرامه ، سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد ، أم على مستوى الدول.

ومن صور المسئولية المجتمعية والإنسانية : قيام التاجر بواجبه تجاه وطنه ، فلا يغش ولا يحتكر ، ولا يفعل ما من شأنه استغلال حاجة الناس ، ومن النماذج التي ينبغي أن يقتدى بها في المشاركة المجتمعية وتحمل المسئولية تجاه المجتمع ، ما فعله سيدنا عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، حيث اشترى بِئْرَ رُومَةَ لحاجة المسلمين إليه ، ثم أوقفه عليهم (سنن النسائي) ؛ ولذا أكد النبي (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء ، وكذلك قيام كل من العامل ، والصانع ، والطبيب والمهندس ، والمعلم ، ورجل الأعمال بواجبهم تجاه وطنهم، وكذلك قيام الأغنياء بواجبهم تجاه الفقراء والمحتاجين ، حيث يقول نبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ) (المعجم الكبير للطبراني).

إن قيام الإنسان بواجبات مسئوليته تجاه مجتمعه عبادة يتوجه بها إلى الله تعالى قبل كل شيء ، فهي صورة من صور الأمانة التي أمر بها الشرع الحنيف ، وحذر من خطر خيانتها أو الإخلال بها ، حتى تسوده روح الألفة والمودة ، والرحمة والتعاون ، والتكاتف والتكافل وغيرها من القيم الخلقية والإنسانية التي تحقق الخير للفرد والمجتمع ، وهذا من صفات

المجتمع المسلم ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ (مُتفقٌ عليْه).

والإخلال بالمسئولية يُزعزِعُ القِيَم الأخلاقيَّة، وينشُر السلبيَّة ، مما يُؤدِّي إلى حالاتٍ من الاحتِقانِ والحِقدِ والتوتُّر والإحباط واليأسِ من الإصلاح ، ويضعُفُ الولاء الصادق للأمة وللدولة ، ويُهدِّدُ الترابُط الأخلاقي ، وقِيَم المُجتمع الحميدة المُستقرَّة ، يقول (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّة ، حتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِم، وهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوه ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِك عذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ) (مسند أحمد).

ولنعلم أنه ما ضاعت أمة ولا هلك مجتمع إلا حينما تغافل الناس وتركوا مبدأ القيام بالمسئوليات المجتمعية ، وتعالت فيهم نزعات النقيصة والأنانية ، وقد قالوا ما استحق أن يولد من عاش لنفسه ، ويقول نبينا (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) (مسند الشهاب).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

❊ ❊ ❊

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

من أهم جوانب المسئولية : مسئوليتنا الوطنية في حفظ الأمن واستقرار الوطن كل في موقعه وميدانه ، والعمل على تقدمه ورخائه ،

وتحقيق كفايته في جميع جوانب الحياة ، حفاظا على كيان الدولة وبنائها قويا صلبًا متماسكًا ، والعمل على ردِّ كيد أعدائها المتربصين بها في نحورهم ، وأول واجباتنا في ذلك هو إجهاض مخططات الأعداء الذين يعملون على إفشال دولتنا ، أو إضعافها ، أو إسقاطها ، أو تمزيق دولنا إلى كيانات لا تنفع ولا تضر ، فإضعاف دولنا وإسقاطها يصب في مصلحة أعدائنا ، ولا يخدم قضيتنا ، ولا قضايا أمتنا .

أما العمل على قوة وطننا ودولنا فإنه يخدم جميع قضايانا ، وقضايا أمتنا العادلة ، ومن أهمها قضية الأقصى ، فإن لكل أمة مقدسات تعتزّ بها ، وتلتفّ حولها ، وتدافع عنها بكل غالٍ ونفيس ، والمسجد الأقصى أحد أهم مقدسات الأمة وله مكانته ومنزلته العظيمة في الإسلام ، فهو ثاني المساجد التي أسست على وجه الأرض ، فعن أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ أَوَّلُ ؟ قَالَ : (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ)، قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : (الْمَسْجِدُ الأَقْصَى)، قُلْتُ : كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ) (مُتفَقٌ عَليْه)، وهو أحد المساجد الثلاث التي تشد إليها الرحال، يقول (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ)، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى) (مُتفَقٌ عَليْه)، وهو أرض المحشر والمنشر، فعَنْ مَيْمُونَةَ مَوْلَاةِ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ) قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ! قَالَ: (أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ ، ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ ، فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ) قُلْتُ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : (فَتُهْدِي لَهُ زَيْتًا

يُسْرَجُ فِيهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَنْ أَتَاهُ) (سنن ابن ماجه) ، وهو منتهى إسراء سيدنا محمد (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وبداية معراجه إلى الملأ الأعلى، وقد شرف الله البقعة المحيطة به وحفها بالبركة، فقال سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء : ١].

وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن يعرفوا منزلته، ويستشعروا مسئوليتهم نحوه ، ومن ثم تجب حمايته ، وعدم التفريط فيه ، فهو أمانة في أعناق المسلمين جميعًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولن تستطيع الأمة أن تحافظ على مقدساتها إلا بالاعتماد على الله (عَزَّ وجَلَّ) وتقواه أولًا ، ثم بوحدة صفِّها ، وبامتلاك أسباب القوة بالعلم والعمل .

ونؤكد أنه لا أمان بلا عدل ، وأن عاقبة الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين وخيمة ، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم ، كما نؤكد على أهمية التحرك على المستوى الدولي؛ لدعم الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ؛ ولحماية جميع دور العبادة وفي مقدمتها المسجد الأقصى حتى لا تتسع دائرة الحروب الدينية ، ويزداد العالم صراعا فوق صراعاته ، ثم إن كلا منا مسئول أمام الله (عَزَّ وجَلَّ) عما قدم لدينه ووطنه ، وعمارة الكون ، وصالح الإنسانية .

* * *

الإسلام دين السلام

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ العزيزِ :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[البقرة : ٢٠٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الإسلام منذ بدايته عمل على نشر السلام ، وأن يتناول السلام كل جوانب الحياة الإنسانية، على مستوى الأفراد والمجتمعات والدول، وذلك من خلال ما توجه به من تكاليف، وما دعا إليه من واجبات ، وما نهى عنه من محرمات، ليغرس في قلب المسلم ووعيه ووجدانه حالة من الاستقرار النفسي والأمن المجتمعي ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ٢٠٨].

وعلى ذلك فالسلام في الإسلام أساس متين ، قامت عليه مبادئه، ودعت إليه توجيهاته ، ورَبى عليه أتباعَه ، وأخذهم بسلوك طريقه، والدعوة إليه، والعمل على سيادته ، حتى ينعم المجتمع بالأمن ويتجه أفراده إلى العمل والبناء والإنتاج والرخاء، ويأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويكونوا من بعد إخوانًا متحابين ، فيعم التسامح والتعاون والإخاء ، وتزول من حياة الناس أسباب النزاع والشحناء

والعداوة والخصام ، ويصبح كل فرد من أفراد المجتمع داعيًا إلى الخير، عاملًا على إرساء قيمه وتوضيح سبله .

ومن ثم فالإسلام يدعو إلى السلام، ويحث عليه، ويهيب بالناس أن يجنحوا إليه ويدخلوا فيه ، حتى نستطيع أن نحقق معاني الإسلام ومبادئه في الحياة، وحينئذ يمكننا أن نجني سلاما في النفس ، وطمأنينة في القلب ، وصفاء في العقل، وإشراقا في الروح.

ولا عجب فالسلام شعيرة من شعائر الإسلام ، جعله الله تحية المسلمين فيما بينهم لتطبيق وتمكين معاني السلام في أحوال حياتهم وشئون معاشهم، حيث أمر الله المؤمنين بأن يتخذوه تحية لهم عند لقائهم وعند فراقهم. قال تعالى: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً }[النور: ٦١] .

كل ذلك من أجل نشر الأمن والسلام بين أفراد المجتمع؛ ليتمكنوا بعد ذلك من أداء مهامهم الدينية والدنيوية، ويحققوا لأبنائهم وأوطانهم ما يحلم به كل غيور على بلده وأهله، مُجدّ في بلوغ آماله وطموحاته.

ولا شك أن من غايات المسلم دخول الجنة ، ولذلك رسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) الطريق إليها وجعل من أسبابها إفشاء السلام حتى تعم المحبة بين الناس جميعا ، فقال: (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَىْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ) (صحيح مسلم).

ثم إن الإسلام بمدلوله العام إنما يعني السلام ، لأنه مشتقٌّ من اسم الله العظيم (السلام)، وذلك بصريح آيات القرآن المجيد، حيث قال

سبحانه متحدثا عن أسمائه وصفاته: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ.. }[الحشر: ٢٣]، ومن هنا أمر تعالى جميع المؤمنين أن يدخلوا في هذا المعنى، وأن يتجنبوا ما يتنافى والمعاني الفياضة بحقيقة الإسلام ومبادئ السلام .

والسِّلْم والسلام شيءٌ واحد ، هو الأمن المنبثق من الإيمان بالله الواحد والطمأنينة النابعة من اتباع تعاليمه السمحة وأحكامه العادلة، تلك التي جعلها سبحانه شعار دينه، وضمن من خلالها السكينة لكل عباده، قال تعالى :{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[آل عمران: ١٩].

ولم لا ؟ وهو الدين المحقق لمبدأِ السلام لبني الإنسان، والذي كفل سلامته وسعادته ليهنأ في الدارين- الدنيا والآخرة-، قال تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

وتأكيدًا لتحقيق مبدأ السلام في الأرض بين الناس ، فقد كافأ الله الساعين فيه والمطبقين له عمليًّا بالجنة، وجعل تحيتهم فيها السلام ، قال تعالى:{وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ}[الأعراف: ٤٦] ، وقال تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}[إبراهيم: ٢٣].

ولو قارنا بين الميثاق الدولي الذي أعلنه نبي الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) في خطبته في حجة الوداع وقرر فيه حقوق السلم والعدل والمساواة بين الناس ، وبين ميثاق الأمم المتحدة في هذا المجال ، وكيف أن الميثاق النبوي حقق أهدافه كاملة غير منقوصة في

نشر السلام العالمي ، بينما أخفق إعلام الأمم المتحدة في إنشاء مظلة دولية تنصف المظلومين من المتربصين بهم من خارج هذه المنظمة ، أو حتى من بين أعضائها أنفسهم .

والسبب في هذه المفارقة : هو أن نبي الإسلام (صلوات الله وسلامه عليه) كان صادقا في دعواه في نشر السلم ، وتحقيق العدل ، والمساواة بين الناس ، وأنه لم يكن يعمل من أجل حساب الإنسان العربي أو الإنسان المسلم فقط دون غيرهما من سائر الناس ، بل كان يكرر في خطابه نداءه للناس جميعا ، ويصدره بين الحين والآخر بعبارة (أيها الناس) وبعبارة : (وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ) (متفق عليه) ، بل إنه كثيرًا ما تحدى (صلى الله عليه وسلم) أصحابه والعرب جميعا بأن مظلة الأمن والسلم سوف تنشر آفاقها على العباد والبلاد في فترة وجيزة ، وكان يقسم على ذلك ، ويقول: (... والله ليتمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) (صحيح البخاري) .

أما القائمون على المنظمات الدولية التي أخذت على عاتقها نشر السلام في العالم فإنهم لم يكونوا مخلصين في دعوتهم ؛ إذ كانوا يفرقون في دخائل أنفسهم بين الغرب والشرق ، وبين حق الإنسان الغربي في الأمن والسلم وحق غيره من سائر الناس.

وانطلاقًا من مبادئ الإسلام العامة ومقاصده المهمة ، لم يقتصر السلام في الإسلام على أهل الإيمان، وإنما صار مبدأ للبشرية قاطبة، لينعموا مع المسلمين بالأمن والسعادة ، ويحرصوا جميعًا على نشره في الأرض ، فعن

زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبَلَهُ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، ثَلَاثًا، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ)(سنن ابن ماجه).

أرأيت كيف أن الخطاب لكل الناس ؟! ليس هذا فحسب، بل إن الأقرب من ربه وكرمه وعطفه ووده وبره، هو الأسبق من غيره في بذل السلام وإلقائه وإفشائه ، لما ورد في سنن أبي داود بسنده عَنْ أَبِي أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ) (سنن أبي داود).

ولقد أكد أئمة الإسلام في كل عصر وأوان على أنَّ السلام هو الهدف الأسمى من رسالة الإسلام وأهم غاياته في الأرض، ومن ثم جاءت الرسالات تترى؛ مؤكدة ضرورة المعاملة في ضوء السلم النفسي والأسري، فهذا نوح (عليه السلام) يخاطبه ربه: { يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ}[هود: ٤٨] ، وهذا إبراهيم (عليه السلام) لما وصل مع أبيه عند نقطة لا يمكن معها الاتفاق، وأصر أبوه على طرده ، لم يؤثر عنه أن أساء له أو نال منه ؛ وإنما كان ما سجله القرآن الكريم ، حيث قال:{قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٦، ٤٧] .

وهكذا يعني السلام في مضمونه العملي إقامة مبدأِ العطف والبر مع العدل والمساواة والحرية ، بعيدًا عن الأطماع البشرية ؛ إذ لا يسمى السلام سلاما إذا كان لصالح طرف دون الآخر، وإنما يكون ظلما وذلاً ، لذا قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[الأنفال: ٦١].

وقد أودع الله – تعالى- أوامره وزواجره سبحانه معاني السلام ، فمما لا شك فيه أن عمل الصالحات يسهم في نشر الأمن والسلام ، كما أن التصدي للمخالفين والعابثين الفاسدين والمفسدين يحقق الأمن والسلام، وقد جاء في الحكم أو المثل: من أمن العقوبة أساء الأدب.

ولذا قال الله تعالى : {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[المائدة: ٣٢]. والمعنى: أنه لما كانت النفس الإنسانية محترمة في الإسلام ، كأن من أهرق دم نفس واحدة بدون حق فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن عمل على حفظها وصيانتها ولو كانت واحدة فقط فكأنما أحيا الناس جميعا.

إن الإسلام أمر بحسن معاملة الأعداء ؛ علَّهم أن يعودوا إلى رشدهم فيكفوا عن ظلمهم وعدائهم ، قال الله تعالى: {وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الزخرف:٨٨-٨٩] .

وبهذا يحرص الإسلام على أن يغرس السلام في نفوس أتباعه ويربيهم علي ذلك بالتطبيق العملي ، ولا يعني هذا إقامة السلام فيما بينهم

فحسب بوصفهم أتباع دين واحد ، ولكنه يعني أيضا إقامة السلام مع كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم وألوانهم .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

لقد وضع الإسلام للمسلمين مبدأ عاما للتعايش السلمي بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، هذا المبدأ يتلخص في ضرورة التعايش الإيجابي مع الآخرين أيًّا كانوا ، ومعاملتهم بالعدل والإنصاف والتسامح ، طالما أن هؤلاء لم يصدر منهم أي عدوان علي المسلمين ، ولم يتعاونوا مع أعداء المسلمين ضدهم ، قال الله تعالى:{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }[الممتحنة: ٨، ٩].

بل حتى في ميدان الحربِ والقتالِ؛ قرر الإسلام أنه إذا ألقى العدوُّ السلام وجبَ الكفُّ عنه واعتبارُه مُسلمًا مُتمتِّعًا بالسلام ؛ عملاً بقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[النساء: ٩٤].

ولأهمية السلام في الإسلام نجد أنه لا يرتبط بالإنسان فقط ، بل للحيوان والنبات والجماد أيضا ، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (السلام) وردت في القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة ، بينما وردت كلمة (حرب) أربع مرات فقط ، وضرورة السلام للإنسان في الإسلام تنبع من أنه دين يسوي بين الناس جميعا في الحقوق وفي الواجبات ، وأول هذه الحقوق هو حق (الاختلاف) فالله تعالى خلق الناس مختلفين :{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[هود: ١١٨، ١١٩] .

وإذا كان الاختلاف مشيئة إلهية في خلق الناس لا راد لها ، فإن العلاقة بين المختلفين – فيما يقرر الإسلام – هي علاقة التعارف والالتقاء ، والتعاون على البر والتقوى ، و (السلام) هو مقتضى علاقة التعارف ولازمها الأول .

جدير بالذكر أن الإسلام ينظر إلى السلام على أنه الأصل في العلاقات الدولية وفي علاقة الناس بعضهم ببعض ، وأن الحروب ضرورة واستثناء.

إن آفة الآفات في فلسفة السلام أن يرتبط بمقاصد السياسات الدولية ومزاجها المتقلب ، وأن يتخلى عن مقاصد الأخلاق وغاياتها الثابتة التي نادت بها الديانات السماوية ، وحثت على الالتزام بها ، وفي هذه الآفة يكمن الفرق بين نظرة الرسالات الإلهية لمفهوم السلام وضرورته القصوى كشرط أساسي للتقدم والرقي والرفاهية ، وبين معنى السلام في مفهوم الأمزجة البشرية المتقلبة حينا والمتصارعة حينًا ، والظالمة حينًا آخر.

وعليه فالسلام هو صمام الأمان في المجتمعات، ترتفع به دعائمه، وتعلو رايته، ويعيش أبناؤه في أمن واستقرار ، ويزدهر لهم به وجه الحياة، فيقوى اقتصادهم، ويعيشون في سعة من العيش ورغد ورفاهية .

ومن هنا يعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن ننشر السلام بين أولادنا وأهلينا كلما ولجنا البيوت والمنازل، قال تعالى:{فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[النور:٦١] .

وهكذا كفل لنا التشريع الإسلامي إشاعة السلام في جنبات المجتمع حتى يعم الأمن ويكثر الخير وتفيض البركة .

* * *

أثر الزكاة في التكافل الاجتماعي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ العزيزِ :{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ٢٧٤]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الإسلام دين يقوم على البذل والعطاء والإنفاق ، ويكره الشح والبخل والإمساك ، لذلك حبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفهم معطاءة ندية ، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي البر والإحسان ، وأن يجعلوا تقديم الخير للناس هو عملهم الدائم ، لا ينفكون عنه صباح مساء ، فإذا امتثلوا لذلك كانوا من الآمنين يوم القيامة ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وفي ذلك يقول سبحانه: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ٢٧٤].

هذا ؛ وقد اقتضت إرادة الله – تعالى- أن يكون في الناس غني وفقير ليتعاونوا جميعًا على عمارة الأرض، لأنه – سبحانه وتعالى- لو خلقهم جميعًا أغنياء لبطلت مصالحهم ، ولم يكن للحياة معنىً ، ولو خلقهم كلهم فقراء لفسدت معيشتهم ، وهانت حياتهم ، ولكن شاء الحكيم الخبير أن يرزق بعض الناس من أيدي أناس آخرين ، وأن يهب الغِنَى

لقومٍ ليعطوا قومًا آخرين ، فلمصلحة البشر فضل بعضهم على بعض في الرزق ، فقال سبحانه : {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ} [النحل: ٧١] ، وقال سبحانه : {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}[الزخرف: ٣٢].

والله (عز وجل) ابتلى الغني بغناه لينظر أيعطي الحق وتجود نفسه بالإنفاق في سبيل الله أم يبخل، وكذا ابتلى الفقير بفقره لينظر أيستعفف ويصبر أم يلج باب الحرام ؟ ولقد أنزل الله تعالى من الرزق ما يكفي الجميع ، فجوع الفقير وحاجة المحتاج ناتجة عن بخل بعض الأغنياء، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ : " إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَكْفِي فُقَرَاءَهُمْ، فَإِنْ جَاعُوا وَعَرُوا وجَهَدُوا فَبِمَنْعِ الْأَغْنِيَاءِ، فَحَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ" (سنن البيهقي) .

ولما كان الإنسان بطبعه مجبولاً على حب المال، حريصًا على اقتنائه وجمعه، حتى إنه يفكر في نفسه أكثر مما يفكر في غيره، وحتى إنه لو أوتي ما في الأرض جميعًا ، بل لو امتلك خزائن الرحمة العليا لما طوعت له نفسه أن ينفق منها بسعة، كما قال ربنا – سبحانه –: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا }[الإسراء: ١٠٠].

من أجل ذلك أمر الله عباده الأغنياء بالإنفاق والصدقة من أموالهم التي رزقهم إياها، واستخلفهم فيها ، فقال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[البقرة: ٢٥٤] ، ثمَّ وعدهم بالزيادة والنماء ، ومضاعفة الأجر والثواب ، فقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ٢٦١، ٢٦٢]. وقال تعالى : {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ }[الحديد: ٧] ، وفي الحديث عن أبي هريرةَ (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " (متفق عليه) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - أيضا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : " قَالَ اللَّهُ : أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْك" (صحيح البخاري).

ولما كان الإسلام دينًا يقوم على ركائز قوية ، وأسس ثابتة، تغرس في نفس المسلم حب العبادة لله تعالى، وتنمي فيه روح الألفة والمحبة لإخوته المسلمين ، كان من بين تلك الأسس التي يقوم عليها الإسلام فريضة الزكاة ، التي جعلها الله – تعالى – ركنًا أساسيًّا من أركان الإسلام، ففي الحديث يقول النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"(متفق عليه)، فهي الركن الثالث

في الإسلام ، أوجبها الله – تعالى– على عباده ، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فهي حق واجب للفقراء في مال الأغنياء ، كما قال ربنا سبحانه : {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: ٢٤ ، ٢٥]. وفي حديث معاذ بن جبل (رضي الله عنه) حين بعثه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى اليمن قال له : "إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ ". (متفق عليه).

فالزكاة فريضة لازمة يكفر من جحدها ، ويفسق من منعها، ويقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها ، يقول الله سبحانه : { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [التوبة:١١]، وحسبنا أن الخليفة الأول أبا بكر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) جهز جيشًا كبيرًا لقتال المرتدين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، وقال: (وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ) (صحيح البخاري).

ولأهمية الزكاة وعظم منزلتها جاء الأمر بها في القرآن الكريم مقرونًا بالصلاة في عشرات المواضع ، تعظيمًا لشأنها، وتنويهًا بذكرها، وترغيبًا في

أدائها، وترهيبًا من منعها، أو التساهل فيها، ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[البقرة: ٤٣] ، وقوله سبحانه:{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[البقرة: ١١٠]. وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ٢٧٧] ، وقوله : {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[النور: ٥٦] ، {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[المزمل: ٢٠] ، إلى غير ذلك من الآيات.

والسرُّ في هذا الاقتران : أن الصلاة فيها تمكين لعلاقة المسلم بربه ومولاه ، والزكاة فيها تمكين لعلاقة المسلم بإخوته في هذه الحياة، فالصلاة حق لله تعالى ، والزكاة حق للعباد.

وقد تعدد ذكرها في القرآن الكريم تارةً بلفظ الزكاة – كما سبق ذكره في الآيات– ، وتارةً بلفظ الإنفاق ،كما في مطلع سورة البقرة ، حيث يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدي كتابه فيقول: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[البقرة: ٣] ، وثالثةً بلفظ الصدقة ، كما في قوله سبحانه: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[التوبة: ١٠٣].

وقد شرع الله تعالى الزكاة لحكم عالية وأغراض سامية ، تعود على الأفراد والمجتمعات بالفضل العظيم، والخير العميم، ومن تلك الحكم :

* أن الزكاة طهارة للنفس البشرية، ففي جانب الأغنياء فهي طهارة لنفس الغني من الشح والبخل ، يقول تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[التوبة: ١٠٣] ، ويقول سبحانه: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[الحشر: ٩]. وفي الحديث : عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ"(شعب الإيمان) . وفي الجانب الآخر طهارة لنفس الفقير من الحقد والحسد والضغينة.

* أن الزكاة طهارة للمال وتحصين له: فكما أن الزكاة تطهر النفس البشرية، فهي كذلك تطهير للمال، لأن تعلق حق الغير بالمال يجعله ملوثًا ، لا يطهر إلا بإخراجه منه، فعن جابر (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : "مَنْ أَدَّى زَكَاةَ مَالِه فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ شَرَّهُ" (المعجم الأوسط للطبراني).

* كما أن الزكاة سبب لنماء المال وبركته ، وهذه حقيقة لا مرية فيها ، فقد أفصح عنها الكتاب العزيز، وأكدتها السنة المطهرة، يقول تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩]. وفي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال :" مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عبدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ "(صحيح مسلم) ، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ

النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِى سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِى حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِى حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ فُلاَنٌ، لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِى السَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِى عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّى سَمِعْتُ صَوْتًا فِى السَّحَابِ الَّذِى هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لاِسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ: أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ" (صحيح مسلم).

على أن الزكاة لها فضائل مهمة ، وآثار اجتماعية عظيمة تتمثل في سدّ حاجة الفقراء ورفع الفقر عنهم ، ونشر المحبة بين أفراد المجتمع المسلم، و تقوية أواصر المحبة والتراحم بينهم، فليست الزكاة محض مال يؤخذ من الجيوب، بل هي غرس للرأفة والرحمة في القلوب.

ومن ثمَّ رغَّب الله في أداء الزكاة ، وأثنى على المزكِّين والمتصدقين بالفَلاَح والنجاح في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}[المؤمنون:١-٤]، ثمَّ وَعَدَهُم وِراثة الفِرْدَوس الأَعْلَى ، فقال تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[المؤمنون: ١٠، ١١] .

ومن الأصناف التي تجب فيها الزكاة : (**الزروع والثمار**) :

فقد أَوْجبَها الله سبحانه وتعالى بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ

تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [البقرة:٢٦٧] ، وقوله: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ }[الأنعام: ١٤١].

فقد بين النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) النِّصاب الذي تجب فيه الزكاة ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : " لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنَ التَّمْرِ صَدَقَةٌ ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ مِنَ الْوَرِقِ صَدَقَةٌ ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ مِنَ الإِبِلِ صَدَقَةٌ " (صحيح البخاري).

فالزكاة تجب في كل ما أنبتته الأرض وبلغ النصاب أو قيمته، اعتمادًا على عموم قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ...} [البقرة:٢٦٧]، يقول ابن جرير (رحمه الله): يعني بذلك جل ثناؤه: وأنفقوا أيضًا مما أخرجنا لكم من الأرض، فتصدقوا وزكوا من النخل والكرم والحنطة والشعير، وما أوجبت فيه الصدقة من نبات الأرض (تفسير الطبري)، وكذا عموم قول النبي (صلى الله عليه وسلم) السابق: " فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ..." (صحيح البخاري) الحديث، فتجب الزكاة فيما أخرجته الأرض وبلغ نصابًا – وهو ما يقدر بخمسة أوسق، وهي تساوي ٥٠ كيلة بالكيل المصري من الحبوب ، أو قيمة ذلك من الخضار والفاكهة وجميع أنواع الزروع والثمار– فإذا بلغ الزرع هذه القيمة أو زاد وجبت فيه الزكاة، وإذا قل عن ذلك لم تجب

فيه الزكاة إلا أن يتطوع صاحبه بصدقة تأخذ به إلى الجنة وتقيه حر نار جهنم.

أما عن القدر الواجب إخراجه منها فيختلف بحسب طريقة السقي ، فما سقي بلا كلفة ولا مؤونة ، كما لو سقي بماء المطر ، أو العيون ، ففيه العشر ، وما سقي بكلفة ومؤونة كمياه الآبار التي تخرج بالآلات وغيرها ففيه نصف العشر ، فعَن سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، عَنْ أَبِيه (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : "فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ ، أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعُشْرُ ، وَمَا سُقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ الْعُشْرِ " (صحيح البخاري) .

فليسارع كل مسلم بإخراج زكاة زرعه وثمره ، حتى يؤدي شكر هذه النعمة التي أنعم الله عليه بها ، فهو الذي خلقها وأوجدها وهو الذي نماها وأصلحها ، يقول تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[الواقعة : ٦٣، ٦٤]. فالله تعالى هو الذي يحيى الأرض بالنبات بعد موتها، وهو القادر على إخراج النبات الأخضر المثمر من البذور والطين غضًّا طريًّا .

ولو أخرج الأغنياء زكاة أموالهم بطريقة صحيحة لما رأينا فقيرًا ولا مسكينًا ولا جائعًا ولا محرومًا ، وهذا ما حدث في عصر الخليفة العادل الإمام الزاهد عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – الذي أقام العدل في الناس وعرّف الأغنياء بحق الفقراء ، فلما جُمعت الزكاة في عهده وأرادوا توزيعها لم يجدوا فقيرًا واحدًا في أنحاء الأمة! وكان يحكم أمة تمتد حدودها من الصين شرقًا إلى باريس غربًا ، ومن حدود سيبيريا شمالاً إلى المحيط الهندي جنوبًا ، ومع ذلك لم يجدوا مسكينًا واحدًا

يأخذ الزكاة ، وفاض المال في بيت مال المسلمين فأصدر – رحمه الله– أمرًا بأداء الديون ، وقال: اقضوا عن الغارمين ، فقضى ديون الناس ومازال المال فائضًا، فأصدر أمرًا بإعتاق العبيد فأعتقهم وما زال المال فائضًا في خزينة الدولة الإسلامية ، فأمر بتزويج الشباب فزوجهم وبقي المال.

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن الإسلام بحكمة تشريعه لم يهمل أمر مصارف الزكاة ، فقد بينها الله تعالى بمقتضى علم وحكمة ، وعدل ورحمة ، وحددها بثمانية أصناف ، فقال سبحانه:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[التوبة: ٦٠].

فلا تُصرفُ الزكاةُ لغيرِ هؤلاءِ ، وينبغي على المزكي أن يتحرى المستحقين لزكاته حتَّى تَقَعَ في مَوْقِعها ويُؤَدَّى الْمَقْصودُ مِنْها ، فإنَّهُ ما اشْتَكَى فَقِيرٌ إلاَّ بقَدْرِ ما قَصَّرَ غَنِيٌّ ، ولَوْ أدَّى ٱلأَغنياءُ زَكاةَ أمْوالِهم في مَصارِفِها ، لَما وَجَدْتَ فقيرًا أَوْ مِسْكينًا أَوْ مُعْدَمًا ، على أنه ينبغي على المزكي مراعاة عدة أمور عند إخراج الزكاة ، ومنها :

* أن يخرج زكاته من أطيب الأموال وأجودها وأحبها إليه ، مبتعدًا عن الرديء منها ، كما أمر الله – سبحانه – ؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا

طيبًا ، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[البقرة:٢٦٧] ، ويقول تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }[آل عمران: ٩٢].

* أَنْ يطلُبَ الْمُزَكِّي بِهَا وجْهَ اللهِ تعالَى ، وألّا يفسد زكاته بالمن والأذى ، فإن الله تعالى يقول : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى}[البقرة: ٢٦٤].

ويقول تعالى : {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٢ – ٢٦٣].

* أن يخرج زكاته وقت وجوبها دون تأخير ؛ لقوله تعالى : {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأنعام: ١٤١].

وقد حذَّرَ الشَّرع – وبَالَغَ في التَّحذير – من مَنْع الزَّكاة؛ بل وَصَف مانِعيها بالخُرُوج منَ الإسلام ، وذلك بِنَصِّ القرآن الكريم ، والسُّنَّة المُطَهَّرَة؛ قال الله – تعالى –: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}[فصلت: ٦، ٧]، فحَصَرَهم بين الشِّرْك والكُفر.

فليحذر المسلم من التهاون في أداء حق الفقراء من الزكاة ، فقد جاء الوعد الشديد والترهيب الأكيد، في حق تارك الزكاة، بأسلوب ترتعد منه الفرائص وتهتز له القلوب، وتذوب له الأفئدة، وتقشعرُّ منه الجلودُ

والأبدانُ ، فيقول تعالَى: { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}[التوبة: ٣٤ ، ٣٥]، فالذي يجمع المال ولا يؤدي زكاته لا يجمع في الحقيقة مالاً وإنما يجمع حطبًا سيشتعل فيه نارًا يوم القيامة والعياذ بالله.

وعن أبي هريرةَ (رضي الله عنه) أن النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: " مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فلم يُؤَدِّ زكاتَه، مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شُجاعا أقْرَعَ له زَبيبتانِ، يُطوِّقهُ يومَ القيامةِ، ثُمَّ يأخذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ أيْ: شِدْقَيْهِ ثمَّ يقولُ: أنا مالُكَ، أنا كنزُكَ" ثمَّ تلا النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) : { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }[آل عمران:١٨٠] (صحيح البخاري).

ولَمْ يَقِفِ الْحَدُّ عِنْدَ العُقوبَةِ الأُخْرَوِيَّةِ لمانع الزكاة ، بَلْ يَتَعدَّى ذلِكَ إلى العُقوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، التي تعمُّ الفردَ والمجتمَع ، والتي تتمثل في الجوع والقحط ، حيث تمنع السماء قطرها ، وتمنع الأرض نباتها وشجرها ، فعَنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ (رضِيَ اللهُ عنهما) قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ : " يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ" – وذكر منها – " وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا..." (سنن ابنُ ماجَه).

ومِنْها ذَهابُ المالِ بأيِّ نوعٍ مِنَ الآفاتِ ، أوْ بَقاءُ عَيْنِهِ ومَحْقُ ما بهِ مِنْ بَرَكاتٍ فترَى المالَ الكثيرَ الذي لم تُؤَدَّ زَكاتُهُ ، لا يَفِي بغَرَضِ الشَّخْصِ وحاجَتِهِ ، ورُبَّما أثْقَلَ الدَّيْنُ كاهِلَهُ، وعَرَّضَ نَفْسَهُ للإفْلاسِ والمُساءَلَةِ، يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[القلم : ١٧–٣٣] .

* * *

ضوابط الأسواق وآدابها

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم :{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّـذِينَ إِذَا اكْتَـالُوا عَلَـى النَّـاسِ يَسْـتَوْفُونَ * وَإِذَا كَـالُوهُمْ أَوْ وَزَنُـوهُمْ يُخْسِرُونَ}[المطففين:١-٣]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه ورسوله ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فمن عظمة الدين الإسلامي أنه دين شامل لكل مناحي الحياة ، ولما كانت النفس الإنسانية مجبولة على حب المال الذي به قوام حياتها وانتظام أمرها ومعاشها ، فقد حثت الشريعة الإسلامية السمحة على السعي في تحصيل المال واكتسابه من طرق مشروعة ومباحة ، فأباحت كل صور الكسب الحلال التي ليس فيها اعتداء ولا ظلم ولا ضرر على الغير ، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} ، وقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[المؤمنون:٥١]، وَقَالَ : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[البقرة :١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) (صحيح مسلم) .

ومن ثم ، فقد شرع الله تعالى لعباده البيع والشراء وصولًا إلى الغرض ، ودفعًا للحاجة ، حيث يقول سبحانه : {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [البقرة : ٢٧٥]، ولقد جرت عادة الناس منذ الأزل على إقامة الأسواق التي يتبادلون فيها منافعهم ، ويحققون من خلالها مصالحهم ، وجاءت آيات الذكر الحكيم لتبين أن ذلك سمة من سمات البشر ، حيث يقول سبحانه : {وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}[الفرقان : ٢٠]، ويقول سبحانه على لسان أصحاب الكهف : {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ}[الكهف : ١٩].

ولا شك أن الأسواق أحد أهم مظاهر التطبيق العملي للإسلام الحقيقي ؛ فالمعاملات – بيعًا وشراء – تُظهر صدق التدين من كذبه ، ولقد جعل الإسلام للأسواق آدابًا وضوابطَ ينبغي أن يتحلى بها المسلم في بيعه وشرائه ، منها : **ذكر الله تعالى وحسن مراقبته** ، فللسوق دعاء يقال قبل الدخول ، حيث قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ قَالَ حِينَ يَدْخُلُ السُّوقَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) (سنن ابن ماجه) ، على أننا نؤكدُ أن ذكر الله لا يكون باللسان فقط ؛ وإنما يكون أيضًا بحسن مراقبة الله تعالى في تحري الحلال والبعد عن الحرام .

ومنها : **الصدق واجتناب الكذب** : فلا يجوز للمسلم أن يكذب ليروج لسلعته ، فإن هذا الترويج الكاذب للسلعة يكون سببًا في محق البركة في

الدنيا ، والطرد من رحمة الله تعالى في الآخرة ، ويشتد الإثم ويعظم إذا سولت له نفسه أن يقسم كاذبًا ليستحلَّ مال غيره ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (البَيّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمهُمُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ : رَجُلٌ حَلَفَ علَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بهَا أَكْثَرَ ممَّا أَعْطَى وَهو كَاذِبٌ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ علَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطِعَ بهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فيَقولُ اللَّهُ: اليومَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كما مَنَعْتَ فَضْلَ ما لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ) (متفق عليه)، وفي رواية : (الْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ) ، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ) (متفق عليه)، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول لأصحابه : (إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ ، فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ، ثُمَّ يَمْحَقُ) (صحيح مسلم).

ومنها: **الأمانة والتراضي وعدم الغش** ، والأمانة تقتضي الوضوح الكامل في البيع والشراء حتى يتحقق الرضا التام بين الطرفين ، يقول سبحانه : {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ}[النساء : ٢٩]، ولقد قال النبيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِعُثْمَانَ بن عفان (رضي الله عنه) : (إِذَا ابْتَعْتَ فَاكْتَلْ ، وَإِذَا بِعْتَ فَكِلْ) (السنن الكبرى للبيهقي)، وَعَنِ السَّائِبِ (رضي اللهُ عنه) قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فجعلوا يُثْنُونَ عليَّ ويذكروني ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَنَا أَعْلَمُكُمْ) ؛ يَعْنِي بِهِ ، قُلْتُ : صَدَقْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي : كُنْتَ شَرِيكِي فَنِعْمَ الشَّرِيكُ ، كُنْتَ

لَا تُدَارِي ، وَلَا تُمَارِي (سنن أبي داود).

ولقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحاب الضمائر الفاسدة التي لا تراقب ربها ، وحذر كل من تسول له نفسه الخبيثة خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل من الغش فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح مسلم)، كما وجه (صلى الله عليه وسلم) الشركاء إلى أن تكون الأمانة والصدق هي أساس الشراكة بينهما ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يَقُولُ اللَّهُ : أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَإِذَا خَانَ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا) (سنن أبي داود).

ومن الآداب كذلك : **عدم تطفيف الكيل والميزان** ، والتطفيف معناه: الاستيفاء من النّاس عند الكيل أو الوزن منهم ، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم ، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير الّتي يتعامل بها النّاس ، فالله (عز وجل) أمر بإقامة الوزن بالقسط في كتابه الكريم ، حيث يقول سبحانه: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا}[الإسراء : ٣٥]، وتوعد سبحانه من فعل ذلك فقال:{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}[المطففين : ١-٣].

وقد حذر نبيُّ الله شعيب (عليه السلام) قومه من بخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان ، كما حكى ذلك القرآن الكريم ، فقال تعالى : {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا

تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[الأعراف : ٨٥].

ومنها : **عدم التعدي على حقوق الآخرين** ، ومن ذلك نهي النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أن يبيع الإنسان على بيع أخيه ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لاَ يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ) (متفق عليه)، وفي رواية : (لاَ يَبِيعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ ، وَلاَ يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ ، حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ أَوْ يَتْرُكَ) ، وذلك من الأدب الرفيع في البيع والشراء ، فلا يزايد على من يشتري سلعة ، وكذلك لا ينفِّر من سلعة أخيه فيعيبها حتى يبيع سلعته .

ومنها : **عدم الاحتكار** ؛ ويعني حبس السلعة والامتناع عن بيعها ، أو محاولة الاستحواذ عليها في السوق بقصد رفع أسعارها وزيادة تحقيق الأرباح على حساب الناس والمجتمع ، لذا نهى (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن كل ألوان الاحتكار ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنِ احْتَكَرَ يُرِيدُ أَنْ يُغَالِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ ، وَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ) (مسند أحمد)، وفي ذلك ما يؤكد حرمة استغلال حوائج الناس ، أو التلاعب بأقواتهم وحاجاتهم الأساسية التي يحتاجون إليها ، سواء في طعامهم أم في غيره، لأن ذلك يُعدّ كسبًا خبيثًا محرَّما ، وهذا ما حذَّرنا منه ديننا الحنيف ، فقال تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[النساء : ٢٩]، وقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ) (متفق عليه).

ولله در القائل :

أَيَا بَائِعًا بالغشِّ أَنتَ مُعَرَّضُ *** لدَعوَةِ مَظْلُومٍ إلى سَامِعِ الشَّكْوَى

فَكُلْ مِنْ حلالٍ وارْتدِعْ عن مُحرَّمٍ ** فَلسْت على نارِ الجحِيمِ غدًا تَقْوَى

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

لقد حرمت الشريعة كل صور البيع والشراء وسائر المعاملات التي تؤدي إلى التلاعب بأقوات الناس واستغلال حاجاتهم الضرورية ، نظرا لخطورتها على الفرد والمجتمع ؛ لأنها تؤدي إلى انتشار العداوة والبغضاء ، وتقطيع أواصر المحبة والمودة والرحمة بين جميع أفراد الأمة ، ولقد حثت الشريعة على السماحة وحسن المعاملة في البيع والشراء ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (صحيح البخاري)، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (غَفَرَ اللَّهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ ، كَانَ سَهْلاً إِذَا بَاعَ ، سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى ، سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى) (سنن الترمذي).

إن كل ما يدعو للتكافل والتراحم وسد حاجات الناس هو من أولى الأولويات ، إذ لابد من التكافل والتراحم والتعاون بين الناس ، وخاصة في وقت الشدائد والأزمات ، حتى يتحقق مبدأ الأخوة بين المؤمنين

الذي نادى به القرآن الكريم ، قال تعالى : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات : ١٠] ، وقال سبحانه : {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٧١] ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ ، وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ) (متفق عليه).

ولقد تجلى هذا الأمر عمليًّا في حياة الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في مواقف كثيرة ، منها : ما كان يفعله الأشعريون الذين ضربوا أروع الأمثلة في التكافل ، قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ) (متفق عليه)، فهذا نموذج عملي تنتفي فيه كل مظاهر الفردية والأنانية ، ويستحضر روح الجماعة والأخوة الممزوجة بفضيلة المحبة والإيثار .

ومن ثم فينبغي أن تتكاتف كل الجهود المخلصة للعمل على وضع الآليات التي تكسر الاحتكار في كل مقومات الاقتصاد ، والقضاء على هذه الأدواء الخبيثة التي تهدد استقرار المجتمع ، والعمل الجاد على رفع المعاناة عن الناس ، وبخاصة الطبقات الأكثر فقرًا والأشد احتياجًا ، وهذا واجب نتشارك فيه جميعًا ، كل بما يستطيع ، وصدق الله العظيم إذ يقول : {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} [البقرة : ١٩٧].

الرشوة وأثرها المدمر على الأفراد والدول
وسبل القضاء عليها

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز :{وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٨٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فقد نهى الإسلام عن أكل الحرام بكل صوره وأشكاله نهيًا قاطعًا لا لبس فيه، فقال سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩ ، ٣٠] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[المؤمنون:٥١]، وقَالَ سبحانه وتعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[البقرة :١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) (صحيح مسلم).

والمتأمِّل في عالم الناس اليوم يرى أنه عالمٌ تغيَّرت فيه كثيرٌ من القِيَم والمفاهيم الصّحيحة ، عالمٌ سَيْطَرَت فيه المادة حتى تساهل بعض الناس

في جمع الأموال، لا يهمهم أكان ذلك من حلال أو حرام ، وصدَق فيهم قول المصطفى (صلى الله عليه وسلم) : (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنْ الْحَرَامِ) (صحيح البخاري) ، ومن ثمَّ ظهرت في المجتمعات بعض السلوكيات الخاطئة التي تؤدي إلى تدمير المجتمع ونزع الخير منه ، من هذه السلوكيات :

الرشوة ، فهي من أخطر صور المال الحرام التي حذَّر منها الإسلام ، وهي من أشدّ الأمراض الاجتماعية فتكًا بالأمم ، كما أنها تعود عليها بالوبال والدمار في الأفراد والأسر والمجتمعات في الدنيا ، ويوم العرض على الله (عز وجل) في الآخرة ، فإذا فشت الرشوة في أمة من الأمم وتجرأ الناس على تعاطيَها فاعلم أن الضمائر قد ماتت ، وأن الإيمان قد ضعف في النفوس والقلوب .

وقد شدّد الشرع على حرمة أخذها ، أو دفعها ، أو التوسط بين الراشي والمرتشي ، فالثلاثة مطرودون من رحمة الله (عز وجل)، متعرضون لسخطه وغضبه ، فما دخلت الرشوة عملًا إلا أعاقته ، ولا مجتمعًا إلا أفسدته ، ولا بيتًا إلا خربته ، ولا جوف شخص إلا أهلكته ، فكلٌ من تعامل بها ظالم ، المرتشي لأخذه ما يحمله على الظلم والجور وضياع الحقوق ، أو التفريط في واجبات عمله ، والغلظة على من لا يدفع شيئًا ، والراشي: الدافع لها لأنه عون كبير على الظلم والفساد ، وعلى تشجيع الظالمين المفسدين ، ومفسد لقلوبهم على الآخرين ، الذين تأبى أذواقهم السليمة ، وعقيدتهم الحية عن دفع الرشوة ؛ قال (صلى الله عليه وسلم) : (الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي فِي النَّارِ) (المعجم الصغير للطبراني)،

والرائش هو الوسيط بين الراشي والمرتشي ، الساعي بينهما بالرشوة ، وهو وعيد شديد لآكل الرشوة ودافعها والساعي بينهما بأن جعلهم جميعًا متعرضين لسخط الله تعالى وغضبه ، ولم يتوقف الأمر عند مجرد النهي عنها وذمِّها ، بل تعدى ذلك ليصل إلى حد اللعن الصريح الذي يعني الطرد من رحمة الله تعالى ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (لعنةُ اللهِ على الراشِي والمرتَشِي) (سنن أبي داود) ، وفي رواية : (لَعَنَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ) .

وسواء أكان اللعن من الله (عز وجل) أم من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ففيه رسالة شديدة الوضوح لكل من شارك في إتمام الرشوة ، هذه الرسالة تلقى بظلال من الخوف والرهبة والشدة والطرد من رحمة الله (عز وجل) ، وذلك لأن الرشوة دعوة صريحة لقتل كفاءات المجتمع، وهدم للأسس التي يقوم عليها ازدهاره وتقدمه .

إن الرشوة ليستْ جريمة شخصية ، وإنَّما هي جريمة في حق المجتمع كله ، لذا كانت محرمة بأيّ صورة كانت ، وبأي اسم سُميت ، سواء تحت مسمى هدية أم غيرها ، فالأسماء لا تغير من الحقائق شيئًا ، والعبرة بالمضامين والمعاني لا بالأسماء ولا بالمسميات ، ولم يعبر القرآن الكريم عن الرشوة بلفظها صراحة ، لكنه ذم من كانوا يتعاملون بها وسماها سحتًا فقال سبحانه : {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [المائدة : ٤٢] ، ويقول (عز وجل) :{وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}

[المائدة: ٦٢، ٦٣] ، وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بالسحت: كل ما خبث كسبه وقبح مصدره ، كالتعامل بالربا وأخذ الرشوة وما إلى ذلك من وجوه الكسب الحرام .

وقد جاء النهي والتحذير من الرشوة في سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) بأسلوب تخويفي شديد الوطأة على قلوب المؤمنين ، إما بالنهي الصريح عنها أو بلعن كل من شارك فيها من قريب أو بعيد ، فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلاً مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَة ، فلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، قالَ : فَهَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيه ، أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لا ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاء ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ، ثمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ – اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ثَلاَثًا) (متفق عليه).

ففي هذا الحديث وعيد شديد لمن يستغل نفوذه ويستبيح لنفسه أن يأخذ ما لا يحل له أخذه ، وإن ألبسه أثوابًا مستعارة كالهدية أو الإكرامية وغير ذلك ، فذلك خيانة للأمانة ، وسحت لا يبارك الله تعالى له فيه ، ولا في نفسه ، ولا في أولاده ، ولا في عائلته ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ) (سنن أبي داود).

ومن الأساليب الملتوية للحصول على الرشوة : تعطيلُ مصالح الناس والتسويف في إنجازها إلى أن يتم أخذ الرشوة ، وفي ذلك خيانة للأمانة

التي يقول الله تعالى فيها :{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[الأنفال: ٢٧، ٢٨] ، وهكذا تضيع الأمانات بسبب الرشوة ، وتتحول الأعمال الشريفة إلى أعمال فاسدة تضر بالفرد والمجتمع ، وتؤثر فيه تأثيرًا سلبيًّا ، وتنخر في جسده حتى تهدم بنيانه ، ولأجل هذا حرّم الإسلام الرشوة ، تحذيرًا للمسلمين من شرها ، وإبعادًا لهم من ضررها ، وحماية لدينهم ، ولأموالهم ، وحماية للمجتمع عمومًا. فكم من محارم انتهكت ، وكم من دماء سفكت ، وكم من أمانات ضيعت، وكم من حقوق طمست ، ما أضاعها وما طمسها إلا الراشون والمرتشون ، فويل لهم مما عملت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون .

وجدير بالذكر أن الرشوة لها آثارها المدمرة للأفراد والمجتمعات والدول ، فهي شؤم ووبال على صاحبها في الدنيا والآخرة ، فبسببها يصاب القلب بالقسوة ، لأنها مال حرام يُذهِب الإيمانَ شيئا فشيئًا ، ويعمي البصيرة ، ويمنع إجابة الدعاء ، وهو مال ممحوق البركة ، إن أنفقه صاحبه في برٍ لم يُؤجر ، وإن بذله في نفعٍ لم يُشكر ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ : تُلِيَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا} [البقرة : ١٦٨] ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ (رضي الله عنه) فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،

وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) (المعجم الأوسط للطبراني)، وفي الحديث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) لكعب بن عجرة : (يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ النَّارُ أَوْلَى بِهِ ، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ : النَّاسُ غَادِيَانِ ، فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا) (مسند أحمد).

ومن أضرار الرشوة بالمجتمع : أنها تهدم ركيزة أساسية هي أساس الملك وبها قامت الدنيا وعليها تقوم الدول ، ألا وهي قيمة الحق والعدل، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الحجر: ٨٥] ، فالرشوة حُرِّمَت لأنها من أهم العوامل التي تؤثر في مجرى العدل بين الناس وتغير موازينه ، فتحق الباطل وتبطل الحق ، وتمهد للظلم في تضييع الحقوق ، وتحرم الكفاءات .

وهى كذلك إعانة للظالم على ظلمه ، وتفويت للحق على صاحبه ، وبها يقدم السفيه الخامل ، ويُبعد المُجدَّ العامل ، فهي قضية خطيرة ينبغي التصدي لها والأخذ بقوة على يد متعاطيها والمتعامل بها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

لقد غزت الرشوة جميع مجالات الحياة وذلك بسبب ضعف الوازع الديني والأخلاقي ، وموت الضمائر ، فإذا ماتت الضمائر خربت الذمم ،

وعمَّ الفساد ولا يبالي صاحب الضمير الميت أي شيء يأكله حلال أم حرام ، وهذا ما حذَّر منه النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث قَالَ: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنْ الْحَرَامِ) (صحيح البخاري) ؛ لذا وجب على كل أفراد المجتمع التصدي لهؤلاء المفسدين ، فالتصدي لهم فيه نجاة للمجتمع كله ، وإهمالهم وعدم التصدي لهم فيه الهلكة للمجتمع كله. والسكوت على الرشوة جريمة كبرى ومشاركة لفاعليها ، فينبغي علينا أن نأخذ على أيدي المرتشين ، ومعاقبتهم بالعقوبة الرادعة حتى يكونوا عبرة لغيرهم ، وفي الأثر: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) (البداية والنهاية) .

فحري بكل إنسان أن يكون يقظ الضمير ، مراقبًا لله (عز وجل) ، وأن يؤمن بأن ما كان له سوف يأتيه ، فإن الرزق مقدر ، غير أنه بالرشوة يستعجله بالحرام ، وفي الحديث : يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي ، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟) (صحيح مسلم)، هذا إذا كان المال حلالاً ، فكيف إذا كان حرامًا؟ ، فبالضمير الحي اليقظ ينضبط السلوك والتصرفات ، فتقوى الله ومراقبته والخوف منه والاستعداد للقائه أقوى في النفس من كل شيء ، فإذا همَّت نفس الإنسان بالحرام والإفساد في الأرض تحرك ضميره فيصده عن كل ذلك ويذكره بأن هناك من لا يغفل ولا ينام ، فيدرك أن الله معه حيث كان في السفر أو الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، وصدق الله حيث قال:{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الحديد: ٤] ، ويقول سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة : ٧].

ولا بد من تعاون الجميع في القضاء على الفساد ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم)، فاليد للحاكم أو السلطان ، واللسان للعلماء ، والقلب لعامة الناس ، إذ ينبغي أن تكون مواجهة الفساد بقوة وبلا أدنى هوادة مواجهة عامة وشاملة لكل ألوانه ، ولا سيما الرشوة والمحسوبية ، واستغلال النفوذ ، وأن نتعاون جميعًا في القضاء على الأدواء القاتلة ، والعمل على منع الفساد قبل وقوعه بالنصح ، وعدم المشاركة فيه أو الرضا به أو السكوت عنه بأي شكل من الأشكال .

* * *

خطورة الإسراف والتبذير

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[البقرة :١٤٣]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فإن الإسلام دين الوسطية والاعتدال ، والقسط والميزان ، وبهذه المبادئ تميز عن غيره من الأديان في كل نواحي الحياة ، في أحكامه وتوجيهاته ، ومواقفه في العادات والعبادات ، والمعاملات والتصرفات، والأخلاق والسلوك ، والعقل والفكر ، فالتوسط والاعتدال أصل من أصوله التَّشريعية ، ومبادئه الأساسية ، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة :١٤٣].

وكذلك من أصول الإسلام التشريعية أيضًا: حفظ الأمور الضرورية للنَّاس، وهي: الدِّين، والنَّفس، والمال، والعِرْض، والعقل، ومن هذا المنطلق جاءت النُّصوص الشَّرعية تحذِّر من الإسراف والتَّبذير، وتنْهى عن البخل والتَّقتير.

كذلك أكد الإسلام أن المسلم الحق معتدل في حياته ، ومقتصد في أموره كلها، لا إفْراطَ ولا تفرِيطَ ، لا غُلُو ولا مُجافَاةَ، لا إسراف ولا تقتير، لأنه ينطلق في ذلك من تعاليم الإسلام التي تأمره بالاعتدال والتوازن والاقتصاد في جميع الأمور، وتنهاه عن الإسراف والتبذير، فعَنْ عَمْرِو بْنِ

شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : "كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ" (مسند أحمد)، قال المناوي (رحمه الله تعالى): وهذا الخبر جامع لفضائل تدبير المرء نفسه ، فالإسراف يضر بالجسد والمعيشة، والخيلاء تضر بالنفس حيث تُكسبها العُجْب، وبالدنيا حيث تُكسب المقت من الناس، وبالآخرة حيث تُكسب الإثم (فيض القدير) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) : كُلْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ وَاشْرَبْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ (ذكره البخاري تعليقًا). ويقول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) : إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد . فالاقتصاد في الإنفاق طريق الغنى والسعادة والراحة ، ففي الأثر: مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ ، وفي الأثر أيضًا : من اقتصد أغناه الله ، ومن بذر أفقره الله .

كما مدح الله سبحانه وتعالى المحافظين على هذه الوسطية وهذا التوازن وعدّهم من عباد الرحمن الذين ينالون كل خير ويجزون الغرفة بما صبروا ، فقال سبحانه:{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان:٦٧].

إن الإسراف من أمراض هذه الأمّة ، وآفة من آفات العصر الحديث ، وداء فتَّاك يهدّد الأمم والمجتمعات، ويبدّد الأموال والثروات، وهو سبب للعقوبات والبليات العاجلة والآجلة، فالمسرف لا يَقدر نعمة الله حقَّ قدرها، فيتناول هذه النعمة بما ينبغي لها من المحافظة عليها، واستعمالها فيما خُلقت له، واستخدامها فيما يحبُّ الله تعالى ويرضى ، بالقصد وبالاعتدال

والتوسط ، دون إسراف ولا تقتير، فهذا هو شأن الإنسان المؤمن، وهذا ما أقام الله عليه الحياة، وأقام عليه هذا الكون ، كما قال سبحانه:{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}[الرحمن:٧-٩]، لا طغيان : لا تجاوز للحدِّ . ولا إخسار: لا نقص عنه ، ولا تطفيف فيه.

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام يسعى إلى إقامة اقتصاد دائم متين ، أساسه المعاملات الشرعية ، لذلك حرم كل ما من شأنه الإخلال بهذه المعاملات ، فنهى عن الإسراف والتبذير نهيًا شديدًا، فقال عزَّ من قائل: {كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف:٣١] ، وقال جلّ وعلا في ذمِّ المبذرين:{...وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[الإسراء: ٢٦-٢٧]، فالتبذير المنهي عنه إنفاق المال في غير حقه ، وتفريقه فيما لا ينبغي .

وفي تشبيه المبذر في هذه الآية بالشيطان في سلوكه السيئ ، وفي عصيانه لربه ، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التي يجب على العاقل أن يبتعد عنها ، حتى لا يكون مماثلاً للشيطان الجاحد لنعم ربه ، الكافر بها.

ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين؛ لأنهم ينفقون في الباطل، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية ، فهم رفقاء الشياطين وأصحابهم فالشيطان لا يؤدي حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين.

فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله ، حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله ، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، وانتشار الجرائم بكل أنواعها، بالإضافة إلى فساد القلوب والأخلاق ، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالتوازن والتوسط في النفقة ، فقال سبحانه:{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}[الإسراء:٢٩]، ويقول سبحانه: {والَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[الفرقان: ٦٧].

فالتوجيه القرآني يرشد الإنسان إلى أن يكون متوسطًا في أموره كلها، معتدلاً في إنفاق أمواله، بحيث لا يكون بخيلاً ولا مسرفًا ؛ لأن الإسراف والبخل يؤديان به إلى أن يصير مذمومًا من الخلق والخالق ، ومغمومًا منقطعًا عن الوصول إلى مبتغاه بسبب ضياع ماله، واحتياجه إلى غيره.

إن الناظر اليوم في أحوال كثيرٍ من الناس على اختلاف طبقاتهم يراهم قد بالغوا في الإسراف والتبذير في جميع شئون حياتهم وأمورهم، فإذا نظرنا إلى مظاهر الإسراف والتبذير في حياة الفرد والمجتمع نجدها كثيرةً ومتعددةً ، فنرى إسرافًا في الطعام والشراب مع أن الإسلام نهى أتباعه عن ذلك ، فقال تعالى :{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف:٣١]، وقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :" مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ، يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"(شعب الإيمان).

وكذلك نهى الإسلام عن الإسراف في الملبس بجانب الطعام والشراب ، بل نهى حتى عن الإسراف في الصدقات، فقال (صلى الله عليه وسلم) في حديث عمرو بن شعيب الذي ذكرناه آنفًا: " كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ" ، كذلك نرى إسرافًا في الولائم العامة والخاصة وذلك للتفاخر والتعاظم والتكبر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهِ الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ (صحيح مسلم)، وإسرافًا في الكماليات، فنجد أقوامًا من الناس يتباهون بكثرة الإنفاق ولو بالدَّين تكبرًا وتفاخرًا ، وإسرافًا في استخدام الماء ، حيث يستخدم بعض الناس الماء استخدامًا فيه سرفٌ شديد ، فإنهم يهدرون الماء في الحقول، وفي البيوت ، وفي المدارس، وفي الطرقات ، فيغسلون سياراتهم بخراطيم المياه دون ضابط، مما يسبب إهدارًا للماء وإفسادًا للطريق ، إنهم لايدرون أن الله تعالى سيحاسبهم على كل نقطة ماء يهدرونها ، فالماء أغلى ما في الحياة، بل هو الحياة، يقول الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[الأنبياء:٣٠].

فلنتق الله فيما أنزله الله تعالى من السماء طهورًا، وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن الإسراف في الماء حتى في الوضوء ، ففي سنن النسائي وابن ماجه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) توضأ ثلاثًا ثلاثًا ثم قال: "هَكَذَا الْوُضُوءُ فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ" (سنن النسائي)، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى

الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: "مَا هَذَا السَّرَفُ ؟ فَقَالَ : أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ" (سنن ابن ماجه).

وكذلك نجد إسرافًا في استخدام الطاقة ، فنرى الكثير من الناس يسرفون في استخدام الطاقة بسفه شديد أو بغفلة وعدم إدراك للأمور أو تكاسل أو نحوه ، بل إن بعضهم يسرقونها ، ويتهربون من سداد فواتيرها، وهذا محرم شرعًا ؛ لأن ذلك يعدُّ خيانة للأمانة ، وإهدارًا للمال العام، وإسرافًا في الشهوات والملذات ، ومنشأ ذلك كله الجهل والغفلة ، والبعد عن تعاليم الإسلام ، ومن ثمَّ فقد حرم الإسلام كل مظاهر الإسراف والتبذير وحياة الترف لما في ذلك من أضرار دنيوية وأخروية .

ولخطورة الإسراف والتبذير قرر الإسلام حكمًا شرعيًّا وهو : الحجر على السفيه ومنعه من التصرف في المال بكل أنواعه ، وجعل له وليًا يعطيه قدر حاجته ، فقال تعالى:{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}[النساء: ٥] فالآية الكريمة نهت الأولياء عن إعطاء السفهاء من اليتامى أموالهم التي جعلها الله مناط عيشهم، خشية إساءة التصرف فيها لخفة أحلامهم، والمراد بالسفهاء كل من لا يحسن المحافظة على ماله لصغره، أو لضعف عقله، أو لسوء تصرفاته سواء أكان من اليتامى أم من غيرهم.

والحجر ينقسم إلى قسمين: الأول: الحجر لحق الغير مثل: الحجر على المفلس فإنه يمنع من التصرف في ماله محافظة على حقوق الغير، فقد حجر الرسول (صلى الله عليه وسلم) على معاذ وباع ماله في دينه (سنن الدارقطني).

والثاني: الحجر لحق المال مثل: الحجر على الصغير والسفيه والمبذر والمجنون فإن في الحجر على هؤلاء مصلحة تعود عليهم وعلى المال بالحفظ، ذلك لأن المال إنما هو مال الله ، يقول سبحانه: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}[الحديد: ٧]، ويقول سبحانه: {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ } [النور: ٣٣]، فنحن مستخلفون فيما تحت أيدينا من أموال، فمن أحسن الاستخلاف كانت له حرية التصرف في ماله، ومن أساء الاستخلاف أو لم يكن أهلاً له وجب أن يكون له وليٌّ يحول بينه وبين الإسراف والتبذير .

وللإسراف والتبذير أضرار وخيمة على الفرد والمجتمع، حيث يؤدي إلى الاستخفاف بنعم الله والانغماس في الشهوات والأنانية وحب الثراء ونسيان المحرومين ، كما يؤدي إلى ظهور طبقة مترفة تعيش على الفواحش وتضييع الثروات واختلال التوازن في المجتمعات، فقد ذم الله تعالى الترف وعابه وتوعد أهله في كتابه ، إذ قال تعالى: { وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ}[الواقعة:٤١– ٤٥].

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن التبذير والإسراف يؤدي بصاحبه إلى إضاعة المال وتبديد الثروة ، فكم من ثروات عظيمة وأموال طائلة بددها التبذير وأهلكها الإسراف، وأفناها سوء التدبير، وقد نهانا الإسلام عن إضاعة المال والتخوض فيه بغير حق ، ففي حديث المغيرة (رضي الله عنه) قال: سمعنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثًا : قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ" (صحيح مسلم) ، وكذلك قال (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (صحيح البخاري).

والإسراف والتبذير هما من أسباب الضلال في الدين والدنيا، وعدم الهداية لمصالح المعاش والمعاد، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}[غافر:٢٨] ، وقال سبحانه: { أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْما مُسْرِفِينَ} [الزخرف : ٥]، وقال سبحانه : {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[يونس:١٢].

فالإسراف يحرم الإنسان محبة الله (عز وجل) اسمعوا قول الله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف:٣١]. وماذا يصنع من حُرِم محبة الله؟! وهل يفلح إنسان حرمه الله تعالى من محبته؟! إنه يعيش في قلق، ويعيش في اضطراب ، ويعيش في ألم نفسي، وإن أحاطت به الدنيا من كل جانب.

وكذلك الإسراف والتبذير من أقصر الطرق إلى جهنم ، قال تعالى: {..وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}[غافر:٤٣]. بل إن الإسراف والتبذير

يشكلان جريمة على العالم كله ويدفع ثمنها الضعفاء والفقراء ومتوسطوا الحال طيلة حياتهم ويرثها أجيالهم المستقبلية .

فالتاريخ والواقع ينبئان بالعلاقة الطردية بين مستوى الرفاهية والبذخ والترف الذي يعيش فيه الأفراد وبين معدلات الاندثار والهلاك التي يحتمل أن يصاب بها مجتمع ما ، فكلما زادت معدلات الإسراف والإنفاق زادت احتمالات السقوط والتردي الاجتماعي التي ربما أصيب بها المجتمع في مرحلة تالية، وهذه سنة كونية وشرعية لا تتبدل؛ قال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}[الإسراء: ١٦].

فالإسراف والتبذير طريق من طرق كفران النعمة ، يؤدي إلى الهلاك والتدمير ، قال تعالى : {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[النحل:١١٢] .

لأجل ذلك كان التحذير الشرعي المستمر من الإسراف والتبذير والترف، بل والحث على التقلل من مباهج الحياة الدنيا قدر ما يستطيع الإنسان، لكيلا تسيطر عليه شهواتها وملذاتها وتسيِّره حيث تشاء ، فيصير عبدًا لها ، فالأفراد يكتسبون قوتهم باستعلائهم على الشهوات والملذات واستغنائهم عنها.

* * *

استثمار الطاقات والإمكانات المعطلة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ العزيزِ : {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[هود:٦١]، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم وكرمه وفضله على سائر خلقه ، وهيأ الكون وسخر له ما فيه من شمس وقمر وبحار وأنهار قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [الإسراء:٧٠]، ومن مظاهر التكريم الإلهي للإنسان استخلافه في الأرض قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٣٠] ، ومنحه من الإمكانات التي تعينه على هذا الاستخلاف .

وحدد ربنا للإنسان مهمة عظيمة على الأرض بجانب مهمة العبادة وهي مهمة إعمار هذا الكون ، واستخراج كنوزه وخاماته ، قال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود:٦١] ، أي : طلب منكم عمارتها وإصلاحها ، والنظر فيما أودع فيها من خيرات وما قدر فيها من أقوات وأمره بالسعي والأخذ بالأسباب وعدم الركون إلى الخمول

والكسل، قال تعالى: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك : ١٥] ، فالرزق نتيجة للسعي والعمل والكد ، كما أن الفقر نتيجة للبطالة والكسل.

ولقد وهب ربنا سبحانه كل إنسان بمجموعة من المواهب والإمكانات كي يحقق بها مراد الله عز وجل ، وبقدر إخلاص الفرد المسلم واستثماره لهذه الإمكانات لصالح وطنه بقدر ما تكون الثمرة المرجوة خيرًا ورفاهية وسعادة للفرد وللمجتمع من حوله ، وهذا يعتبر مقياسًا جيدًا يستطيع المسلم أن يقيس به مدى صدقه وإخلاصه وتفانيه لنصرة هذا الدين ورفعة وطنه .

وفي القرآن الكريم صور مضيئة ونماذج طيبة لمجموعة من البشر أنعم الله عز وجل عليهم ببعض النعم ، فاستغلوها لخدمة أممهم ، ولم يجعلوها قاصرة على ذواتهم ، ولم يعطلوها ، فهذا نبي الله داود (عليه السلام) ألان الله له الحديد ، فاستخدم النبي الكريم هذه الطاقة في صناعة الدروع وملابس الحرب والعتاد العسكري ليجاهد في سبيل الله عز وجل قال تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) [الأنبياء: ٨٠].

وأعطى الله (عز وجل) سيلمان (عليه السلام) نعمًا كثيرة استطاع أن ينميها ويستثمرها في بناء حضارة لا زالت الدنيا تتحدث عنها محدثا دمجًا بين كل الطاقات إلى نجاح مبهر تحدث عنه القرآن حين وقف (عليه السلام) ينادي في الناس متحدثًا بفضل الله عليه : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [النمل: ١٦] ، سخر الله

(عز وجل) له الجن والطير والوحش ، فاستثمر هذه المواهب في مرضاة الله تعالى، واستثمر إمكانات الهدهد وهو أحد جنوده في إرسال الرسائل إلى ملكة سبأ ليدعوها إلى الحق ، واستثمر طاقة الجن في بناء الصرح الممرد من قوارير الذي بهر عين ملكة سبأ فأسلمت لما علمت أن مُلكها لا يساوي شيئًا بجانب ملك سليمان المؤيد من عند الله (عز وجل) حتى الشياطين استثمر سليمان (عليه السلام) طاقتهم ومواهبهم ، قال تعالى: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } [الأنبياء: ٨٢].

وهذا ذو القرنين الذي طوى الله له الأرض فكان لا يمر على أمة من الأمم إلا دعاهم بدعوة الحق قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً} [الكهف: ٨٣ـ ٨٤] .

ولما ورد على القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس وإخلادهم إلى الكسل وتعطيل الفكر وتبديد الطاقة وأصبح حالهم الضعف والمسكنة لا حول لهم ولا قوة اشتكوا إليه من ظلم يأجوج ومأجوج ، وإغارتهم عليهم وإفسادهم لأموالهم وزروعهم وأنفسهم فماذا قالوا : { قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}[الكهف :٩٤] ، فاكفنا شرهم يا ذا القرنين ولك الأجر والعطاء ، لكن المسلم الذي يندفع بروح الإسلام وقوة الإيمان والإخلاص لله سبحانه وتعالى لا ينتظر الأجر من البشر إنما ينتظره من رب البشر سبحانه

وتعالى ، فذو القرنين الرجل الذكي الذي آتاه الله من القوة والبصيرة قدرًا كبيرًا سلك بهم طريقًا يستثمر من خلاله طاقاتهم المهدرة ومواهبهم المعطلة وجعلهم يتعلمون كيف يعتمدون على أنفسهم ولا يعتمدون على غيرهم في قضاء مصالحهم فتحولوا بذلك أعوانًا له وليسوا عالة عليه .

إنهم كانوا في أمس الحاجة إلى من يملك إدارة استثمار مواردهم وطاقاتهم الموجودة بالفعل فيهم ، واستثمارها فيما ينفعهم ويصلحهم ويأخذ بأيديهم إلى المنعة والحصانة فضلًا عن التنمية والتقدم والرخاء.

وفي السنة الشريفة أيضًا ما يدل على أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان يستثمر الطاقات والمواهب والإمكانات لنصرة الدين ولرفعة شأن الوطن وتحقيق التنمية والرفاهية ، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأُعْجِبَ بِي فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَقَالَ: (يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي ، قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ) (سنن الترمذي) وفي رواية (قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تُحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ إِنَّهَا تَأْتِينِي كُتُبٌ ، قَالَ قُلْتُ : لَا ، قَالَ: (فَتَعَلَّمْهَا) فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا) ، وهكذا رأى النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ما يتمتع به هذا الغلام من الذكاء والفهم ما يستطيع من خلالهما خدمة دينه ووطنه ، فأمره أن يتعلم لغة اليهود قراءة وكتابة حتى يتمكن النبي (صلى الله عليه وسلم) من الرد على ما في كتبهم ورسائلهم.

وفي مجال القضاء على البطالة ومحاربة الكسل والدفع نحو العمل والإنتاج واستثمار المواهب والطاقات ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ، فَقَالَ : أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟ قَالَ : بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ : ائْتِنِي بِهِمَا ، قَالَ : فَأَتَاهُ بِهِمَا ، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ، وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟ قَالَ رَجُلٌ : أَنَا، آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، قَالَ : مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثًا ، قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِ ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ ، وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا ، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ : لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ (سنن أبي داود).

فهذا يُعد من أروع الأمثلة لاستثمار الطاقات المعطلة ، فالسائل رجل من الأنصار تبدو عليه علامات الاستطاعة والقدرة على العمل ، ولهذا لم يبح له الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) المسألة كما ذكر في آخر الحديث فهو ليس من الأصناف المذكورة التي يحل لها الصدقة، والرجل لم يكن في بيته إلا حلس هو فراشه وغطاؤه معًا ، وكوب يشرب

فيه الماء ، وهذان شيئان – بلا شك – ضروريان لكنهما إذا قيسا بالحاجة إلى الطعام كانت الحاجة إلى الطعام أولى ، ولهذا باعهما الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ليوفر له الأهم والأولى ، وكأن رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) يوجه رسالة إلى الأمة التي عطلت مواهبها وطاقاتها ، ويأمرها بالأخذ بكل وسائل القوة والعلم ويوجهها نحو الاستفادة المثلى من كل شيء يعود خيره ونفعه على الفرد والمجتمع .

وقد عقد النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) مجلس مزاد ليبيع ما يمتلكه الرجل ، وكان الثمن الفعلي للحلس والقعب درهما واحدا ، وكان يكفي لطعامه لأن الرسول أعطاه درهمًا واحدًا لطعامه وطعام أهله والدرهم الثاني وهو يمثل دعم المجتمع المسلم لهذا الرجل لينشئ منه ثروة وطاقة تخدم المجتمع أو على الأقل يحسن تجنيدها والاستفادة منها. والدرهم الثاني (والذي هو دعم من المجتمع للسائل) اشترى الرجل به القادوم وصار رأس مال هذا الذي جاء منذ قليل يسأل الناس، فاستثمر طاقاته وأصبح فردا صاحب مال لا صاحب يد تمد وتسأل الناس.

فكل إنسان عنده من المواهب والطاقات ما يغنيه – لو استثمرها – عن ذل السؤال ، قال تعالى:{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}[الليل: ٤] ، وعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) (متفق عليه) ، ومن أجمل ما قاله الإمام مالك (رضي الله عنه) في المسألة وهو يرد على عَبْد اللَّهِ بْن عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعُمَرِيّ العابد حين كَتَبَ إِلَى مَالِكٍ يَحُضُّهُ عَلَى الانْفِرَادِ وَالْعَمَلِ،

ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ : إِنَّ اللَّهَ قَسَّمَ الأَعْمَالَ كَمَا قَسَّمَ الأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ، وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الْجِهَادِ، ولم يفتح له في الصلاة ، وَنَشْرِ الْعِلْمِ وتعليمه مِنْ أَفْضَلِ أعْمَالِ البرّ، وَقَدْ رَضِيتُ بِمَا فَتحَ الله لِي فِيهِ من ذلك ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيهِ بِدُونِ مَا أَنْتَ فِيهِ ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ كِلانَا عَلَى خَيْرٍ وَبِرٍّ ، ويجب على كلِّ واحدٍ منَّا أن يرضى بما قُسِمَ له ، والسَّلام. (التمهيد لابن عبد البر) .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن الأمة اليوم لا ينقصها أعداد بشرية ، ولا موارد مالية ، ولا مساحات أرضية، ولا عقول فكرية ، ولا إمكانات تكنولوجية، إنما ينقصها : استثمار الطاقات وترشيد الموارد ، والمحافظة عليها ، وهذا ما كان يفعله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويوجه الأمة إليه فيستثمر كل شيء فيه نفع يعود بالخير على صاحبه ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : تُصُدِّقَ عَلَى مَوْلَاةٍ لِمَيْمُونَةَ بِشَاةٍ فَمَاتَتْ فَمَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: (هَلاَّ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ)، فَقَالُوا: إِنَّهَا مَيْتَةٌ. فَقَالَ: (إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا) (صحيح مسلم) .

فحينما ننظر في أحوال الأمة في هذه الأيام ندرك بعين البصر أنَّ الأمة تعيش أزمة طاقات مهدرة ، وجهود مبعثرة ، وإن الحديث عن طاقات الأمة، وعما تمتلكه من إمكانات لهو غاية في الأهمية فإعادة الثقة هي الأساس في تشييد البناء ، كيف لا ؟! ونحن أمة العلم والعمل ، والفقه والنضج، والتقدم والرقي، والحضارة فعلينا أن نستثمر ماضينا لبناء حاضرنا

ولعل من أسباب إهدار الطاقات ضعف التربية والبعد عن تعاليم الدين السمحة ، وإهمال المبدعين في كل المجالات .

ومن مظاهر تعطيل الطاقات تجاهلها والغفلة عنها متمثلة في الثروة البشرية الهائلة والعقول العلمية والقوة الشبابية . ولكن: ما هو الطريق لاستثمار هذه الطاقات والإمكانات المعطلة ؛ لنحقق من خلالها الرخاء لوطننا الغالي مصر ولأمتنا ؟

فعلينا الاهتمام بالطاقات والكفاءات الموجودة في كافة التخصصات العلمية والاقتصادية والثقافية ووضع الطاقة المناسبة في موطنها المناسب كما فعل يوسف (عليه السلام) بمصر وقت القحط لينجي أمته من هلاك محقق ، بعد أن أسند إليه ملك مصر إدارة هذه الأزمة لما رأى فيه من مواهب غير متحققة عند غيره ، {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥] .

وإننا لنؤكد على الاهتمام بما أودعه الله (عز وجل) في بلدنا من خيرات وموارد فنقوم باستثمارها خير استثمار ؛ ليعود أثر ذلك خيرًا وبرًا ونماء ورخاء على بلدنا الحبيب ، وما مشروع قناة السويس الجديد عنا

ببعيد الذي أثبت فيه المصريون بعد توفيق الله (عز وجل) أنهم قادرون على تخطي الصعاب والانطلاق نحو التقدم والازدهار .

* * *

إسهامات الشباب في الحضارة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه العزيز : {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الشباب هم القلب النابض والعمود الفقري لأي أمة من الأمم، فهم عماد حضارتها، وسر نهضتها، وأمل مستقبلها، لأنهم في سن البذل والعطاء، سن التضحية والفداء، فبعقولهم وبسواعدهم تتقدم المجتمعات، وهم القوة بين الضعفين ، ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، قال الله تعالى:{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم من ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم : ٥٤].

ولقد اعتنى الإسلام بالشباب عناية فائقة ، ووجههم للخير والبناء، والإصلاح والعطاء، فهم الثروة الحقيقية ، ومنبع القوة والعزة لأي مجتمع من المجتمعات ، وقد ذكر القرآن الكريم العديد من النماذج الشابة من الأنبياء والمرسلين ، وغيرهم من الصالحين ، ليكونوا قدوة صالحة لشباب المسلمين، وكذلك ربّى النبي (صلى الله عليه وسلم) جيلاً من شباب الصحابة الكرام الذين ضربوا أروع الأمثلة في البذل والعطاء ، والتضحية والفداء ، والعلم والعمل ، فكانوا خير قادة وأفضل سادة، ولقد صور القرآن الكريم هذه الحقيقة في قصة أصحاب الكهف، وهم شباب قاموا

داعين لتوحيد الله تعالى في مجتمع طغت فيه الوثنية ، وانتشر فيه الإلحاد ، قال تعالى :{إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}[الكهف: ١٣، ١٤]، ولفظ (الفتية) ينطبق على المرحلة الزمنية التي يطلق عليها مرحلة الشباب بكل خصائصها وسماتها، قال ابن كثير : (فِتْيَةٌ) وَهُمُ الشَّبَابُ، فهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ، وَأَهْدَى لِلسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ .

وإذا كان الإسلام قد اهتم بالشباب هذا الاهتمام ، وأولاه هذه العناية الفائقة فلا بد إذًا من الاستفادة من طاقاته ، وحسن توجيهها فيما يخدم بناء الوطن بناءً قويًّا اقتصاديًّا وثقافيًّا، حتى يستفيد منه المجتمع ، فهم عماد النهضات، وهم أهل العزائم والشجاعة والإقدام والتضحيات.

وهذا ما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كان يختبر ذكاء الشباب من صحابته ويعهد إليهم بما يتفق وإمكانات كل واحد منهم ، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رَسُول اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنَا بِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) هِيَ النَّخْلَةُ) (صحيح البخاري).

كما استفاد النبي (صلى الله عليه وسلم) من الشباب ، حيث جعل سيدنا مصعب بن عمير (رضي الله عنه) أول سفير في الإسلام ، وأَمَر أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) أن يتعلم السريانية فتعلمها في وقت

قصير ، فعنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، عَنْ أَبِيهِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، قَالَ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ قَالَ : (إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ قَالَ : فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ ، قَالَ : فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ). (سنن الترمذي).

ولقد رسم النبي (صلى الله عليه وسلم) منهجًا واضحًا في توجيه الشباب ممثلاً في ابن عمه عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) حيث قال: (يَا غُلاَمُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) (سنن الترمذي).

ولقد كان للشباب دور بارز في نشر الدعوة الإسلامية وبناء حضارتها ، وذلك لما لهم من خصائص عقلية، ونفسية، وجسمية، أهّلَتهم للقيام بهذه المهمة ، فإن عامة أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) كانوا من الشباب حين كذّبه معظم شيوخ مكة ، فهم الذين أحاطوا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) في نشر دعوته ، حتى أصبحوا من أكثر الرواة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى جاوزت مروياتهم ألف حديث لكل راوٍ وهو دون الثلاثين من العمر عند وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فكان أبو هريرة (رضي الله عنه) الذي روى (٥٣٧٤) حديثًا في نحو السابعة

والعشرين، وروى عبد الله بن عمر الذي (٢٦٣٠) حديثًا وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وكان أنس بن مالك (رضي الله عنه) الذي روى (٢٢٨٦) حديثًا في العشرين من عمره ، وروت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) (٢٢١٠) أحاديث وهي بنت ثماني عشرة سنة ، أمَّا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) الذي روى (١٦٦٠) حديثًا فلم يتجاوز عند وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الثالثة عشرة من عمره، وكان جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) الذي روى (١٥٤٠) حديثًا عنده حوالي سبع وعشرين سنة، وأمَّا سابعهم أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) الذي روى (١١٧٠) حديثًا فكان في نحو العشرين من عمره ، وتبعهم عبد الله بن مسعود الذي قاربت مروياته ألف حديث، وكان دون الأربعين عند وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم).

كما أن الشباب هم الذين ناصروه (صلى الله عليه وسلم) في جميع غزواته ، وهم الذين حملوا لواء الإسلام ومشعل النور في كل بقاع الأرض، فهذا أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يروي كلام النبي (صلى الله عليه وسلم)، فله مائة وثمانية وعشرون حديثا، ولقد ولاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إمارة الجيش وسنه دون العشرين، وفي الجيش أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وأكابر الصحابة (رضي الله عنهم أجمعين) ، وكان قوامه ثلاثة آلاف من أصحاب رسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فلما طعن بعض الناس في إمارته قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ ، فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ

أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ) (متفق عليه) وزاد في رواية مسلم – وأوصيكم به فإنه من صالحيكم) .

ولا ينكر أحد ما لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) من دور فعال في نصرة الإسلام وهو لا يزال شابًا يرقد في فراش النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الهجرة تمويهًا على المشركين، مع علمه بما يدبره المشركون لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فيضحي بنفسه وروحه في سبيل الله ، وعرّض نفسه للقتل ونقمة قريش، وكان عمره يومئذ ثلاثًا وعشرين سنة. وقد حمَّله النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ ذاك مسئولية ردّ الأمانات إلى أصحابها. وفي تلبيته (رضي الله عنه) أمْرَ النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلا للجندي الصادق المخلص لدعوة الإسلام ، حيث فدى قائده بحياته ، ففي سلامة القائد قوة الدعوة ، وفي هلاكه وهنها.

جدير بالذكر أن الشباب قد أسهم إسهامًا عظيمًا في بناء الحضارة الإسلامية منذ عصر النبوة من خلال تعلم العلوم الشرعية ونشر العلم النافع في كل مجالات الحياة ، فكان أكثر فقهاء الصحابة من الشباب ، حيث برز منهم العالم، والفقيه ، والمحدث ، والمفتي، وفي مقدمتهم عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) الذي كان أكثر الصحابة فتوى وأوسعهم فقهًا، حتى كان عمر (رضي الله عنه) يجلسه وهو شاب صغير مجالس الكبار من أهل بدر وغيرهم، ويقول: إن له لسانًا سؤولاً وقلبًا عقولاً، والذي جمعت فتاواه فبلغت سبعة أسفار كبار، وتبعه في الفقه وكثرة الفتوى عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)، وقد كانا من شباب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، فإذا نظرنا إلى المشهورين بالعلم والفقه من غيرهم رأينا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) الذي كان ابن بضع وعشرين

حين أرسله النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى اليمن مفتيًا وقاضيًا، وكان حين أسلم ابن ثماني عشرة سنة، وشهد بيعة العقبة وهو شاب أمرد ، ووصفه النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه أعلم الأمة بالحلال والحـرام ، وكان أحـد المفتيـن في حيــاة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأحد حفظة القرآن كاملاً في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم).

ومن هؤلاء الفقهاء: زيد بن ثابت، الذي وصفه النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه أفرض المسلمين، يعني أعلمهم بالفرائض، الذي أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة، والذي بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) ليتعلم لغة اليهود ليقرأ له كتبهم، فتعلمها في سبع عشرة ليلة، وكان أحد الذين حفظوا القرآن الكريم كله في حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ثم حمَّله أبو بكر وهو ابن إحدى وعشرين سنة مسئولية جمع القرآن ، وهي من أخطر المهام على الإطلاق ، فكان أحق بها وأهلها، وكان أحد المفتين من الصحابة ، وأمَّا فقيهة النساء عائشة، فكانت في الثامنة عشر من عمرها حين توفي النبي (صلى الله عليه وسلم)، وقد كان الصحابة يرجعون إليها فيما أُشكل عليهم، وما سألوها عن شيء إلا وجدوا عندها منه علمًا، وغير هؤلاء كثير من شباب الصحابة الذين اشتغلوا بالعلم منذ حداثة أسنانهم، فاستنارت بهم الأمة في شئون دينها ودنياها، وازدهرت بهم الحياة.

وفي العلوم الدنيوية : حث الإسلام على الأخذ بكل علم نافع ، فقد اهتم عدد كبير من الشباب المسلم بالرياضيات لتحديد المواقيت واتجاه القبلة ، أشهرهم الخوارزمي واضع علم الجبر، وعلم الهندسة ، واهتموا

بالطب والجراحة، وبنى المسلمون المستشفيات وأتقنوا علم الجراحة والصيدلة منهم : الرازي وابن سينا وابن النفيس ، واهتموا أيضا بعلم الفيزياء كابن الهيثم خاصة في علم البصريات ولا تزال نظرياته تدرس إلى الآن ، واهتموا بعلم الفلك لفهم بعض آيات القرآن وصنعوا المراصد الجوية لتتبع حركات النجوم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إذا كان للشباب الدور الأبرز في الحضارة الإسلامية ، فلا شك أن لهم دورًا مهمًا في الحفاظ على الفكر الوسطي المعتدل للإسلام ، فالإسلام دين السماحة، والوسطية ، ولا علاقة له بالإرهاب ، والتطرف والتشدد ، ولا سيما أن شريعته السمحة قد جاءت لما فيه صلاح العباد والبلاد، وبما يحقق للفرد وللأسرة وللمجتمع السعادة والأمن والاستقرار، مما يؤكد أن الجماعات الخارجة التي جعلت القتل والعنف ديدنها خارجة عن الدين الإسلامي، فهم امتداد للخوارج الذين استحلوا الدماء والأموال وعاثوا في الأرض فسادا، والإسلام منهم براء.

ولا شك أن على الشباب الآن الدور الأكبر تجاه حاضر الوطن ومستقبله ، فعلى الشباب الآن بصفة خاصة أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة،

حتى يكونوا أقوياء في مواجهة التحديات ، وأن يطلبوا العون والمدد من الله تعالى ولا يتعجلوا النتائج، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)(صحيح مسلم).

وعلى الشباب أن يتمسك بالفكر المعتدل النابع من الفهم الصحيح للإسلام ، وأن يكون له شخصيته المتميزة ، حتى يكون مؤهلا لحمل الرسالة ، وتأدية الأمانة ، وقيادة سفينة النجاة لإنقاذ الأمة من حيرتها ومن تخبطها ، والوصول بها إلى طريق الرشاد والأمن والسعادة والاستقرار والتقدم وعلى الشباب أن يتحلى بروح المبادرة إلى الخير والعمل الصالح، فقد كان الصحابة يبادرون ويتسابقون إلى فعل الخيرات، فمن ذلك ما قاله عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) ، قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ) (سنن الترمذي). فالمراد خلق روح التنافس

بين الشباب بصفة خاصة وبين الناس بصفة عامة على التسابق في أوجه الخير ، قال تعالى :{ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}(البقرة:١٤٨).

كذلك على الشباب أن يحسنوا توظيف طاقاتهم ، فلديهم طاقات هائلة لو أحسنوا استثمارها، ووجَّهوها إلى أبواب الخير ، وميادين الإصلاح والتنمية ، لكانت سببا في رقي المجتمع وتقدمه وتحضره، فالإسلام لا يقبل أن يعيش الشباب عالة على المجتمع ، بل دعا الشباب إلى العمل والإنتاج ، فعن كَعْبِ بن عُجْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَجُلٌ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) (المعجم الكبير).

وقد عمل النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في صباه برعي الغنم ، كما عمل في شبابه بالتجارة في مال السيدة خديجة (رضي الله عنها) ، فهل لشبابنا أسوة وقدوة في رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ؟ ، وبخاصة في اغتنام شبابهم في الخير ، فعنَ مُعَاذِ بن جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لا تَزُول قَدمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟) (سنن الترمذي) .

كذلك على الشباب أن يحسنوا استثمار الوقت، فالوقت أمانة سَنُسأل عنها يوم القيامة حتى إن الأسئلة الأربعة التي توجّه إلى المكلف يوم القيامة يخص الوقتَ منها سؤالان رئيسان ، فالإنسان يسأل عن عمره عامة، وعن شبابه خاصة ، والشباب جزء من العمر ولكن له قيمة مميزة باعتباره سن الحيوية والنشاط والقوة فعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ (رضى الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) (سنن النسائي) ، فالوقت نعمة لا يعرف قيمتها إلا الموفقون فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ) (صحيح البخاري) .

وقد حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) الشباب على فعل الخير والطاعة ، وبيَّن لهم فضل العبادة ، لا سيما في مرحلة الشباب ، حيث يظلهم الله في ظله، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضى الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ....) (متفق عليه) كذلك على الشباب أن يناهضوا الفكر المتطرف والبعيد كل البعد عن الفكر الإسلامي المستنير، فبدلا من أن يكونوا حقلا لتجارب من لا علم لهم ولا دين ، عليهم أن يكونوا جنودا أوفياء لدينهم ، فيتسلحون بالعلم والفهم المستنير لدينهم.

إننا في حاجة إلى أن نعيد تأهيل الشباب تأهيلاً مبنيًّا على العلم والدين الصحيح، ودفعه إلى العمل والإنتاج والابتكار بعيدًا عن تلك

الثقافات التي تسربت إلى أخلاقيات المجتمع عامة والشباب خاصة ، وأن نغرس في نفوس الشباب احترام الآخر .

كما أنه لن ينهض مجتمع إلا بالتعاون المثمر القائم على المحبة والمودة والاحترام الكامل بين الشباب والشيوخ ، حيث يفيد الشباب من حكمة وخبرة الشيوخ ، ويفيد الشيوخ من طاقة وقوة الشباب، فيوجه كل واحد منهما عِلْمَه وتجربته إلى ما يعود نفعه خيرًا على الوطن والمواطنين.

❊ ❊ ❊

الضوابط الشرعية للإنجاب
وحق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}[الأحقاف: ١٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فقد اهتم الإسلام ببناء الأسرة اهتمامًا كبيرًا ، واعتنى بها عنايةً فائقةً تليق بدورها في إعمار الأرض، وبناء المجتمع، واستقرار الأوطان وتنميتها ، وإن من مظاهر هذا الاهتمام ، ودلائل تلك العناية أن شرع الله (عز وجل) الزواج ، وجعله آية من آياته؛ ليكون طريقًا شرعيًّا لبناء الأسرة في صورة تليق بكرامة الإنسان ، وتتوافق مع فطرته السليمة ، قال تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١].

وإن من مقاصد الزواج وأهدافه – بعد شكر نعمة الله (عز وجل)–، بقاء الجنس البشري بالإنجاب والتناسل، قال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النساء: ١] ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم)، ومبينًا أن الزواج وطلب الذرية سنة الأنبياء (عليهم السلام) من قبله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: ٣٨].

ولا شك أن الأبناء نعمة من أجَلِّ نعم الله (تعالى) على الإنسان ، فهم هبة الله وعطيته ، يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: ٤٩، ٥٠] ، ويقول سبحانه:{المال وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا}[الكهف: ٤٦] ، ولقد ذكر لنا القرآن الكريم في غير موضع طلب الأنبياء والصالحين للذرية ورغبتهم فيها، فهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه قائلًا: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}[الصافات: ١٠٠] ، وهذا زكريا (عليه السلام) يدعو ربه راجيًا: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}[آل عمران: ٣٨]، وإن من صفات عباد الرحمن أن يتضرعوا في دعائهم قائلين: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}[الفرقان: ٧٤].

والمتدبر في هذه الآيات يرى أن طلبهم ودعاءهم كان مقيّدًا دائمًا بطلب الذرية الصالحة النافعة المباركة؛ لأن الغاية والهدف من الإنجاب والتناسل ليس الكثرة والعدد، وإنما العطاء والصلاح ، فكم من قلة يُرجى خيرها وبركتها ، وكم من كثرة لا خير يُرجى منها، ولا بركة تُنتظر ، وهذا مبدأ عام أقره القرآن الكريم في قوله تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

ولقد راعى الإسلام في تشريعاته وأحكامه الضوابط والتوجيهات التي من شأنها أن تحفظ حقوق الطفل ، وتجعله ينشأ نشأة كريمة ، ويلقى

رعاية كاملة في جميع مراحل حياته بداية من اشتراط الباءة في النكاح، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (متفق عليه) ، مع بيان أنَّ (البَاءة) المعتبرة في النكاح – فضلًا عن القدرة البدنية– هي القدرة التامة على بناء أسرة مستقرة، والوفاء بحقها ، وليس مجرد القدرة الجسدية ، وإلا لما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ)، فالخطاب بهذه الجملة موجه لمن يمتلك قدرة جسدية، ولا يستطيع الوفاء بسائر الجوانب الأخرى المطلوبة لإقامة أسرة سوية، بما في ذلك النفقة والسكن والقدرة على تربية الأبناء.

* وإن من أهم مظاهر رعاية الإسلام للطفل أن كفل له حقه في الرضاعة الطبيعية حولين كاملين دون أن يزاحمه طفل آخر خلال تلك المدة ؛ حفاظًا على حقه في التغذية الصحيحة السليمة التي من شأنها أن تساعد على بناء جسده بناءً قويًّا حتى ينمو في صحة جيدة ، فقال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}[البقرة: ٢٣٣]، وفي ذلك تأكيد على ضرورة أن يكون هناك تنظيم بين الحمل والآخر ، فالإرضاع حق للطفل ، حتى إن الفقهاء اعتبروا أن الحمل الذي يحدث في وقت الإرضاع إنما هو جَوْرٌ على حق الطفل الرضيع ، بل جَوْر على حق كل من الرضيع والجنين ، فسموا لبن الأم آنذاك لبن الغِيلة ، وكأن كلا من الطفلين قد اغتال أو اقتطع جزءًا من حق أخيه ، مما قد يعرض الطفلين (الرضيع ، والجنين) لمشاكل

في النمو ، قد تصاحبهما أو تصاحب أحدهما طوال حياته أو جزءًا منها ، إضافة إلى المشكلات الأسرية التي قد تنتج عن تلاحق عمليتي الحمل والإرضاع ، فالحمل والإرضاع المتتابعان قد يكون لهما أثر سلبي كبير في تدهور العلاقة داخل الأسرة بين الزوجين ، وانعكاس سلبي على حياة الأطفال وعدم القدرة على الوفاء بحقوقهم .

وعليه فالأولى أن يأخذ كل طفل حقه في مرحلتي الحمل والإرضاع ، وكذلك في التربية السوية ، مع ضرورة الوفاء بحقه في المطعم والملبس والصحة والتعليم ، وقد أجاز النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه العزل، وهو أحد وسائل تنظيم النسل، ويقاس عليه كل ما يستحدث من الوسائل الصحية الآمنة الميسرة طبيًّا .

إنَّ التقصيرَ في حق الأبناء، وعدم الوفاء بواجباتهم في التربية يعدُّ ظلمًا لهم، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يوضح لنا أننا مسئولون عن أبنائنا الذين هم أمانة في أعناقنا ، فيقول (صلى الله عليه وسلم) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ) (السنن الكبرى للنسائي)، وفى رواية: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ) (مسند أحمد)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه).

قد يظن البعض توهمًّا أن الحديث عن تنظيم العملية الإنجابية يقتصر فقط على الجوانب الاقتصادية وما يترتب عليها من آثار سلبية، ولكننا نؤكد أنه إلى جانب هذه الآثار الاقتصادية هناك آثار صحية ونفسية وأسرية ومجتمعية يمكن أن تنعكس على حياة الأطفال والأبوين والأسرة كلها ، ثم المجتمع ، فالدولة ، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب ، إنما قد تشكل ضررًا بالغًا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلم في معالجة قضاياها السكانية ؛ لذا فإننا نؤكد أن تصحيح المفاهيم الخاطئة فيما يتصل بالقضايا السكانية يدخل في صميم تجديد وتصويب الخطاب الديني وتصحيح مساره .

ومن هذا المنطلق يمكننا فهم حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي حثَّ فيه على طلب الذرية ورغب فيها بقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (مصنف عبد الرزاق) ، وفي رواية قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تزوجوا الوَدُودَ الوَلُودَ فإني مكاثِرٌ بِكُمُ الأمم) (سنن أبي داود) فالمباهاة في الحديث ليست بالكثرة المستهلكة الضعيفة، التي تصبح عالة على الآخرين في طعامها وكسائها ودوائها ، جاهلة متخلفة تعاني الفقر والمرض والتخلف بكل أنواعه العلمي والثقافي والحضاري ، فهذه كثرة سلبية تضر ولا تنفع، وتفسد ولا تصلح ، عبر عنها النبي (صلى الله عليه وسلم) بغثاء السيل، بقوله: (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا) فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ : (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ،

وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ)، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ : (حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) (سنن أبي داود) ، وإنما المباهاة في الحديث الشريف تكون بالكثرة القوية ، المؤمنة ، الصالحة ، النافعة ، العاملة ، المنتجة ، الملتزمة أمر ربها وسنة نبيها (صلى الله عليه وسلم) التي يقول فيها : (الْمُؤْمِنُ الْقَوِي خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيف...) (صحيح مسلم)، إنها القوة التي تكون في العقل والفكر ، والثقافة ، والمستوى الإيماني ، والتعليمي ، والاقتصادي ، والعسكري، فالكثرة العددية القوية هي التي تحتاج إليها الأمم حين تكون مواردها الاقتصادية متسعة وتنقصها الأيدي العاملة أو القوى البشرية التي تحافظ على ثرواتها ، وتحمي مقوماتها الاقتصادية ، وحدودها ، ومواردها الطبيعية ، هذه الكثرة هي التي يمكن أن نباهي بها الأمم في الدنيا ، وأن يباهي نبينا (صلى الله عليه وسلم) بها الأمم يوم القيامة .

ولقد جاءت الآثار عن بعض الصحابة (رضوان الله عليهم) بما يدل على فهمهم لهذا المعنى من كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد رُوِيَ أن سيدنا عَمْرو بن الْعَاصِ (رضي الله عنه) عندما فتح مصر خطب فيهم قائلًا: (يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، إِيَّايَ وَخِلَالًا أَرْبَعًا، فَإِنَّهُنَّ يَدْعُونَ إِلَى النَّصَبِ بَعْدَ الرَّاحَةِ ، وَإِلَى الضِّيقِ بَعْدَ السَّعَةِ ، وَإِلَى الْمَذَلَّةِ بَعْدَ الْعِزَّةِ، إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْعِيَالِ، وَإِخْفَاضَ الْحَالِ، وَالتَّضْيِيعَ لِلْمَالِ، وَالْقِيلَ بَعْدَ الْقَالِ ، فِي غَيْرِ دَرَكٍ وَلَا نَوَالٍ) (شرح مشكل الآثار) ، وفسر ابن عمر (رضي الله عنهما) : (جُهْدُ البَلاءِ بكَثْرَةُ العِيالِ مَعَ قِلَّةِ الشَّيءِ) (تاريخ نيسابور للحاكم) .

وعلى هذا فإننا نؤكد أن تنظيم الأسرة ضرورة شرعية ووطنية ، وأمر مباح يصل في واقعنا المعاصر ، وحالنا الراهن إلى حد الضرورة الواجبة لبناء جيل قوي مثقف قادر على بناء الحضارة ، ونهضة البلاد ، بفكرٍ واعٍ وعقلٍ مستنيرٍ ، يقدر معنى المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ، وأفضل صورة .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

إن من مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: الأمر بالإحسان إليهم والرحمة بهم ، وحسن رعايتهم ، فمن المقرر شرعا أن الرفق لا يأتي دائما إلا بكل خير ، فالقسوة والغلظة في التربية وتقويم سلوكيات الطفل تؤدّيان في أغلب الأحوال إلى نفوره من المربّي ، وبغضه ، وعدم الانصياع لكلامه ، وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يحمل الحسن والحسين (رضوان الله عليهما) على كتفيه ويلاعبهما ، ويقبلهما ، وكان منهجه (صلى الله عليه وسلم) في التربية هو اللين والرفق ، فعن أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ) (متفق عليه) ، وعن ابْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ

أَبِيهِ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ إِذْ أَقْبَلَ حَسَنٌ، وَحُسَيْنٌ ، وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ فَحَمَلَهُمَا، ثم قَالَ: (صَدَقَ اللهُ {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن : ١٥]، إِنِّي رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَمْشِيَانِ، وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا) (سنن النسائي)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنِ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) (سنن الترمذي)، وقال (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) : (وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ) (متفق عليه) .

* ومن مظاهر رعاية الإسلام للأطفال: الأمر بالعدل والمساواة بينهم جميعًا، وقد وجه النبي (صلى الله عليه وسلم) الآباء والأمهات لهذا المبدأ وضرورة الالتزام به ، بل وقرن الأمر به بالأمر بتقوى الله (عز وجل)، فعَنْ عَامِرٍ ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ : (أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟) ، قَالَ: لاَ ، قَالَ: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ)، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ. (متفق عليه).

ومن العدل والمساواة عدم التفرقة في المعاملة بين الذكر والأنثى؛ حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كانَتْ لَهُ أُنثَى فَلَمْ يَئِدْهَا، ولم يُهِنْهَا، ولم يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عليها أدخلَه اللَّه الجنة) (سنن أبي داود).

لقد كانت تلك بعض الضوابط والتوجيهات التي وضعها الإسلام حماية للأطفال ورعاية لهم ؛ لينعموا بحياة كريمة ، فهم شباب المستقبل ، وأمل الأمة المرتقب ، فعلينا أن ندرك جميعًا حجم مسئوليتنا تجاه أبنائنا ، وأن نقوم بها خير قيام ، وأن نعلم أننا مسئولون عنها أمام الله (عز وجل) يوم القيامة .

* * *

أخلاق الإسلام في التعامل مع الضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم :{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[الضحى : ٧-٩]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، **وبعد:**

فإن الإسلام دين الرفق والرحمة والمحبة والمودة، يجعل لجميع الفئات والطوائف فى المجتمع حقها فى العيش الكريم والحياة السعيدة، ويراعى فيه الضعيف قبل القوى والصغير قبل الكبير، والمريض قبل الصحيح، بل إن شئت فقل يراعى حق الحيوان، فذاك ما يتضح من توجيهاته وتعاليمه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْض" (صحيح البخاري) ذلك لأنّ رحمة الله (عزَّ وجلَّ) وسعت كلّ شيء، قال تعالى:{...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: ١٥٦].

وتتجلى الرحمة فى تشريعات الإسلام التى من أهمها مراعاة الفئات الضعيفة التى لا تقوى على قضاء حوائجها، أو السعى فى مصالحها ، وهى فئات مهمة فى المجتمع لا يمكن أن يغفلها، لأنّ الإسلام لا يعرف ما

يسمى بالفئات المهمشة ، فالجميع فيه سواء الرّجل والمرأة ، الصغير والكبير، الغني والفقير ، إنه دين يُحدث التكامل ويقيم التوازن بين أفراد المجتمع ، فينعكس أثر ذلك على المجتمع بأسره حبًّا وحنانًا ومودة وسعادة.

وحين يعطي الإسلام الضعفاء مزيدًا من الرعاية والعناية، فإن ذلك في مصلحة الأقوياء والأصحاء والأغنياء إذ يزول الحقد والحسد والمرض النفسي، وتعمُّ روح الوئام والسلام، ويظهر المجتمع بصورة ترضي الله (عز وجل) وتستوجب رحمته، فالخير والبركة لا تحلُّ إلا بسبب مراعاة هؤلاء الضعفاء والقيام على قضاء حوائجهم، فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: رَأَى سَعْدٌ بن أبى وقاص (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ) (صحيح البخاري)، وهذه حقيقة يؤكدها النبي (صلى الله عليه وسلم) مبينًا فضل هؤلاء الضعفاء أطفالًا كانوا أو مرضى أو شيوخًا أو فقراء أو نساءً، فلقد جعلهم الله تعالى محل نظره وسبب رحمته، فمن أرضاهم رضي عنه، ومن أغضبهم أو انتقصهم حقوقهم وقدرهم غضب عليه .

وقد وصف الله (عز وجل) حالهم وبين قدرهم، فهم مع ضعفهم يتمنّى أحدهم لو يجد ما يُسهم به في خدمة دينه ووطنه، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قول الله تعالى : {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[التوبة: ٩١ – ٩٢] .

فإذا كان هذا حالهم وحال الخالق معهم، وإذا كانت هذه مكانتهم عند الله (عزَّ وجلَّ) فكيف بنا معهم ؟ لننظر كيف كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتعامل مع هؤلاء الضعفاء، لا سيما وقد عاتبه الله (عز وجل) في القرآن الكريم في أحدهم وهو : عبد الله بن أم مكتوم – كان كفيف البصر – أتى رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة، يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى، وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت الآيات من قول الله تعالى :{عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ١-١٠]. فكان رسول الله (صلّى الله عليه وسلم)، يكرمه ويقول إذا رآه: "مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي» ويقول: «هل لك من حاجة(.تفسير ابن كثير- تفسير روح المعاني)

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يسعى في قضاء حوائج هؤلاء الضعفاء، ويزور مريضهم ويخفف من آلامهم، ويطعم جائعهم ، ويقضي عن غارمهم ، ويهش ويبش لهم ويرحمهم، فمن أحسن إلى الضعفاء زاد قربًا من رحمة الله (عز وجل)، قال تعالى : {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف: ٥٦]، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يفعل هذا

معهم والسعادة تَغْمُر قلبه والرحمة تملأ حنايا صدْره ، فعن يَحْيَى بْنِ عُقَيْلٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى يَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُكْثِرُ الذِّكْرَ، وَيُقِلُّ اللَّغْوَ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيُقَصِّرُ الْخُطْبَةَ، وَلَا يَأْنَفُ (يستكبر) أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ، وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ». (سنن النسائي) ويبين ثواب من سعى في خدمة هؤلاء الضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة ، فَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ" (متفق عليه) فيا له من ثواب جزيل وفضل عظيم لمن فَعَل فِعْل المصطفى واقتفى أثر المُجتبى (صلى الله عليه وسلم).

ولننظر كيف يحافظ الإسلام على حقوق هؤلاء الضعفاء الذين كرمهم الله (عز وجل) ورفع قدرهم؟ إن الإسلام ينظر إلى هذا العجز أو المرض على اختلاف أنواعه ومقداره على أنه ابتلاء من الله (عز وجل)،لابد أن نتلقاه ونتقبله بالرضا والصبر والدعاء فهو منحة من الله يرفع بها المؤمن ويكفِّر بها من خطاياه ، قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[الحديد: ٢٢، ٢٣] وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: "مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ" (صحيح البخاري) ومن ثمَّ فمن ابتلى في ولده أو أهله أو نفسه

بشيء من ذلك فليوقن تمام اليقين أن هذا من الله رحمةً به ومنحةً إليه، وليصبر وليتعلم كيف يتعامل مع الابتلاء وكيف يحافظ على حقوق الضعفاء.

والحذر كل الحذر من السخرية والاستهزاء بمن كان هذا حاله فقد قال الله (عز وجل): {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الحجرات: ١١] فيحرم التعرض لهم بنظرة تحمل ازدراءً، أو بقول ينال من حالتهم، أو بعمل ينتقص من حقهم ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ" (متفق عليه ، واللفظ لمسلم) .

إنّ المسلم صاحب أدبٍ وخلقٍ جمّ يحسن فى معاملة الناس جميعًا ويتأدب في تعامله مع أحبابه من ذوي الاحتياجات الخاصة أو الضعفاء، ولقد علمنا الإسلام ماذا نقول إذا رأينا من ابتلى ببلاء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " مَنْ رَأَى مُبْتَلًى، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلَاءُ " (سنن الترمذي) وإنّ هذا من

شكر الله تعالى على نعمه ولنعلم أن الصحيح قد يمرض وأن الغني قد يفتقر وأن الحيَّ سيموت ، وكل شيء عند الله بقدر .

ومن حقوق الضعفاء التي كفلها لهم الإسلام توفير الحياة الكريمة في المأكل والمشرب والمسكن، وتوفير دور الرعاية الصحية والاجتماعية لهم، ومن المعلوم أن نسبة العجز تختلف بين هؤلاء فلنُنَمِّ فيهم الطاقات الكامنة ولنوظفها في محلها، فمنهم من يقدر على عمل إبداعي فكري، ومنهم من يقدر على عمل رياضي بدني ، فهو إذا شارك الناس فيما يقدر عليه ووجد لمسة حانية ممن حوله، خفّ عنه الألم النفسي، وأحسّ بأنه جزء من مجتمع يحبه ويحافظ عليه.

ومن حقوق الضعفاء الحفاظ على أموالهم إن كانوا يتامى قد فقدوا الآباء، فقد أمر الإسلام الأوصياء، وكل من له صلة قرابة بيتيم أن يحسن إليه ويقوم على شئونه والقيام باحتياجاته ورعاية أمواله إن كان من ذوي الأموال كما قال تعالى عن هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى أو يهملونها أو يستغلّونها في مصالحهم الشخصية، وخاصة في معاملة اليتيمات:{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا}[النساء: ١٢٧] والقسط هو العدل، وهو يقتضي ممن قام على مصالح اليتيم أن يتقي الله فيها ويرعاها كما يرعى ماله ، وقال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[البقرة: ٢٢٠] فهذا توجيه من الله (عز وجل) برعاية اليتيم وإصلاح ماله وحاله سواء كان هذا اليتيم قريبًا أو غريبًا، ولو تأملنا الآية ونظرنا على وجه التحديد في موقع كلمة (إصلاح) ثم فكرنا في بدائلها اللغوية وما يرادفها وحاولنا أن نضع لها أي بديل لغوي- رأسيًّا أو أفقيًّا- في موضعها لوجدنا أن العربية فى عمقها واتساعها عاجزة عن أن توافينا بكلمة تقوم مقام كلمة (إصلاح) في هذا الموضع ، فالإصلاح أمر جامع لما يحتاج إليه اليتيم ، فقد يحتاج إلى المال فيكون الإصلاح برًا وعطاءً ماديًّا ، وقد يحتاج إلى من يتاجر له في ماله أو من يقوم على زراعته ، أو صناعته ، فيكون الإصلاح هو القيام بذلك كما قال عمر بن الخطَّاب (رضي الله عنه): "ابتغوا بأموال اليتامى، لا تأكلها الصَّدقة " (السنن الكبرى للبيهقى) ، وقد لا يحتاج اليتيم إلى المال ، وإنما يحتاج إلى التقويم والتربية فيكون الإصلاح هنا رعايةً وتربيةً ، وقد لا ينقصه هذا ولا ذاك ، وإنما تكون حاجته إلى العطف والحنو والإحساس بالأبوة، فيكون الإصلاح إشباع ذلك عنده،

ولأجل هذا كان ترغيب النبي (صلى الله عليه وسلم) في كفالة اليتيم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ" وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى (صحيح مسلم) وكان التحذير الأكيد والوعيد الشديد فى قول الله تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}

[النساء: ٩، ١٠] ، وبهذا لا يترك الإسلام اليتامى نهبًا للأوصياء أو الطامعين أو مستغلي حالِ ضعفهم، وإنما يشدّد على حفظهم وتعهدهم بالرعاية والعناية ، لئلا تضيع حقوقهم وتُهْمَل تربيتهم، فنجد المجتمع يعاني من ظواهر سلبية كأطفال الشوارع والعاطلين والمتسوّلين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

لقد راعى الإسلام حقوق الضعفاء على اختلاف أنواعهم وتباين أسباب ضعفهم، ما بين مريض ، أو فقير ، أو يتيم ، أو امرأة ، أو أي من ذوي الاحتياجات الخاصة ، وعلَّمنا كيف نتعامل معهم ونراعي شعورهم ، والعمل على توفير الملاذ الآمن لهم .

كما يراعي الإسلام حقوق المرأة في كل مراحل عمرها ويؤكد عليها فهي إن كانت طفلةً صغيرةً يصونها ويحافظ على حقها في الحياة والتربية والرّعاية مثل الذَّكَر سواءً بسواء، حتى في الفرحة بمجيئها إلى الحياة ، بعد أن كانوا في الجاهلية يحرمونها حق الحياة ، قال تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [النحل: ٥٨، ٥٩] بل يجعل الإحسان في تربيتها طريقًا إلى مرضاة الرحمن وصلتها صلة لله رب العالمين ، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو

(رضـي الله عنهمـا) يَرْفَعُـهُ إِلَـى النَّبِـيِّ (صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) قَـالَ: "الرَّاحِمُـونَ يَـرْحَمُهُمُ اللَّـهُ ارْحَمُـوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَـرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ الرَّحِمُ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ"(المستدرك للحاكم)

والمرأة إن كانت زوجة فحقها على زوجها العشرة بالمعروف والإحسان إليها فإن كرهها فلا يظلمها، ولا يبخسها حقها، وقدرها فلا يدري أين يكون الخير، كما قال القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩] والعشرة بالمعروف من القوامة الصحيحة التي أسندها القرآن إلى الرجال في قول الله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ}. [النساء: ٣٤] وهي الرعاية والنفقة والحفاظ عليهن، وليس ذلك تفضيلًا للرجل على المرأة في شيء وإنما الفضل بالتقوى، ومن ثمّ كان توجيه النبي (صلى الله عليه وسلم) لرعايتها والقيام على شأنها، فعَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم): "تُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبِّحْهُ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ" (سنن أبي داود) .

وهي إن كانت أمًّا فبرها واجب وحسن صحبتها أوجب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: "أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَبُوكَ" (متفق عليه) وكرر الأم ثلاث مرات لأنها أضعف بدنًا وأقوى عاطفة، وقد يأتي عليها وقت تكون أشد احتياجًا إلى الرعاية والعناية .

وهكذا يراعي الإسلام الضعفاء على اختلاف أنواعهم وتباين أسباب ضعفهم ، ولنعلم أنهم جميعًا يتمنون السعي في الخير وتقديم ما به حفظ الدين والأوطان، غير أن العذر حال دون فعل ما يقوم به الأصحاء، ولنوقن تمام اليقين أن مساعدتنا لهم ماديًّا ومعنويًّا يعود خيرها علينا وعلى المجتمع بأسره ، حيث تعم المحبة والسلام.

* * *

الإسلام دين البناء والتعمير

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه وفضله على سائر خلقه ، وسخر له كل ما في الكون ، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}[الإسراء:٧٠]، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا}[البقرة: ٢٩] ، واقتضى هذا التكريم والإنعام استخلافه في الأرض ، قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}. [البقرة:٣٠] ، ثم حدد ربنا للإنسان مهمة عظيمة بجانب مهمة العبادة وهي مهمة إعمار هذا الكون ، واستخراج كنوزه وخاماته ، قال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا }[هود:٦١]، أي : طلب منكم عمارتها وإصلاحها ، والنظر فيما أودع فيها من خيرات وما قدر فيها من أقوات.

ولقد أمر الله (عز وجل) الإنسان بالسعي والأخذ بالأسباب ، وعدم الركون إلى الخمول والكسل لتحقيق هذه الغاية ، فقال سبحانه وتعالى:

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[الملك: ١٥] .

ولا يتوقف السعي والعمل على وقت معين ، بل لا بد وأن يسعى الإنسان حتى آخر نفس في حياته ، وإلى ذلك أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنْ قَامَت السَّاعةُ وَفِي يَد أَحَدِكُم فَسِيلةٌ فَإِنْ استَطاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتى يَغرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (الأدب المفرد للبخاري). فالإسلام دين يُقَدِّس البناء والتعمير ويدعو إليهما ،حتى وهو في وقت الشدة ، لأنهما عصب الحياة ومن أهم سبل تقدم الأمم والمجتمعات .

ولقد اهتم الإسلام بتعليم وتعلم كل ما يتم به عمارة الكون وبناؤه ، فحث الإسلام أتباعه على الضرب في الأرض والسعي في مناكبها ، والتنقيب عن موارد الرزق في البر والبحر ، مع الحث الواضح على العمل ، ففي الحديث عَنِ المقدام (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنّ نَبِيّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (صحيح البخاري) ، فالإسلام هو دعوة صريحة للعمل الذي يتحقق به التعمير والبناء فيعود بالخير على الدنيا كلها.

هذا : ولقد نظر الإسلام إلى العمل الجاد نظرة توقير وتمجيد ، فرفع قدر العمل وقيمته وجعله سبيلاً للرقي والتقدم ، وجعله عبادةً يثاب عليها فاعلها ، فقد حث القرآن الكريم من خلال آياته على السعي على المعاش

والعمل ، وجاء الأمرُ بالانتشار في الأرض طلبًا للرزق الحلال بعد الأمر بالصلاة ، يقول تعالى:{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الجمعة :١٠]، وكان سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: "اللَّهُمّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِين" (تفسير ابن أبي حاتم الرازي)َ .

ولأهمية العمل من أجل البناء والتعمير وردت في القرآن الكريم نصوص كثيرة تحدثت عن العمل ، وكذلك السنة النبوية المطهرة زاخرةٌ أيضا بنصوص تحث على الجدِّ والاجتهاد والحثّ على العمل والبناء ، وترك الخمول والكسل، وتبين أن العمل سبيل لحفظ ماء الوجه والرفعة والعزة والكرامة الإنسانية ، فعن أبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ) (متفق عليه)، وكان سفيانُ الثوريّ (رحمه الله) يمُرُّ ببعض الناس وهم جلوسٌ بالمسجدِ الحرام، فيقول: ما يُجلِسُكم؟ قالوا: فما نصنَع ؟! قال: اطلُبوا من فضلِ الله، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين .

ولقد بين الإسلام الحنيف أن من يسعى على كسب معاشه ورزق أولاده من حلال فهو في درجة الشهيد أو المرابط في سبيل الله ، فَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَجُلاً مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ جَلَدِهِ

وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ !! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) (المعجم الصغير للطبراني).

ولم يكتف الإسلام بمجرد دعوة أصحابه إلى العمل كسبيل للبناء وإعمار الكون فحسب ، بل دعاهم – أيضًا– لإتقان العمل وإحسانه ، رجاء محبة الله تعالى ورحمته ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أَنّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنّ اللهَ (عز وجل) يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (المعجم الأوسط للطبراني).

إن إتقان العمل والاهتمام به والمحافظة عليه من أهم القيم والمبادئ التي دعا إليها الإسلام، وهو هدف من أهداف الدين ، يسمو به المسلم ويرقى به إلى مرضاة الله تعالى والإخلاص له، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ، وإخلاص العمل لا يكون إلا بإتقانه، فلقد خلق الله عز وجل كل شيء بإتقان مُعجز ، يقول تعالى:{صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[النمل: ٨٨]، وحثه على الإحسان والإجادة ، ونهاه عن الإفساد ، فقال تعالى: {...وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: ١٩٥]، وقال: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[القصص: ٧٧].

ولقد دعا القرآن الكريم في كثير من آياته إلى إتقان العمل والإخلاص في أدائه طلبًا لمرضاة الله تعالى ، ونصحًا لعباده ، وخدمة وتعاونًا بين أفراد المجتمع ، ووعد على ذلك الثوابَ العظيمَ والثناء الحسن في الدنيا والآخرة ، وبيَّن أن الإنسان وهو يزاول عملًا ما يكون تحت رقابة الله ، العليم بمكنونات الصدور وخفايا القلوب ، وأنه لا يغيب عنه مثاقيل الذر من أعمال العباد ، فهو سبحانه يسطرها لهم ويسجلها عليهم ويجازيهم بها يوم يلقونه، قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[يونس:٦١] ، فالله عز وجل هو الذي يرى الإنسان ويراقبه في عمله ، يراه في مصنعه وفي مزرعته وفي متجره وفي أي مجال من مجالات سعيه وعمله ، يقول تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة: ١٠٥]. فالأمر هنا كما قال المفسرون: فيه تخويف وتهديد : أي إن عملكم لا يخفى على الله ، ولا على رسوله ، ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير ، وأخلصوا أعمالكم لله عزّ وجلّ ، وفيه أيضًا ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء أكان خيرًا أم شرًّا رغب إلى أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشرّ ، وما أحسن قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ** وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وكذلك جاءت السنة النبوية المطهرة بالدعوة إلى إتقان العمل والبناء من أجل الوصول إلى الأفضل والأحسن والأتقن ، ففي الجانب التعبدي كالصلاة التي هي صلة بين العبد وربه ، (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله) (صحيح مسلم)، وفي قراءة القرآن : يقرؤه الماهر به الذي بشره الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بأنه (مع السفرة الكرام البررة) (متفق عليه) ، ويأمر من يلي أمر الميت بقوله: (إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ) (صحيح مسلم). وعَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي كُلَيْبٍ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ أَبِيهِ جَنَازَةً شَهِدَهَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا غُلَامٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ ، فَانْتَهَى بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُمْكِن لَهَا ، قَالَ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (سَوُّوا لَحْدَ هَذَا) حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : (أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ) [شعب الإيمان للبيهقي].

فكل عمل يعمله الإنسان لابد وأن يكون حسنًا متقنًا ، وأن يراعي الله تعالى فيه ، فهو سبحانه وتعالى وحده المطلع على قلوب العباد ويحصي عليهم أعمالهم عظمت أم صغرت ، كثرت أم قلت. أما الذي لا يتقن عمله ولا يراقب الله تعالى فيه فإنه آثم بقدر ما يتسبب فيه من ضياع الأموال وإهدار الطاقات ، فهذا الموظف الذي يقصر ويهمل ولا يتقن عمله ويرضى لنفسه أن يتقاضى أجرًا حرامًا يخاصمه فيه الشعب كله يوم القيامة، ومن كانت هذه صفاتهم فإنهم يتحملون وزر تأخر الأمة وتخلف البلاد ، نشكوهم إلى الله تعالى ، يقول عمر (رضي الله عنه) : (إلى الله أشكو ضَعْفَ الأمين وخيانة القوى) (مجمع الأمثال للميداني) .

ولقد حارب الإسلام كل مظاهر اليأس والكسل التي لا تساعد على البناء والتعمير ، واعتبر الكسل صفة ذميمة ، فقد ذمّ الله عزّ وجلّ الكسالى في كتابه المجيد وبين أنه من صفات المنافقين فقال : {وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى}. [التوبة: ٥٤] ، فالكسل سلبية خطيرة وآفة مهلكة تفسد الأمم والشعوب وتؤدي إلى تخلفها عن ركب الحضارات المتقدمة ، وهو داء وبيل إذا تمكن من الإنسان كاد أن يفقده إنسانيته ، قال الإمام الراغب: (من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية ، بل من الحيوانية، وصار من جنس الموتى) (الذريعة إلى مكارم الشريعة) ؛ لذلك استعاذ النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من الكسل والتراخي ، فعن أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كان رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ) (متفق عليه) ، وقد قرن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في استعاذته بين الكسل والعجز لأنهما قرينان فكل منهما يؤدي إلى التثاقل عن إنجاز المهمات المطلوبة من الشخص إنجازها.

فالكسل آفة قلبية وعائق نفسي يوهن الهمة ، ويضعف الإرادة ، ويقود إلى الفتور ، وهو جرثومة قاتلة ، وداء مهلك ، يعوق نهضة الأمم والشعوب، ويمنع الأفراد من العمل الجاد والسعي النافع. وإنما عاب الإسلام الكسل وحذر منه ؛ لأن فيه تغافلا عما لا ينبغي التغافل عنه ، ولأنه يجر إلى الفتور في الأفعال مع الشعور بالسآمة أو الكراهية والعياذ بالله، ويجعل الإنسان يكره الخير لضعف همته وقلة عزيمته ، ويجعله يفرط

في الواجبات ، وهو آفة النجاح ، يفتك بكل من يصيبه ، فيجعل صاحبه إنسانًا متواكلاً عالةً على الناس عاجزًا عن تحمل مسئولياته كإنسان ، فيمتد خطره إلى أفراد المجتمع، يقول الإمام علي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): التواني مفتاح البؤس ، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة، ونتجت الهلكة ، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد) (المستطرف في كل فن مستطرف للأبشيهي) .

فالتكاسل ليس من هدي الإسلام ولا قيمه لأن الإسلام يسعى للخير وعمارة الكون ، أما الكسالى فإنهم لا يبنون حضارة ، بل يساعدون على هدم كل الحضارات .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللَّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

من الأمور التي حاربها الإسلام لأنها لا تؤدي إلى البناء وإعمار الكون: الإفساد في الأرض والسعي في خرابها ، فالفساد في الأرض هو خلق اللئام من البشر ، لا يتخلق به إلا المنافقون الذين قال الله فيهم:{وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[المائدة: ٦٤]، ويقول سبحانه: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[البقرة:٦٠].

وللفساد صور متعددة ، أخطرها ما كان باسم الدين ، فقد ابتليت الأمة بأناس يفسدون في الأرض باسم الدين والدين منهم براء ، فيقتلون ويستبيحون الأعراض والأموال باسم الدين ، وهؤلاء ذمهم الله (عز

وجل) في كتابه ، فقال تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}[البقرة: ٢٠٤ :٢٠٦].

إن الفسادَ بكل صوره وأنواعه يُزعزِعُ قيم البناء والتنمية ، وينشُر السلبيَّة وعدمَ الشعور بالمسؤولية، ولابد من التصدي للفساد والمفسدين ، فالتصدي له فيه نجاة للمجتمع كله ، وإهماله وعدم التصدي له فيه الهلكة للمجتمع كله ، فعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) أن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان يقول: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا) (صحيح البخاري)، فلابد من التآزر والتعاون والتناصر والتضامن بين المسلمين وتحقيق الإيمان والأخوة الإسلامية.

إن تطهير الأرض من المفسدين ، وتأمين الطرق والمنشآت وحمايتها من أعظم أعمال الخير وأجل أنواع البر ، فالله (عز وجل) يدفع بالمصلحين فساد المفسدين ، قال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ}. [هود: ١١٦]. فإن المفسد مِعول هدم للمجتمع، ولا نجاة للعباد إلا بمنعه من الفساد.

والأمة الإسلامية – بفضل الله تعالى– تملك الكثير من خيرات الله ، ففيها الأرض الخصبة وفيها البحار والبحيرات والأنهار العظام ، وفيها معظم المعادن التي يحتاجها العالم المعاصر ، وتملك أكبر مخزون في العالم من النفط ، إضافة إلى ما تملك من ثروات هائلة من العقول المفكرة والأيدي العاملة ؛ لذلك وجب عليها أن تستثمر ممتلكاتها وثرواتها أحسن استثمار ، وأن تستثمر أوقاتها في الخير ومنفعة الناس ، وفي سبيل النهوض الحضاري والتقدم العلمي .

فأمتنا أمة عمل لا أمة كسل ، أمة بناء لا أمة هدم أو تخريب ، أمة حضارة ، ولم يكن التخلف أبدًا سمة من سماتها ، فحري بكل مسلم يحب دينه ويعتز به أن يعمل من أجل رفعة دينه وعزة وطنه.

* * *

حرمة المساجد والحفاظ على قدسيتها

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه إلى يوم الدين، **وبعـــــد** :

فإن للمساجد مكانة عظيمة وأهمية بالغة عند المسلمين ، فهي بيوت الله عز وجل في أرضه، أمر الله تعالى برفعها وتشييدها وتعظيم قدرها ؛ لعبادته وذكره ، وتلاوة كتابه ، وأداء رسالة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ونشر تعاليمه وتبليغ منهجه ، فقال تعالى: { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور:٣٦-٣٧] ، ثم كرَّمها الله – سبحانه – بأن أضافها إلى نفسه إضافة تعظيم وتشريف ، فقال تعالى : { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن:١٨].

وفي الحديث القدسي عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال فيما يرويه عن ربه :(إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي ، وحق على المزور أن يكرم زائره) (حلية الأولياء لأبي نعيم).

فزائر المسجد هو ضيف الله ، والضيف إذا نزل بساحة الكرماء، ومنازل العظماء نال من جودهم وفضلهم، فكيف بضيف نزل بأكرم

الأكرمين، وحلَّ ببيت رب العالمين ؟ فحق على المزور أن يكرم زائره ، ما أن يدخل بيته حتى يوكل به ملك يقول: اللهم اغفر له.. اللهم ارحمه ما دام في مجلسه الذي صلى فيه حتى يخرج من المسجد، كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : "صَلَاةُ الْجَمِيعِ – الْجَمَاعَةِ – تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَأَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةً حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ وَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتْ تَحْبِسُهُ وَتُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ" (متفق عليه).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: " مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ في الْجَنَّةِ نُزُلاً كُلَّمَا غدَا أَوْ رَاحَ " (متفق عليه) فأيّ رفعة أعظم من هذه الرفعة؟ وأي قدر أرفع من هذا القدر؟ .

وكذلك كرَّمها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأخبر بأنها أفضل البقاع في الأرض ، وأحب البقاع إلى الله سبحانه ، ففي (صحيح مسلم) من حديث عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " أَحَبُّ البِلادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا ، وَأَبْغَضُ البِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا" ، وذلك لأنها تؤدي دورًا من أهم الأدوار، وهو الاتصال بين الأرض والسماء ، بين العبد وربه ، فهي البقعة الطاهرة التي تهفو

إليها النفوس ، وتسكن إليها القلوب ، يخلو فيها المسلم مع خالقه ، فيبكي على خطيئته ، ويجدد توبته ، يأوي إليها منقطعًا عن صخب الحياة المادية، متحررًا من قيود الهموم الدنيوية، فيجد فيها مَراتِعَ من رياض الجنة ، ويتعرض لنفحات الله (عزَّ وجل) ، وأما كون الأسواق أبغض البقاع فلِأَنَّهَا مظنة الْغِشّ وَالْخِدَاع وَالْأَيْمَان الْكَاذِبَة وَإِخْلَاف الْوَعْد وَالْإِعْرَاض عَنْ ذِكْر الله ، وَغَيْر ذَلِكَ مما في معناه.

ومما يدل على مكانة المساجد وعظم منزلتها عند الله ، أنه – سبحانه وتعالى– هو الذي رغَّب في بنائها وعمارتها، فقال تعالى: { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}[التوبة:١٨]، فبناء المساجد من أعظم القُرَب لمن أخلص لله عز وجل ؛ وكذلك رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) في بنائها وحثَّ على عمارتها، وأَمَرَ بتطهيرِها وتنظيفِها ، وتنزيهِهَا وتطييبِها ، ففي الصحيحين عَنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ : "مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ" (متفق عليه) .

وعن عائشةَ (رضي الله عنها) قالت: أَمَرَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ببناء المساجِدِ في الدور– يعني: في القبائل– وأن تُنَظَّف وتُطَيَّب. (سنن أبي داود) .

ولأهمية ومكانة وقدسية المساجد في الإسلام كان أول عمل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة المنورة هو بناء المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فكان المسجد هو الركيزة الأولى واللبنة

الأساسية في تكوين المجتمع المسلم ، فهو المدرسة التربوية الكبرى التي تتربى فيها الأمة، كبيرها وصغيرها .

وما دام رب العالمين قد رفع شأن المساجد وأعلى ذكرها ، وكذلك رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) فلا بد لنا أن نحترمها، ونرفع قدرها، وأن نتحلى بآدابها ، ورعاية حرمتها، والحفاظ على قدسيتها ؛ لنكون عبادًا خاضعين خاشعين لربّ العالمين، عاملين بسنة خير المرسلين (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ:" الْمَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ تَقِيٍّ ، وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ كَانَ الْمَسْجِدُ بَيْتَهُ بِالرَّوْحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْجَوَازِ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ "(المعجم الكبير) .

إن علاقة المسلم بالمسجد علاقة تعظيم وتوقير وإجلال، وعلاقة عبادة وخشوع ، ويظهر ذلك التوقير في سلوكه ، وملبسه ، ومراعاته قدسية المكان ، يتجلى ذلك في قوله تعالى : {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف :٣١] .

فالمساجد إنما جعلت للذكر والطاعة ، وقد ثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال في شأنها : "... إِنَّمَا هي لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ"(صحيح مسلم) ، ففيها تؤدى الصلوات جماعة وفرادى، وفيها يدعو المسلم ربه وحده ، ويقرأ القرآن بتدبر وخشوع ، والاجتماع لحفظه ومدارسته ، وإضافتها إلى الله تعالى تقتضي شرفها وتميزها عن بقية البقاع ، وذلك ما يوجب احترامها.

ولهذه الأهمية العظيمة أُمِرْنا بمراعاة حرمتها ، والمحافظة عليها من كل مالا يتناسب مع ما بُنيت له ، قال تعالى:{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. [البقرة:١١٤].. لذلك نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن البيع والشراء في المسجد ، أو إنشاد الضالة ، أو عن إيذاء المصلين والملائكة برائحة كريهة كأكل ثوم أو بصل أو كراث أو نحوها ، أو أن يستهان بالمسجد أو يُعبث فيه ، وغير ذلك من الآداب التي يجب مراعاتها .

ومن الأمور التي ينبغي مراعاتها : عدم رفع الصوت حتى بالقراءة والذكر ، لأن المصلي يحتاج إلى التدبر والخشوع، والقارئ يشغله برفع صوته؛ لهذا نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن رفع الصوت فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ (رضي الله عنه) قَالَ : اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) في الْمَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ فَكَشَفَ السِّتْرَ، وَقَالَ : " أَلاَ إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ فَلاَ يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَلاَ يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ في الْقِرَاءَةِ " أَوْ قَالَ:" في الصَّلاَةِ" (سنن أبي داود) .

وعَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ (رضي الله عنه) قَالَ : (كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ - أي رماني بالحصباء ، وهي الحصى الصغار- فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا، قَالَ : مَنْ أَنْتُمَا أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا : مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ ، قَالَ : لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) (صحيح البخاري).

ومن ثم فإنه يجب عدم رفع الصوت في المساجد ، والإنصات للخطبة يوم الجمعة ؛ لحديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْصِتْ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ "(متفق عليه) .

لكن ما نراه اليوم من مخالفة كثير من الناس لهذه الأهداف العالية والتي من أجلها بنيت المساجد لأمر يحزن القلوب ، حيث نرى ونسمع ارتفاع الأصوات والتشويش على المصلين ، وهذا مخالف لتعاليم الإسلام، لا عذر لفاعله أمام الله (عز وجل) ، لأنه بذلك يعطل أداء شعائر الله، فيكون من الظالمين الذين توعدهم الله (عز وجل) بالعقاب الأليم، فقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[البقرة:١١٤].

فعلى المسلمين أن يراعوا حرمة بيوت الله عز وجل ، وعدم رفع الصوت فيها، وتجنيب المساجد الصراعات الحزبية والسياسية التي تؤدي إلى التفرقة .

ولا يجوز شرعا امتهان وتشويه وازدراء علماء الإسلام ، وعدم احترامهم وتوقيرهم ، فهم ورثة الأنبياء ، وهم هداة هذه الأمة الذين ينيرون لها الطريق ، ويعلمون الناس الخير .

* * *

خطورة الشائعات وتزييف الوعي

الحمد لله ربّ العالمين ، القائل في كتابه العزيز:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ ، وبارِكْ علَيه وعلَى آلهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ، **وبعــد** :

فإن الصراع بين الحق والباطل صراع قديم قدمَ البشرية ، وهو مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وإن من أبرز وسائل أهلِ الباطل في صراعهم مع أهل الحق : صناعة الشائعات ، وترويجها بين الناس .

ومما لا شك فيه أن الكلمة أمانة ومسئولية عظيمة ، سواء أكانت مقروءة ، أم مسموعة ، أم مرئية ، والشائعات ما هي إلا كلمة تنتشر بين الناس ، يطلقها صاحبُ قلب مريض ، أو هيئة أو منظمة من قوى الشر التي تعمل في الخفاء ، وتتناقلها الألسنة وترددها دون تثبت ، أو تبيّن ، فتؤثر سلبًا على العقول والنفوس ، وتنشر الأفكار الهدامة والمعتقدات الفاسدة ، ويصبح المجتمع ويمسي في قلق وريبة ، بل ويذهب الأمن ، وتضعف الثقة بين الناس ، فترى أمة الجسد الواحد يشكك بعضها في بعض ، ويخوّن بعضها بعضًا ؛ لذا قال النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) ، فإذا كان التحدث بكل ما يسمعه

الإنسان نوعًا من أنواع الكذب يُعاقَب عليه الإنسانُ عقوبة شديدة في الآخرة ، فكيف بمَنْ يتحدث بما لم يره أو يسمعه؟ .

لقد اتخذ الإسلام موقفًا حازمًا من الشائعات ومروجيها ، وعدّها سلوكًا منافيًا للأخلاق الحسنة ، والقيم النبيلة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، وذلك حين أمر أتباعه بحفظ اللسان عن الخوض في ما ينشر الفتنة ويثير الاضطرابات في المجتمع ، وأمرهم بالصدق في أقوالهم ، وحفظ ألسنتهم ، والتثبت من كل ما يصل إلى أسماعهم حتى لا يكونوا سببًا في نشر الفتن ، وإفساد المجتمع ، وتشويه الأعراض ، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، وقال جلّ شأنه :{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، وقال سبحانه:{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}، وفي حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) بعد أن بين له النبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فرائضَ الإسلام ، وأبوابَ الخير ، قال له : (وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ) ، قَالَ معاذ : أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ : (أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ فَالْإِسْلَامُ ، وَأَمَّا عَمُودُهُ فَالصَّلَاةُ ، وَأَمَّا ذِرْوَةُ سَنَامِهِ فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ) ، فقَالَ: مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (فَأَهْوَى بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ) ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَنُؤَاخَذُ بِمَا نَقُولُ بِأَلْسِنَتِنَا؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، هَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟) .

إن نشر الشائعات وترويجها هو سلوك المنافقين في الوصول إلى مآربهم وأهدافهم بزعزعة الأمن ، واستهداف وحدة الوطن ، وإضعاف نمو اقتصاده ، والنيل من استقراره وسلامته ، وبث روح الإحباط واليأس

والتشاؤم في نفوس المواطنين عمومًا والشباب على وجه الخصوص ، ولقد سماهم القرآنُ الكريمُ المرجفينَ ؛ لأن الإرجاف يقصد به الخوض في الأخبار السيئة والفتن التي من شأنها أن تُحدث الاضطراب الشديد في المجتمع ، قال تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا}.

والشائعات إحدى وسائل الحروب التي لم يسلم منها النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فقد حارب المشركون النبيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بترويج الشائعات للنيل من دعوته وتشويه صورته ، فأشاعوا بين الناس كذبًا أنه (صلى الله عليه وسلم) ساحر ، قال تعالى:{وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}، وادّعوا بهتانًا أنه شاعر ومجنون ، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}، وتارة أشاعوا أنه كاهن ، فرد الله تعالى عليهم كذبهم وافتراءهم ، قائلًا :{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وفي يوم أُحد أشاع المشركون مقتل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رغبةً منهم في تفريق المسلمين من حوله ، وإضعاف قوتهم ، فاضطربت صفوف المسلمين وضعفت قواهم النفسية ، وفرَّ بعضهم ، وألقى بعضهم السلاح ، وثبُت بعضهم مع النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

وفي يوم حمراء الأسد أشاع المشركون أن قريشًا قد جهزت جيشًا كبيرًا لمهاجمة المدينة ، ومحاربة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، والقضاء

على الإسلام ، إلا أن المسلمين ثبتوا على دينهم ، ولم تنل منهم تلك الشائعات ، فأثنى الله تعالى عليهم بقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}.

وقد عمد أعداء الإسلام إلى إثارة الشائعات بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، فتولى اليهود كِبر التشكيك في صحة التوجه إلى البيت الحرام ، وقالوا : إن كانت القبلة الأولى هي الحق فقد تركتم أيها المسلمون الحق ، وإن كانت القبلة الأولى هي الباطل فعبادتكم السابقة باطلة ، ولو كان محمد (صلّى الله عليه وسلّم) نبيا حقا ما ترك قبلة الأنبياء قبله وتحوّل إلى غيرها ، وما فعل اليوم شيئا وخالفه غدًا.

وقال المنافقون : ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها؟ ، وقال المشركون: إن محمدًا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد تحيّر في دينه ، ويوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطتهم ، وأحبط مكرهم ، فأخبر الله تعالى نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعًا قبل أن يصدر عنهم، ومهّد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس ويثبت الإيمان في القلوب والأفئدة لتقبّل هذا الأمر العظيم ، وكذلك في يوم حنين حين أُشيع أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد قُتل، ووقف (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يبطل هذه الشائعة بنفسه ، قائلاً : (أنا النَّبيُّ لا كَذِب ، أنا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلب) .

إن في ترديد الشائعات وترويجها من الخطورة ما لا يخفى على العقلاء من استباحة الدماء والأموال والأعراض واضطراب الحياة ، ولنا في مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) خير دليل وشاهد على ذلك ، فقد حاصره المجرمون بسبب الشائعات والأراجيف التي أطلقها عبد الله بن سبأ اليهودي ، بل ومنعوه من شرب الماء وهو الذي اشترى بئر رومة من خالص ماله ، فعن نائلة زوج عثمان (رضي الله عنه) قالت: لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان ، ظل في اليوم الذي قبله صائمًا ، فلما كان عند إفطاره ، سألهم الماء العذب فلم يعطوه ، فنام ولم يفطر ، فلما كان وقت السحر أتيت جارات لي ، فسألتهم الماء العذب، فأعطوني كوزًا من ماء ، فأتيته فحركته فاستيقظ ، فقلت: هذا ماء عذب ، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر ، فقال: إني قد أصبحت صائمًا ، وإنّ رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اطلع عليّ من هذا السقف ومعه ماء عذب ، فقال: (اشْرَبْ يَا عُثْمَانُ) ، فشربت حتى رويت ، ثم قال: (ازْدَدْ) ، فشربت حتى نهلت، ثُمَّ قَالَ: (أَمَا إِنَّ الْقَوْمَ سَيَكْثُرُونَ عَلَيْكَ فَإِنْ قَاتَلْتَهُمْ ظَفِرْتَ وَإِنْ تَرَكْتَهُمْ أَفْطَرْتَ عِنْدَنَا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ يوْمِهِ فَقَتَلُوهُ).

وفي عصرنا الحاضر تغيرت معطيات كثيرة ، وأخذت هذه الصناعة الخبيثة أشكالا مختلفة وصورًا متعددة ومتنوعة ؛ نظرا لما يشهده العالم من تطور كبير وسريع في وسائل التواصل والتكنولوجيا ، حيث أصبحت الإشاعة أوسع انتشارًا ، وأسرع وصولًا، وأكثر تأثيرًا، بل وأصبحت وسيلة من وسائل الحروب وأساليبها ، فلم تعد الحرب أحادية البعد ، أي أنها لم

تعد عسكرية محضة ، أو أمنية محضة ، ولا حتى مخابراتية محضة بالمفهوم التقليدي للنظم المخابراتية القديمة ، فقد تطورت أساليب الحروب ، من حيث منهجة استخدام سلاح الشائعات وتزييف الوعي الذي صار أمرًا يُدرس ويتم التدريب عليه من قبل بعض الجهات المشبوهة ، وتُوظف له الكتائب الإلكترونية ، مع استخدام أقصى وسائل الحصار والضغط السياسي والاقتصادي والنفسي ، والمحاولات المستميتة في إثارة الشعوب وتأليبها على حكامها ، وتشويه الرموز والمكتسبات الوطنية ، والتشكيك في كل الإنجازات والتهوين من أمرها ، وتحالف الجماعات والقوى الإرهابية ، ومحاولات اختراق المؤسسات ، وإثارة أي نعرات تؤدي إلى الفرقة بآلية مدروسة وغير مسبوقة ، مع التوظيف المدروس للمعلومة ، وتجنيد بعض وسائل التواصل الحديثة بل الكثير منها ، واللعب على وتر الحاجة والمصالح الآنية التي لا يحتمل بعض الناس الصبر عليه ، ومحاولة كسر إرادة الشعوب ، والعمل على كسر هيبة الحكام، والتشكيك في العلماء والمفكرين والمثقفين الوطنيين ، ودعم مناوئيهم ، وتوجيه رسائل التهديد المبطنة تارة والصريحة أخرى للمتمسكين بمبادئهم المخلصين لأوطانهم ، بإبراز مصائر من لم يسر في الركب وينضم للمخطط الآثم ، ويرفع راية التسليم ويركع ويُركّع من خلفه .

ومما لاشك فيه أن قضية الصمود في وجه كل هذه الموجات العاتية أمرًا يحتاج إلى عقيدة إيمانية ووطنية صلبة ، وثقة في الله غير محدودة ، ذلك أن كثيرًا من الناس ربما يستهين بما يقوم به من مشاركة لبعض الأخبار ، أو الإحصائيات ، أو القصص دون التوثق منها ، أو التحقق

من مصدرها ، فيكون ممن شارك في بث الفتنة وإشعالها ، ورب كلمة كاذبة لا أساس لها من الصحة يقولها العبد أو يكتبها أو يشاركها تبلغ الآفاق فتكون سببا في عذابه يوم القيامة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) (صحيح البخاري).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسـوله ، اللهـم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

لقد وضع الإسلام منهجًا حكيمًا لوقاية المجتمع من الشائعات ، من أهم ملامحه :

* **وجوب التثبت من الأخبار** والتأني قبل نشرها في المجتمع ، قال تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ)، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ) .

* **عدم ترديد الشائعة** عبر أي وسيلة من الوسائل مقروءة أو مسموعة أو مرئية ؛لأن في ترديدها إسهام في ترويجها ونشرها ، فالشائعات تزداد

انتشارًا إذا وُجِدَتْ ألسنة ترددها ، وآذان تصغي إليها ، ونفوس تتقبلها وتصدقها ، قال تعالى:{ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ }، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ).

***حسن الظن بالآخرين، وعدم التسرع في اتهامهم** ، قال تعالى : {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ}، فالمسلم مأمور بأن يحسن الظن ، وأن يحمل ما يصدر عن الآخرين على محمل حسن ؛ لأن سوء الظن مرض فتاك يؤدي إلى اضطراب الحياة ، ونشر الخصومة بين الناس ، ولقد حذر النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من ذلك بقوله: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا ، وَلاَ تَجَسَّسُوا ، وَلاَ تَحَاسَدُوا ، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) .

* **الاستعانة بأهل الخبرة والاختصاص في بيان الحقائق** ، وعدم التعجل في الحكم على الأمور ، قال تعالى في وصف المنافقين :{وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}، أي : إنهم كانوا يتربصون بأمن واستقرار مجتمع المدينة ، فإذا ما سمعوا شيئًا من الأخبار التي تتعلق

بأمن المسلمين أو خوفهم أذاعوها ، أو أظهروها بقصد إشاعة الفزع والقلق والاضطراب .

فلينتفض كل مؤمن غيور على دينه ، مخلص لوطنه للتصدي لتلك الشائعات ، وتكذيبها ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، ولنعلم أن الكلمة أمانة سنُسأل عنها أمام الله تعالى يوم القيامة .

ولندرك جميعًا أن أعداءنا قد اتخذوا من حروب الجيل الرابع والجيل الخامس ، ومن حرب الشائعات وتشويه الإنجازات والرموز الوطنية ، ومحاولات النيل من كل ما هو وطني سبيلاً لإفشال دولنا ، أو إسقاطها ، أو تفتيتها ؛ لتحقيق أغراضهم ومآربهم ، فعلينا أن ندرك أننا أمام حرب ضروس تُحاك لنا ، والشائعات وقودها ، فيجب أن نتحقق وأن نتثبت حتى لا نسقط في مكائد أعدائنا ، ويجب أن نثق في أنفسنا وفي قيادتنا وفي جيشنا وشرطتنا ، وألا نعطي أسماعنا لأعداء الوطن ، ومن يعملون على النيل منا ، أو من معنوياتنا ، أو يفكرون في إحباطنا وبث روح اليأس بيننا ، وذلك يتطلب منا تحصين شبابنا ومجتمعنا بالوعي بالواقع ، والإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا ، ومحاولة الإسهام في حلها .

اللهم حسّن أخلاقنا ، واحفظ مصرنا ، ووفقنا لما تحب وترضى .

* * *

عظمة الإسلام
وخطورة المتاجرة به والافتراء عليه

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـد :

فقد تحدث القرآن الكريم عن الأخلاق حديثًا عظيمًا ، فما من كتاب دعا إلى مكارم الأخلاق مثل القرآن الكريم ، فالنهج الأخلاقي القرآني يمثل إعجازًا، فإذا تأملنا كيف تغيرت بلاد العرب خلال سنوات قليلة بعد أن كانت موطنًا للوثنية والجمود والقسوة والعنف والظلم وغير ذلك من سيِّء الأخلاق، وكيف تغيرت سلوكياتهم وعاداتهم ، فتعلموا ضبط النفس ومكارم الأخلاق ، وتخلصوا من العصبية والغضب بالحلم والصفح ، وتخلصوا من الضغائن والأحقاد ، وتعلموا الرفق والعفو والإحسان.

والنموذج العملي الأكمل في امتثال الأخلاق الإسلامية هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي وصفه القرآن الكريم بأنه على خلق عظيم ، قال تعالى:{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}. [القلم: ٤]. فقد كان (صلى الله عليه وسلم) أجمع الخَلْق خُلُقا ؛ لأنه كان أجمعهم للقرآن الكريم تطبيقًا وامتثالاً، كما ورد على لسان أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) حين سئلت عن أخلاقه (صلى الله عليه وسلم) قالت: (كَانَ خلقه الْقُرْآن) (مسند أحمد).

كما تحدث القرآن الكريم عن عظمة الجوانب الإنسانية في الإسلام ، فتحدث عن البشرية جمعاء مبيِّنا أنهم متساوون في الخلقة والتكريم على سائر المخلوقات ، قال تعالى : {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}. [الإسراء: ٧٠]، ليؤكد بذلك على مبدأ لا يقبل حذفا ولا تعديلا ولا نسخا ولا تعطيلا وهو هدف من أهداف الخلق وهو (التعارف والتآلف) قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}. [الحجرات: ١٣]، فالقرآن يبين عظمة الإسلام في نظرته لكل البشر بغض النظر عن اللون والجنس والديانة ، وهذا يجسد مفهوم الحقوق والواجبات ، والرحمة والصدق ، ومفهوم الولاء والانتماء ، وترسيخه بين المسلم وغيره ممن يعيشون تحت مظلة وطن واحد ، ويؤمن بسنة التنوع والاختلاف ، فالاختلاف بين الناس سنة من سنن الله عز وجل الكونية ، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ }[هود: ١١٨، ١١٩] .

ولقد تجسَّد هذا المفهوم من خلال وثيقة المدينة التي كانت بمثابة الدستور الأول المنظم للعلاقات بين البشر ، والتي تعد أفضل أنموذج في فقه التعايش السلمي بين البشر جميعا على اختلاف أديانهم وأعراقهم، كما جسد النبي (صلى الله عليه وسلم) هذه العظمة الإنسانية في تعامله مع غيره ممن لا يدينون بدين الإسلام بأواصر الترابط

والتراحم ، فعن ابْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) حِينَ قَدِمَ مَعَ مُعَاوِيَةَ إِلَى الْكُوفَةِ فَذَكَرَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ : لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا) ، وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ مِنْ أَخْيَرِكُمْ (خَيْرِكُمْ) أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا) (متفق عليه) .

ولقد ربى النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على هذا الخلق العالي الرفيع حينما أعلنها مدوية معرفًا المسلم الحقيقي حين قال : (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) (مسند أحمد)، فقد بيَّن الإسلام للبشر أن المسلم سِلْم للمسلم ، وسِلْم لغير المسلم .

فالأخلاق الإنسانية تقوم على مبدأ العطاء، فينكر المسلم ذاته وحظ نفسه في سبيل الآخرين، وقد أطلعنا القرآن الكريم على عينات رائعة من نماذج ليست مقصورة على أفراد معينة بل أصبحت صفة للمسلمين عامة، قال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}. [الحشر:٩]، وقال تعالى:{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}. [الإنسان: ٨] .

ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في العطاء أفرادًا وجماعاتٍ ، فلما هاجر الرسول من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وآخى بين المهاجرين والأنصار كان الأنصاري يشاطر أخاه المهاجر بنصف ماله.

ولقد حذر الإسلام أن يتخذ الإنسان الدين وسيلة لكسب أغراض سياسية أو حزبية ، دينية أو دنيوية، لأن ذلك يعد متاجرة بالدين ، والمتاجرة بالدين هي النفاق بعينه الذي قال عنه ربنا سبحانه وتعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ *

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}. [البقرة: ٨ – ١٠] .

إن أخطر ما يهدد البلاد ويؤدي إلى الفرقة والتشاحن إساءة استخدام الدين ، والمزايدة عليه ، سواء بالشعارات الجوفاء أو بالخطب الرنانة أو بالمجادلات العقيمة التي لا تحقق نتيجة ولا تصل إلى غاية ، وما ذلك إلا متاجرة بالدين .

ومن صور المتاجرة بالدين وتوظيفه لأغراض سياسية أو سلطوية ، تلك الدعوات الآثمة إلى رفع المصاحف ، ونقول لهؤلاء محذرين من الاستجابة لدعواتهم : هذه فعلة الخوارج ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، لقد صنع الخوارج هذا الصنيع وخرجوا على سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ورفعوا المصاحف ، وقالوا : لا حكم إلا لله، ثم كفروه وهو من هو (رضي الله عنه) ، وكانت فتنة عظيمة سفكت فيها الدماء، ونهبت فيها الأموال ، وتحول رفع المصاحف إلى رفع السيوف وقتل الآمنين على الرغم أن من قواعد الشريعة التي يرفعون ظلمًا وخداعًا شعارها: حفظ الدين، والنفس ، ومن قواعدها أيضا : أن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح.

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

هذه الدعوات الآثمة قد تؤدي مالم نتنبه لها إلى فتن عظيمة تعصف بالبلاد والعباد من قتل وتدمير وتخريب وزعزعة لأمن الفرد والمجتمع ، فالشريعة تدعو إلى تعظيم شأن المصحف وصيانته عن كل مالا يليق به ، فكيف بالمصحف الشريف حين يحدث الهرج والمرج ، أو يحدث احتكاك بين هؤلاء وبين المعارضين لهم ، أليس من المحتمل، بل من المؤكد أن تسقط بعض المصاحف من أيديهم على الأرض وربما تهان بالأقدام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ، إثمه وإفكه على من دعا إليه أو يشارك فيه.

إن إقحام الدين في السياسة والمتاجرة به لكسب تعاطف العامة إثم كبير وذنب خطير ، ويكفي الإسلام ما أصابه من تشويه صورته في الداخل والخارج على يد ولسان بعض المنتسبين إليه ، وليس لهم من حقيقته إلا مجرد أسمائهم وبطاقات هوياتهم.

ونؤكد على حرمة المشاركة في التظاهرات الآثمة ، وعلى إثم من يشارك فيها من الجهلة والخائنين لدينهم ووطنهم.

* * *

خطورة الإدمان والمخدرات على الفرد والمجتمع

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـد :

فقد كرم الله (عز وجل) بني آدم بخلال كريمة وأنعم عليهم بنعم كثيرة امتازوا بها عن غيرهم من المخلوقات ، فقد كرمهم بالعقل، وزينهم بالفهم، ووجههم بالتدبر والتفكر ، فكان العقل من أكبر نعم الله على الإنسان ، به يميز بين الخير والشر ، والضار والنافع ، به يسعد في حياته ، ويأمن في آخرته ، وبه يدبر أموره وشئونه ، وبالعقل يكون مناط التكليف، وهو جوهرة ثمينة ، يحوطها العقلاء بالرعاية والحماية ، اعترافا بفضلها ، وخوفا من ضياعها وفقدانها ، وبالعقل يشرف العقلاء ، فيستعملون عقولهم فيما خلقت له ، كما قال تعالى : {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد:١٧]. وإذا ما فقد الإنسان عقله ، لم يُفَرَّق بينه وبين سائر الحيوانات والجمادات بل ربما فاقه الحيوان الأعجم بِعلة الانتفاع ، فمن فقد عقله لا نفع فيه ولا ينتفع به ، بل هو عالة على أهله ومجتمعه .

هذا العقل الثمين، هناك من لا يعتني بأمره ، ولا يحيطه بالحفظ والحماية ، بل هناك من يضعه تحت قدميه ، ويتبع شهوته ، فَتُعمى بصيرته، كل هذا يبدو ظاهرًا جليًّا في الذي يتناول كأس خمر ، أو جرعة مخدر ، أو استنشاق مسكر ، أو شرب مفتر يُفقد الإنسان عقله ؛ فينسلخ من

عالم الإنسانية ، ويتقمص شخصية الإجرام والفتك والفاحشة ؛ فتشل الحياة ، ويهدم صرح الأمة ، وينسى السكران ربه ، ويظلم نفسه ، ويقتل إرادته ، ويمزق حياءه .

ومن هنا فإن اهتمام الشرع الحنيف بنعمة العقل يتطلب من المسلم أن يحافظ عليه وأن لا يتناول من الأشياء ما يفسده أو يعطل وظيفته أو يضره ويؤذيه ، ومن أجل ذلك حرم الإسلام كل ما يضر بالعقل فجعل من مقاصد الشريعة التي جاء الإسلام بالحفاظ عليها ضرورة الحفاظ على العقل.

هذا والاعتداء على العقل له صور عديدة ، ومن ذلك : عدوان الشخص على عقله بتدميره عن طريق تعاطي المخدرات التي تفسده وتشل فاعليته ، فتضر بالمجتمع الذي يعيش فيه؛ نظرًا لأن هذا السلوك المنحرف من شأنه أن يفقد المجتمع عضوًا كان من المفروض أن يكون عضوًا صالحًا وعقلًا مفكرًا يساعد في بناء مجتمعه وتقدمه.

فعقل كل فرد من أفراد المجتمع ليس حقًّا خالصًا له يتصرف فيه كيف يشاء ، بل للمجتمع حقٌّ فيه أيضًا باعتبار كل شخص لبنة من لبنات المجتمع ، وأن مصالح الأمة لا تستقيم إلا إذا كانت عقول أبنائها سليمة من الآفات ؛ قادرة على التفكير السليم والتخطيط الدقيق لكل ما من شأنه أن يعود بالخير والسعادة على الأفراد والجماعات .

ومن أجل ذلك قرر الإسلام عقوبة على الشخص إذا تناول عَمْدًا ما يُفسد عقله ؛ لأنه بذلك قد تسبب في ضرر المجتمع ، فضلًا عن الضرر الذي جلبه على لنفسه.

يقول الحسن البصري – رحمه الله– : (لو كان العقل يشترى، لتغالى الناس في ثمنه ، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده) (المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي).

وأفضل قَسْمِ الله للمرء عقله ... وليس من الخيرات شيء يقاربه
ويزري به في الناس قلة عقله ... وإن كرمت أعراقه ومناسبه

ولما كان الهدف الرئيسي للشريعة الإسلامية الحفاظ على مصالح العباد والبلاد من المفاسد والأضرار التي تلحق بهم حرّمت كلَّ ما يذهبُ العقل أو يشوِّشُ عليه ، أو يخرجه عن وعيه وإدراكه ، فحُرِّمت الخمر والمخدرات بأنواعها ، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [المائدة:٩٠– ٩٢]

وتنبيها إلى أهمية الطاعة في الخير وضرورة الانتهاء عن الشر نلاحظ أنه عندما سمعَ أصحابُ النبي (صلى الله عليه وسلم) هذه الآيات كانتِ الوقفةُ الأخيرةُ مع الشهوةِ التي مالت إليها النفوسُ ، وامتثلوا (رضي الله عنهم وأرضاهم) لأمر الله (عز وجل) في الحال، فأريقتِ الخمورُ حتى جرت في طرقِ المدينةِ ، وفي ذلك روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ وَأَبَا طَلْحَةَ وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ مِنْ فَضِيخِ زَهْوٍ وَتَمْرٍ، فَجَاءَهُمْ آتٍ ، فَقَالَ : إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ

(رضي الله عنه): قُمْ يَا أَنَسُ فَأَهْرِقْهَا فَأَهْرَقْتُهَا) (صحيح البخاري) ، وهذا الموقف يدل على سرعة الانقياد والامتثال لأمر الله تعالى.

ولقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) عن هذا الزمان الذي تكثر فيه أنواع المسكرات تحت مسميات مختلفة، الأمر الذي جعل بعضهم يدعي أنه لا يشرب الخمر التي حرّمها الله (عز وجل) متغافلا أن كل مسكر حرام أيًّا كان اسمه ، فعن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: (لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا) (سنن أبي داود) ، لهذا وضع الإسلام وصفًا عامًا للخمر ينطبق على أي نوعٍ من الأنواع المعروفة، أو التي تُستحدث من المسكرات ، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: (كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ) (متفق عليه)، وعند مسلم أيضًا من حديث ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَتُبْ ، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ) (صحيح مسلم)، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ) (سنن أبي داود) .

فمن هنا نعلم أن اسم الخمر شامل لكل ما يُسكر ، مهما أحدث الناس له من أسماء، وسواء أكان مائعًا أم جامدًا ، طالما توافر فيه المعنى المُحرَّم وهو الإسكار ، وإنما اعتبر إسكار الجنس دون القَدْر ، لأن الأمر لا يتعلق بقدر معين ولا بشارب معين، بل ما أسكر جنسه أيَّ شاربٍ فهو حرام كما دلت الأحاديث الشريفة المذكورة وغيرها.

فالخمر حرمها الله (عز وجل) ، بل إن اللعنة تصل إلى كل من امتدت يده لها من قريب أو بعيد، فعن ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ). (سنن أبي داود) ، ولِمَ لا ؟! ولحظة تعاطي الخمر والمخدرات هي لحظة سقوط الإيمان من قلب المؤمن، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (متفق عليه)، فكيف به إن مات وهو على هذا الحال؟! أهُناك خاتمةٌ أسوأ من ذلك والعياذ بالله؟!

ويلتحق بتحريم الخمر المخدرات بجميع أنواعها ومسمياتها، وكل ما يؤثر على النشاط الذهني والحالة النفسية لمتعاطيها، وكل ما يتداوله المتعاطون ممّا يغيب العقل أو يفتّر الجسم ، يستوي في ذلك كل ما يدخل الجسم بأي طريقة كانت: بشربٍ أو شَمٍّ أو حَقْنٍ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ) (سنن أبي داود) ، فالمخدرات داء عضال يفتك بشباب مجتمعنا فيجعلهم جثثًا هامدةً، وعقولًا خاوية، وقلوبًا فارغةً في الوقت الذي نحتاج فيه إلى رجال يلبون نداء الوطن دفاعًا عن الأرض والعرض، ويكونون لبنة أساسية في تنمية الوطن.

ولما كان للخمر والمخدرات تأثير على عقل الإنسان نهى الله تعالى شاربها عن القرب من العبادة أثناء سكره ، وخاصة الصلاة ، فقال (عز

وجل) : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء:٤٣].

ومن هنا يجب على الأسرة أن تحافظ على عقول أبنائها من خطر الخمر والمخدرات والسموم البيضاء ، حتى نعالج المجتمع من الإدمان وينتشر الأمان ، ويسود السلام ، ويكون الوئام ، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }. [التحريم: ٦] ، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عمر (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ:(كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهْيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه) (متفق عليه)، فينبغي تضافر الجهود وقيام الدول والحكومات بكل ما من شأنه أن يجنب شبابنا مخاطر الإدمان والمخدرات.

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن خطر المخدرات لا يقتصر على الأمراض بل تجر صاحبها إلى الانحدار في المستوى التربوي والتعليمي والأخلاقي والاجتماعي

والاقتصادي ، وهذا يدعونا جميعًا أن نقول بصوت واحد مرتفع لا للمخدرات لا للإدمان .

ويجب على المجتمع بأسره أن يقف في وجوه تجار المخدرات والمهربين والمروجين والمتاجرين بالمسكرات ، بل ومساعدة الحكومات في القضاء على هذه الظاهرة التي تهدد مجتمعنا في أعز ما يملك – وهم شبابنا وأبناؤنا –وأن تشدد العقوبة الرادعة على من يعبثون بعقولهم، حتى يستقر المجتمع وينعم بالأمن والصحة ، فقد رُفعَ إلى عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) قومٌ يشربون الخمر فأمر بضربهم فقيل له : إن فيهم صائمًا فقال ابدؤوا به ، ثم قال : أما سمعت قوله تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ..} [النساء :١٤٠] .

ومن ثم فواجب علينا آباءً ومسئولين، ومربين ومواطنين استشعار خطورة هذا الداء ، وأن نتعاون جميعًا على نبذه وبيان أضراره ، فخطر المخدرات يستهدف المجتمع كله ، في تدينه واقتصاده ، وصحته وأخلاقه ، وتماسك أُسره ، واستقرار معيشته.

ويكفي استشعارًا لخطر المخدرات أنّ من وقع في شباكها وذاق سمّها تأتي عليه لحظة يتحول فيها من إنسان سوي إلى كائن مسعور ، يمكن أن يسرق ويقتل ، أو يبيع دينه في سبيل الحصول على ما يسكت خلاياه العصبية ، في مشهد يشبه حالة الجنون.

* * *

وجوب تقديم الكفاءات الوطنية في كل مجالات الحياة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الإسلام قد اشتمل على بيان علاقة الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى – العبادة– ، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان – المعاملة – لذا نجد أن هناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تنظم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وتضع لها الأسس والقواعد التي تساعد البشر على عبادة الله، وعمارة الأرض. فلا غرو إذا كان الإسلامُ نظامًا يتناول قواعد وشروط تنظم حياة الناس بأفضل الطرق.

كذلك نجد أن الشريعة الإسلامية كانت رائدة في تبني مبدأ العمل الجماعي ، لما فيه من توحيدٍ للهمم والطاقات ، وتعاون تتهاوى أمامه أصعب المهام وتتحقق من خلاله أعظم الإنجازات ، وما ذلك إلا لمساواة الناس جميعًا في الحقوق والواجبات ؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}. [الحجرات: ١٣]

ونجد أن الساعات الحاسمة في تاريخ المسلمين هي الساعات التي تتحول فيها الأمة كلها إلى (ورشة عمل)، كلٌّ في مكانه وكل له مكانته ، يشعر كل فرد أنه يشارك في البناء بل إنه ضروري لهذا البناء ، وهكذا قام

المجتمع الإسلامي الأول عندما شارك المسلمون كلهم في بناء المسجد بمن فيهم قائد هذا المجتمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وعندما استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين وتنازلوا عن شطر أموالهم ، ونفَّذوا هذا عمليًّا ولم يكتفوا بالأدبيات والكلام عن الأخوة الإسلامية ، وذلك مصداق قول الله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}. (المائدة:٢].

ومن الأهمية الإشارة إلى أن تَبَنِّي الحضارة الإسلامية أسلوب العمل الجماعي وبث روح الفريق في الجماعة ينبع من العقيدة الإسلامية ذاتها، مما يزيد الدافعية لدى أفراد فريق العمل ويجعل هناك نوعا من الرقابة الذاتية النابعة من الفرد نفسه على تصرفاته وأعماله ، ولعل هذا ما يبرر ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من تقدم ورقي في شتى المجالات ، فقد قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا }[آل عمران: ١٠٣]

وقد جربت الكثير من مؤسسات الدولة اختيار أهل الثقة ، على حساب إقصاء أهل الكفاءة ، فكان من نتيجة هذا المعيار المعوج ، امتلاء كثير من مؤسسات الدولة بالفساد والمفسدين ، وهذا أمر لم يعد خافيًا على أحد ، في الوقت الذي تلقفت فيه كثير من الدول هذه الكفاءات لتبنى بها حضاراتها ، فقامت على أسس من العلم والصلاح والاستقامة.

وبالنظر نجد أن قائد أول دولة إسلامية نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يتحرى الأقوياء الذين لهم القدرة على أداء ما نيط بهم من

مهام ، فيوليهم من أعمال هذه الدولة ما يمكنهم إنجازه على أكمل وجه، معتبرًا أن تولية العاملين في الدولة أمانة ، لا يقوم بها إلا قوي قادر على أدائها ، فعَنْ أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى منكبي ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) (صحيح مسلم) .

إن المجتمع يحمل من الطاقات الكبيرة ، والإبداعات العديدة، والواجب توجيه كل إنسان فيما يحسنه وفيما يبدع فيه ، وتوجيه الأفراد إلى مواقع الإبداع فهذا من الأهداف التربوية، تأمل هذا الحديث الشريف: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَالَ: (أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهُ عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ) (مسند أحمد) ، فنجد في هذا الحديث الشريف إعدادًا للمواهب والصفات والطاقات التي اتصف بها هؤلاء الصحابة الكرام ، كلٌ حسب ما قدِّر له من رزقٍ ، وحَسْبَ ما عليه من كفاءة.

وقد شهدت الدولة الإسلامية حِقبًا من الضعف ، ربما كان سببها عدم الأمانة في الاختيار وذلك بتقديم أهل الثقة ، وإقصاء أهل الكفاءة ، فأحدث ذلك صدعًا في جدار الأمّةِ الإسلامية والتي ما زالت تعانى منه حتى يومنا ، وإن مصر بما مر عليها من محنٍ وأحداثٍ جسامٍ ، ينبغي على

القائمين عليها تنقية مؤسساتها من العاملين بها المصنفين ضمن أهلِ الثقة والذين ولُّوا دُونَ اعتبارٍ لخبرةٍ أو كفاءةٍ ، حتى أنها تفتح المجال لاختيار من كان على شاكلتها ، وهذا ما يسفر عنه الواقع الأليم ، من انتشار الرشوة والفساد في أوصال الدولة ومؤسساتها المختلفة ، لكن كل من يقيم في هذه الدولة من أهلها أو من غيرهم ، يأمل في غدٍ تشرقُ شمسهُ على مؤسسات الدولة دون أن يكون بها مفسدٍ أو خائنٍ لأمانته ، تَمّ اختياره مجاملةً دون أن يكون له أدنى خبرة بما أسند إليه من عمل ، وإذا كان الإسلام يحض على إتقان العمل ، لما روته عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) (شعب الإيمان للبيهقي) ، فإن هؤلاء المفسدين لا يتقنون إلا لغة واحدة بعيدة كل البعد عن الصلاح والإصلاح.

ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) قدوة حسنة في تعامله مع أهله ، فكان يتعامل معهم بمعيار الكفاءة ؛ لذلك لم يستعمل منهم سوى الأكفاء في كل شيء ، حيث أَمَر ابن عمهِ علي بن أبي طالب بالنوم في مكانه أثناء الهجرة ليؤدى الأمانات إلى أهلها، فهو أحق الناس بهذه المهمة ، وأكفأ وأجدر من يقوم بها ، فكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يولِّ أحدًا من أقاربه أي منصبٍ إلا بمعيار الكفاءة.

ونجد أيضًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) يبحث عن الكفاءات في كل المجالات حتى لو لم يكونوا مسلمين ؛ فقد استعان بغير المسلمين في بعض الأحيان ، حيث استأجر رجلاً كافرًا اسمه (عبد الله بن أريقط)

ليكون دليله في دروب الصحراء عند الهجرة إلى المدينة (السيرة النبوية لابن هشام) ؛ لما له من معرفة وخبرة متمرسة بدروب الصحراء وطرقها ، فهو لهذه المهمة كفءٌ وللقيام بها أهل .

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يعامل أهله وعشيرته من منطلق أنهم أهل الثقة ، ولم يعينهم في المناصب القيادية ، بل كانت رؤيته أن يُولِي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح وأكفأ من يجده لهذا العمل ، فهو (صلى الله عليه وسلم) القائل: (مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ) [مسند أحمد].

ولم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعطى الولاية لأي شخص يطلبها أو يكون حريصًا عليها ، فعَنْ أَبِي مُوسَى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ قَوْمِي ، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: أَمِّرْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَهُ ، فَقَالَ: (إِنَّا لاَ نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ ، وَلاَ مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ) (متفق عليه) .

ولم يقتصر الهديُ النبوي الكريم على منع الولاية والإمارة عمن يسألها فحسب ، بل جاء التوجيه الكريم والإرشاد العظيم في أمر الولاية بالنهي عن سؤالها ، أو السعي في الحصول عليها ، كما ورد عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا) (متفق عليه) .

في حين أننا نفرق بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) في كونه بشرًا وكونه نبيًّا يوحى إليه ، نجد أنه في كلتا الحالتين لم تأخذه في الله لومة لائم فيما يتعلق بأهله وقبيلته؛ ولم يجامل أحدًا منهم على حساب دينه أو حساب أحدٍ ، فقد نزل قول الله – تعالى– في حق عمه أبي لهب: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}[المسد:١] ، فقالها ولم ينكرها حين نزلت ؛ في المقابل نرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) رؤوفًا رحيمًا بأهله، لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: (قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ) (صحيح البخاري) .

ونجد أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان يختار الرجل المناسب في المكان المناسب ؛ فعندما أرادَ أنْ يرسل ولاةً إلى اليمن أرسل في البداية معاذ بن جبل ثم بعده أبا موسى الأشعري ، وأخيرًا علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) على الرغم من أنه كان يقول: (أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا) [مستدرك الحاكم] ؛ لكنه لم يرسله باعتباره أحد أقاربه ، إنما باعتباره أحد العلماء؛ كذلك عندما أخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) البيعة من أهل المدينة أرسل معهم بعض أصحابه لم يكن منهم أي من أقاربه ، و لم يرسل أيًّا من أقاربه لأخذ البيعة من أهل المدينة.

وبعد اختيار أهل الكفاءات لابد أن نشجعهم ونشد من أزرهم حتى يبدعوا ويبذلوا قصارى جهدهم في عملهم سواء تشجيعًا ماديًّا أو معنويًّا أو بهما معًا نجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) فعل ذلك مع أبي قتادة، وسلمة بن الأكوع (رضي الله عنهما) في (غزوة ذي قرد) لما

رجعوا قافلين إلى المدينة بعد أن أبلى سلمة بن الأكوع وأبو قتادة (رضي الله عنهما) بلاءً حسنًا ، ثم ناموا في الطريق، قال سلمة (رضي الله عنه) : فلما أصبحنا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ). قَالَ : ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) سَهْمَيْنِ سَهْمُ الْفَارِسِ وَسَهْمُ الرَّاجِلِ فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا ، ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ) [صحيح مسلم].

تأمل هذه الحادثة ! وكم فيها من الثناء والتشجيع وتقدير الكفاءات؛ ففي قوله: (وخير رجالتنا سلمة) إعلان للتكريم أمام مجمع من الصحابة، ثم إن في إعطائه سهمين مكافأة أيضًا وتقديرًا لجهوده، ثم في إرداف النبي (صلى الله عليه وسلم) له على الدابة زيادة في التكريم والتقدير له، ولك أن تتصور مقدار التكريم حين يُركبك القائد معه في مركبته الخاصة تسير بصحبته أمام الناس. كم سيضاعف هذا الثناء والتقدير من نشاطٍ في نفس سلمة أو أبي قتادة (رضي الله عنهما)، بل كم سيحرك في نفوس الآخرين حين يكون المدح في محله!.

إن كثيرًا من القدرات ، وكثيرًا من أصحاب الكفاءات يصابون بالضمور ، بل ربما يموتون وتموت مواهبهم وقدراتهم ؛ لأنهم لا يجدون من يدفعهم بكلمة ثناء ، أو يرفعهم بعبارة تشجيع؛ إننا حين نثني على أصحاب القدرات لسنا نحفظ ونضمن جهد المجتهد منهم فحسب ، بل إننا نحرك نفوسًا ربما لا يحركها أسلوب آخر.

جدير بالذكر أن الإسلام يرفض المحاباة أو التستر على أهل الفساد والإفساد ، مهما كان قدرهم ومهما كانت منزلتهم ، فهذا رسولنا الكريم

(صلى الله عليه وسلم) كان يرفض أن يحابى أحدًا من أهله وعشيرته ، وكان يقول : (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَأَيّمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (متفق عليه) .

ولم يُعرف عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) طوال حياته التزكية أو الترقية أو تعيين أحد أقاربه في أي منصب من مناصب الدولة ، خوفًا من ضياع الأمانة، التي كان حريصًا على استقرارها عند أهلها، فهو (صلى الله عليه وسلم) القائل:(إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. قِيلَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) (صحيح البخاري).

ولم تكن المحاباة يومًا من الأيام سبيل تولى المناصب ، أو الحصول على مكاسب ، فإن أنبياء الله تعالى ورسله كان دأبهم وحرصهم الأول على تولي أهل الكفاءة ، وأصحاب المسئولية، حيث قال الله – تعالى– مخبرًا عن نبيه يوسف (عليه السلام) : {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}[يوسف: ٥٥] ، كذلك فهمت ابنة الرجل الصالح أن الكفاءة شرط في تولي القيادة ، وإسناد العمل للفرد وتكليفه به ، دون مجاملة أو محاباة ، قال تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}[القصص: ٢٦].

وهذا نبي الله موسى (عليه السلام) حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها استخلف أخاه هارون ، قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[الأعراف:

١٤٢] ، وأوصاه بالإصلاح في أمرهم وفي نفسه ، كذلك نهاه عن اتباع سبيل العاصين ، ولا يكن عونًا للظالمين .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن دين الإسلام قد جاء ليؤسس لقواعد صارمة وحاسمة للأمور الإدارية التي دعت إليها بعد قرون مختلف النظريات الإدارية المعاصرة ، وتعرف الإدارة في الإسلام بأنها الولاية أو الرعاية التي تأتي في نطاق المسئولية التي تلزم وجود أمانة لدى من يتصدى لشئون الإدارة على اختلاف أنماطها ومستوياتها ، كما وضع الإسلام جملة من الركائز لفن الإدارة ، من تقديم أهل الكفاءة ، باعتبارها أصلًا من أصول علاقات العمل.

وهناك أحاديث نبوية شريفة كثيرة تحدثت عن الإدارة ، وسبل اختيار المسئُول أو القائد، وتقديم الكفاءة وحُسْن الإدارة على غيرهما ، منها ما يشير إليه حديث ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وخانَ رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ) [مستدرك الحاكم]، وكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم):) اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ) (صحيح مسلم) .

وهذا يبين لنا خطورة تقديم الولاء أو غير الأكفاء على أصحاب الخبرة من أهل الكفاءة ومتقني الإدارة ، الذي قد يلحق ضررًا أو يأتي بِشَرٍّ على الفرد والمجتمع ، فعن مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) [صحيح مسلم]. فكل هذه الأحاديث تشير إلى ضرورة أن يتولى الإدارة أهل الصلاح والإصلاح، وأهل المعرفة والإتقان ، وأهل الكفاءة والخبرة في مجالاتهم ، وتقديمهم على غيرهم.

فالإدارة فن أقره الإسلام ، وأوصى باختيار الرجل المناسب في المكان المناسب ، سواء على مستوى المؤسسات العامة أو المؤسسات الخاصة أو حتى مستوى الأسرة ، واختيار هذا الرجل يجب أن يعتمد على شرط الكفاءة ، وحين اختار الله – سبحانه وتعالى– لبني إسرائيل ملكًا يقاتلون وراءه في سبيل الله ، اختار طالوت عليه السلام ، وبيّن علامات صلاحيته لتلك القيادة ، بقوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٤٧]، فجعل القدرة الجسمية اللازمة والعلم الواجب علامتان لكفاءته ودلالة على أهليته للقيادة. يقول الإمام القرطبي: قوله: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ} أي: اختاره وهو الحجة القاطعة، وبيَّن لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت، وهو بسطته في العلم الذي هو ملاك الإنسان، والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء، فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة ، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا

بالنسب ، لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته ، وإن كانوا أشرف منه نسبًا ، وقيل: زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة، ولم يرد عظم الجسم.

ومن هنا فقد حرص الإسلام على رفع المستوى الثقافي وغرس روح المبادرة وحسن التصرف، وكذلك التركيز على التدريب المشترك لجميع الأفراد والتركيز على التدريب المستمر على العمل في ظروف متعددة وطارئة واستخدام الإمكانات المتاحة ، وذلك لحل المشاكل التي قد تواجه المؤسسات.

ونجد في نصوص الإسلام أن التدريب والتطوير يعد من الضرورات الحيوية لإعداد القوة التي أمر بها الإسلام ، كما تحتوي توجيهات الإسلام في التدريب الإتقان في التدريب لبلوغ أعلى قدر من الكفاءة ، ومن مقتضيات هذا المبدأ ألا يكتفي المسلم بالمستوى التدريبي الذي بلغه، بل عليه أن يجود فيه ويرفع مستواه بالمزيد من التمرين والمعرفة ، فقد أمر الله تعالى نبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم) أن يقول: { رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }[طه: ١١٤] ، وهذه المسئولية تقع على عاتق الفرد قبل أن تقع على قيادته.

ومن أهم مبادئ التدريب الحديثة الاستمرارية ؛ لأن الاستمرار يحقق فائدتين كبيرتين هما: المحافظة على مستوى كفاءة الفرد ، ودعم هذه الكفاءة والارتفاع بها إلى مستوى أفضل. وهذا ما يفهم من قول رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو يحذر المسلمين من الانقطاع عن التدريب: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (.. وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَمَا عَلِمَهُ فَقَدْ كَفَرَ الَّذِي عُلِّمَهُ). [سنن أبي داود] .

ومن المعروف أيضًا أن المنافسة من أفضل الحوافز على الإجادة والإتقان لأنها من وجهة نظر علم النفس تحرك في الإنسان دافعًا ذاتيًّا لكي يتفوق على غيره ؛ ولهذا كان التنافس من مبادئ التدريب التي تستهدف رفع مستوى الكفاءة لدى الأفراد ، وقد كان رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) معنيًّا غاية العناية بهذا المبدأ ، فكان يشجع على المسابقات في كل مجالات التدريب البدنية والرياضية والفروسية والرمي بالسلاح ، بل كان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يشترك بنفسه فيها تحفيزًا للهمم وإذكاءً لروح التنافس البريء والمشجع .

وحيث أكّدَ الإسلام على المبادئ الأساسية للتدريب ، في الماضي والحاضر ، فإن الإسلام الحنيف قد سبق غيره من الأنظمة الحضارية في تأصيل وتجديد وإقرار هذه المبادئ التدريبية الإيجابية والتي يؤدي تطبيقها إلى رفع مستوى الكفاءة النوعية.

من هنا نؤكد على أن المسئولية تكليف لا تشريف ، فالقائد للأمة خادمها وراعيها، وينبغي إمداد الدولة بالطاقات البشرية ، ومراعاة الدقة في الاختيار ، والاعتماد على أصحاب الكفاءات والثقات ، الكفيلة بمواجهة الشدائد ، والقادرة على النهوض بالأمة.

* * *

خطورة الدعوات الهدامة وضرورة التصدي لها لتحقيق الأمن والاستقرار

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن من أجل نعم الله (عز وجل) على الإنسان نعمة الأمن والاستقرار ، فبدونها لا يهدأ للإنسان بال ، ولا تطمئن له نفسٌ ، ولا يهنأ إنسان بالحياة حتى لو أوتي الدنيا بحذافيرها ، فسعادة الدنيا ونعيمها في تحقيق الأمن والاستقرار ، ففي حديث النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا في سربِهِ، مُعَافَىً في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا) [سنن الترمذي] .

فنعمة الأمن والاستقرار مطلب كل مخلوق على وجه الأرض ، طلبها إبراهيمُ (عليه السلام) لأهلِهِ وقومِهِ ، حيث قالَ: {رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَدًا آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}(البقرة: ١٢٦) ، فإبراهيم (عليه السلام) سأل الله (عز وجل) أن يمُنَّ على مكة بالأمن والرزق ، وقدّم الأمن على الرزق ، لأن الرزق لا تكون له لذة إذا فُقد الأمن ، فبالأمن يهنأ الإنسان ويشعر بقيمة الحياة ، فاستجاب الله لدعاء نبيه وخليله ، وجعل من مكة مستقرًّا وبلدًا آمنًا بإرادته ومشيئته ، وجعلها وطنًا للإسلام ، وذلك ببركة دعاء إبراهيم (عليه السلام) ، بل إن

إبراهيم (عليه السلام) قدم نعمة الأمن على العبادة والتوحيد ، فقال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}. (إبراهيم: ٣٥).

كمَا امتَنَّ اللهُ (تعالى) بهذه النعمة العظيمة علَى أهْلِ قُريشٍ ، فحبَاهُمْ برَغَدِ العيشِ فِي الحياةِ ، والأمْنِ فِي الأوطانِ ، قالَ تعالَى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} (قريش: ٣، ٤) .

كمَا منَّ عليهم بأن جعل لهم حرمًا آمنًا ، فقال سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}(العنكبوت: ٦٧) ، فبالأمن والاستقرار ترتقي الأوطان ، ويستقر الناس في حياتهم ومعاشهم ، وتتقدم الأمم والمجتمعات ، وينمو ويتطور الاقتصاد ، وهذا ما بينه القرآن الكريم حين امتن الله (تعالى) على أهل سبأ بنعمة الأمن والاستقرار ، فقال تعالى : {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ}(سبأ: ١٨) ، فما تقدمت أمة من الأمم ، وما ارتقى مجتمع من المجتمعات إلا إذا ساد الأمن، وعم الاستقرار بين أفراده.

إن اختلال الأمن والاستقرار يؤثر على البلاد والعباد ، حتى في العبادات – وهي الهدف الأول من خلق الإنسان – ، ولهذا كانت صلاة الخوف مختلفة عن صلاة الأمن في صفتها وهيئتها، والحج كذلك يشترط في وجوبه على الإنسان أمن الطريق ؛ فإذا كان الطريق غير آمن فلا يجب عليه الحج ، ومن هنا فإن العبادات لا يتأتى الإتيان بها على أكمل صورة إلا بنعمة الأمن والاستقرار.

فإذا شاع الأمن في أمة ، واطمأن كل فرد فيها على نفسه وماله وعرضه نَعِمَ المجتمع بحياة هادئة مستقرة لا رعب فيها ، ولا اضطراب ، ولا قلق ، ونَعِمَ المجتمع كذلك بالتقدم والازدهار ، ومن ثمَّ فإن استقرار الأوطان ضرورة شرعية ومطلب وطني ، ومقصد عظيم من أهم مقاصد الدين.

ومن عوامل الاستقرار : أن يحب الإنسان وطنه الذي يعيش فيه بكل حرياته المشروعة ، وأن يشعر بقيمة الوطن الذي ترعرع على ثراه ، وهذا ما جسده النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عمليًّا ، حين هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، فقد علمنا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حب الأوطان وشرف الانتماء إليها ، وكان حبه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لوطنه مكة المكرمة وشعوره بقيمته هو الأساس ، رغم قسوة أهلها ، فقال متأثرًا لفراقها : (وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ) [مسند أحمد]، وفي رواية عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لِمَكَّةَ : (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ) [سنن الترمذي].

ولما هاجر إلى المدينة المنورة وشرع في بناء الدولة الحديثة أراد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن يعلم أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) والدنيا كلها أن الأوطان لا يسعى لبنائها إلا من أحبها ، فكان من دعائه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ما جاء عن أم المؤمنين عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ) [صحيح البخاري]. فما سأل النبي الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) محبةَ الوطن إلا لتحقيق الاستقرار والطمأنينة لكل أفراده.

ومن ثمَّ وجب على الإنسان أن يحافظ على وطنه بحبه وصيانته ، والدفاع عنه ، وأن ينهض بواجباته ومسؤوليّاته نحوه ، فَلِلْوَطَنِ فِي الإِسْلامِ شَأْنٌ عَظِيمٌ ، والتَّفْرِيطُ فِي حَقِّهِ خَطَرٌ جَسِيمٌ ؛ لذلك أعلى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من قيمة الرجل الذي يحافظ على استقرار وطنه ، ويضحي من أجله بأن الله (عز وجل) لا يعذبه ولا تمس النار عينه ، فالجزاء من جنس العمل ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [سنن الترمذي] ، فحبُّ الوطن من عواملِ الاستقرارِ الأساسية لأيِّ مجتمعٍ ، فالإنسانُ إذَا أحبَّ وطنَهُ استشعَرَ مسئوليةَ المحافظةِ علَى أمنِه واستقرارِهِ ، ولاَ يستجيبُ لِمَنْ يَسْعَى لِخرابِ الأوطانِ مِنَ الأدعياءِ ، لأنَّ الإنسانَ إذَا اطمأَنَّ فِي موطنِهِ استقرَّتْ نفسُهُ وأبدَعَ فِي عملِهِ وعَظُمَ إنتاجُهُ وعطاؤُهُ.

ومِنْ عواملِ الاستقرارِ - أيضا- : إشاعةُ التآلُفِ والتعاون بينَ الناسِ، قالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ) [متفق عليه] ، والبعد عن الخلافِ والنِّزاعِ ، فإنَّهُ شرٌّ يَجُرُّ إلَى الْفُرْقَةِ والضياعِ ، قالَ تعالَى:{وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال: ٤٦). فالحذرَ الحذرَ مِنَ الخلافِ والنِّزاعِ ، فإنَّهُ شرٌّ يَجُرُّ إلَى الْفُرْقَةِ والضياعِ ، والحذرَ الحذرَ مِنَ الانتماءاتِ أَوِ التحزُّبَاتِ ، فإنَّهَا شَرٌّ يُؤَدِّي بالمجتمعاتِ إلَى التفكُّكِ والشتاتِ ، فيجب أن يتآلف الجميع ويتعاون لتحقيق استقرار الأوطان ، وهذا ما أمر الله (عز وجل) به فقال:{وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ

تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (المائدة:٢).

ومن أعظم الأمور التي تساعد في تحقيق استقرار الأوطان: السمع والطاعة لولي الأمر في غير معصية الله (عز وجل) ، قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (النساء: ٥٩) ، فولي الأمر هو ظل الله في الأرض، كما قال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ أَكْرَمَهُ أَكْرَمَهُ اللهُ ، وَمَنْ أَهَانَهُ أَهَانَهُ اللهُ) [شعب الإيمان للبيهقي] ، وقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الدُّنْيَا أَكْرَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الدُّنْيَا أَهَانَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [مسند أحمد].

إن طاعة ولي الأمر في طاعة الله ومصلحة الوطن عقيدة يدين بها المسلم لربه ، فإن أمر بأمر أو نهى عن أمر وجبت طاعته مالم تكن معصية لله (عز وجل) ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي ، وَإِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ ، فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا ، وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ) [صحيح البخاري]، فطاعة ولي الأمر في غير معصية الله فيها صلاح الدين والدنيا،

وعصيانه فيه فسادهما ، ومعنى (جُنَّة) أي: ستر وحجاب عن الفتن والشرور.

ومن ثمَّ فعلى المرء السمع والطاعة لولاة الأمر ، ولا يخرج على جماعة المسلمين فيفرق كلمتهم ، فعن أَبِى هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِي لِذِى عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَلَسْتُ مِنْهُ) [صحيح مسلم] .

ولعل السبب في ضرورة السمع والطاعة لأولي الأمر أن ما يترتب على معصيتهم وعدم طاعتهم من المفاسد أضعاف ما قد يحصل بالخروج عليهم، على أن للنصح والإصلاح طرقًا ووسائل سلمية وديمقراطية متعددة ، وذلك حتى تجتمع كلمة الأمة ، ومنع الفرقة والشقاق ، وما يترتب عليهما من قتل وسفك للدماء ، وانتهاك للأعراض ، واعتداء على الحرمات ، وتدمير البلاد ، وضياع الأموال ، وتشتيت الشمل ، وهذا مشاهد وواضح للجميع نتيجة الفوضى التي سببها عدم السمع والطاعة لبعض ولاة الأمور .

ومن أعظم الأمور التي تهدد استقرار الوطن : إشعال الفتن التي تؤدي إلى زوال النعم ، وحلول النقم ، وقطع التواصل بين الشعوب والأمم ، وتؤدي إلى انتشار الرذيلة ، وطرد الفضيلة ، وبث روح العداوة والبغضاء ، والقضاء على روح المودة والإخاء ، فالفتن نار تأكل اليابس

والأخضر ، تفرق بين المرء وأخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وتؤدي إلى البعد عن طاعة رب العباد ، موقظها ملعون ، وناشرها مفتون ، تفسد الأحوال وتؤدي إلى سوء المآل ، القاتل والمقتول فيها مصيره النار وبئس القرار.

لذا كان الإسلام حريصًا أشد الحرص على وقاية المجتمع من الفتن والخوض فيها ، ووجهنا النبي الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بتوجيهات وقائية حال وقوع الفتن ، وعلَّم المسلم كيف يتعامل معها ويواجهها ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ – أَوْ يُوشِكُ أَنْ يأتي زَمَانٌ– يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً تَبْقَى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا) وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، فَقَالُوا : وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: (تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ) [سنن أبي داود] ، وقوله : (كيف بنا) يعني بم تأمرنا عند ذلك ؟ قال: (تأتون ما تعرفون) يعني: أَيْ مَا تَعْرِفُونَ كَوْنه حَقًّا، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ : أَيْ مَا تُنْكِرُونَ أَنَّهُ حَقّ .(عون المعبود) ، و (حُثَالة) بِضَم الْحَاء وَتَخْفِيف الثَّاء هِي: رَدِيء كل شَيْء وَمَا لَا خير فِيهِ.

فالله الله في الوحدة والمحافظة على الوطن ، والحذر الحذر من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، فلقد حذرنا منها ربنا (سبحانه وتعالى) في كتابه الكريم في أكثر من موضع ، من هذه المواضع ما أخبر الله (عز وجل) به أن الفتن لو نزلت لن تفرق بين مؤيد لها أو معارض، قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقابِ}(الأنفال: ٢٥) ، وكذا حذرنا منها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كثيرًا ، فعن حُذَيْفَة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا – أي: قبلهَا وَسكن إِلَيْهَا – نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا – الْحجر الأملس– فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا – المرباد والمربد: الَّذِي فِي لَونه ربدة: وَهِي لون بَين السوَاد والغبرة كلون النعامة – كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا – المجخي: المائل ، وَيُقَال مِنْهُ: جخى اللَّيْل: إِذا مَال ليذْهب. وَالْمعْنَى: مائلا عَن الاسْتقَامَة منكوسًا– لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ) [صحيح مسلم] ، وعن أبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ ، وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ) [متفق عليه] .

إن الواجب على المسلم العاقل أن يتجنب الفتن وما يثيرها ، وأن يتعامل معها بحذر، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِلْأَنْصَارِ : (إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي وَمَوْعِدُكُمُ الحَوْضُ) [صحيح البخاري] ، و(أَثَرَةً) من الاستئثار ، أي: يُستأثَر عليكم بأمور الدنيا ، ويُفضَّل غيركم عليكم ، ولا يُجعَل لكم في الأمر نصيب .

إن تحاشي طريق الفتن والتحرز من الوقوع فيها شيمة المسلم الذي يحب النجاة لنفسه في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك يمتدح النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من يحتاط لنفسه ويجنبها الانغماس فيما يقع فيه الناس من الفتن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الماشي ، والماشي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الساعي ، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ) [متفق عليه] .

والسلامة من الفتن تكون باتباع أمر الله تعالى ، وأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ولزوم الجماعة ، وطاعة ولاة الأمر في المعروف ، وفي مصلحة الوطن ، لذا حذر الله تعالى من يخالف ذلك من أن يغمس في الفتن في الدنيا مع ما ينتظره في الآخرة من عذاب أليم، يقول الله تعالى:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النور: ٦٣).

فيجب أن يتعاون الجميع من أجل النهوض بهذا الوطن المبارك ، والسعي إلى رقيه بِالجِدِّ وَالاجتِهَادِ ، والحفاظ على ممتلكاته ، والتقيد بأخلاقه وقيمه ، وأنظمته وقوانينه ، حتى نرقى بأنفسنا ونحافظ على أمننا واستقرارنا ، فالمواطن الصالح هو من يبني وطنه ويعمل على استقراره ويحافظ عليه ، ولا يسير خلف أصحاب الهوى والمصالح الشخصية ، والدعوات الهدامة الفاسدة والذين يسعون من خلفها لخراب الوطن ونشر الفوضى ، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (آل عمران : ١٠٣).

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

ومن أعظم الفتن التي تهدد أمن واستقرار المجتمع : الدعوات الهدامة التي تصدر من مرضى القلوب وضعفاء الإيمان ، الذين لا يؤمنون بوطنهم ، أصحاب الفكر المتطرف الذين يعملون على تفكيك المجتمع وزعزعة أمنه ، وهدم بنيانه وتمزيق أوصاله ، وزلزلة أركانه وتفريق كلمته ، لا يكفون عن أساليبهم ومؤامراتهم الخبيثة التي ليس لها هدف سوى إسقاط الدولة والنيل من استقرارها.

إن أخطر ما يهدد البلاد ويؤدي إلى الفرقة والتشاحن إساءة استخدام الدين ، والمزايدة به ، سواء بالشعارات الجوفاء أم بالخطب الرنانة ، أم بالمجادلات العقيمة التي لا تحقق نتيجة ، ولا تصل إلى غاية، وقد ظهرت في أيامنا الأخيرة بعض الأصوات الشاذة والدعوات الهدامة التي تدعو بلا حياء ولا خجل إلى الإفساد في الأرض ، وسفك الدماء ، وترويع الآمنين ، وإشاعة الفاحشة ، ورب العزة (عز وجل) يقول في كتابه العزيز : {إِنَّ الذين يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} . (النور:١٩).

هذه الدعوات الهدامة التي يسعى أصحابها لخراب المجتمع ، ونشر الفوضى ، وضياع هيبة القانون تشكل خطرًا بالغًا على الأمن القومي للأوطان ، وتعد أكبر وأهم وقود للتطرف والإرهاب ، وتعطي ذريعة لوصف المجتمع بما ليس فيه ، تلك الدعوات التي يرفعونها قد تؤدي إلى فتن عظيمة تعصف بالبلاد والعباد من قتل وتدمير وتخريب ، وزعزعة لأمن الفرد والمجتمع ، ولنا فيما حولنا من الدول التي سقطت في الفوضى عبرة ومتعظ ، وديننا الإسلامي يدعو إلى كل أمن وأمان واستقرار ، وينبذ كل عدوان وإرهاب .

* * *

محاربة الفساد والإهمال
مطلب شرعي وواجب وطني

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فقد جاءت الرسالات السماوية بتوجيهات وأحكام للناس تهدف إلى إصلاح الأرض وحفظ مقوماتها ، ولن يتمكن الإنسان من أداء المهمة العظيمة التي خلق من أجلها وهي العبادة حتى يقوم بمهمة المحافظة على صلاح الأرض وإصلاحها.

والمتأمل لآيات الإصلاح في القرآن الكريم يجد أن كلمة الإصلاح وردت بمشتقاتها في القرآن الكريم حوالي مائتي مرة ، والإكثار من ذكر الشيء يدل على العناية به، ويدل كذلك على شرفه وعلو مكانته.

إن الإصلاح مطلب شرعي ، أمر الله (عز وجل) به الأنبياء (عليهم السلام) فأمروا به أقوامهم، فرسالة الأنبياء جميعا (عليهم السلام) هي إصلاح الفرد والأرض : فهذا نبي الله صالح (عليه السلام) ينادي في قومه: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}[الشعراء:١٥٠-١٥٢] .

وهذا نبي الله شعيب (عليه السلام) يقول لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[العنكبوت:٣٦] ، ثم وضح لهم

حقيقة دعوته وأنها دعوة للإصلاح فقال: { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨].

والإصلاح وصية نبي الله موسى (عليه السلام) لأخيه هارون (عليه السلام) حيث يقول له: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف:١٤٢] .

ولم يبخل نبي الله موسى (عليه السلام) بالنصيحة لقارون الذي فُتن بماله واستغله في الإفساد في الأرض ، فقال له: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٧٧] .

لقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان بالله (عز وجل) والإصلاح قال تعالى: (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [الأنعام:٤٨]، وبين التقوى والإصلاح كقوله تعالى: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأعراف:٣٥]، وبين التوبة والإصلاح كقوله تعالى:{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا} [البقرة:١٦٠]، وقوله تعالى: {فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا} [النساء:١٦] ، وقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور:٥] ، فالإصلاح إذا هو ثمرة الإيمان والتقوى والتوبة.

ومن فوائد الإصلاح التي أخبر عنها القرآن الكريم أنه يستجلب رحمة الله ومغفرته، قال تعالى: {وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا

رَّحِيمًا}[النساء:١٢٩] ، وأنه سبب لنجاة الأمم من الهلاك والضياع ، قال سبحانه: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ*وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٦-١١٧]. إذًا فالإصلاح مطلب شرعي وضرورة إنسانية يقتضيها العقل، وهو مسئولية الجميع.

وإن من الإصلاح أن يعي الفرد ماله وما عليه ، فلا يعتدي على حقوق الآخرين ، وأن يدرك الفرد واجباته فيقوم بها خير قيام في حدود طاقته ووسعه، وهذه صفات الفرقة الناجية التي أخبر عنها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) في قوله : (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ) (صحيح مسلم).

وكما أمر الإسلام بالإصلاح وجعله مطلبا شرعيا وضرورة إنسانية حذر كل التحذير من الإفساد في الأرض حسيًّا كان أو معنويًّا ، باليد كان أو باللسان ، والفساد هو كل قول أو فعل أو تصرف أو سلوك خالف تعاليم الإسلام السمحة التي تدعو إلى الإصلاح في الأرض.

وفي القرآن الكريم ورد التحذير الشديد من الفساد والمفسدين ، فلقد ورد لفظ (الفساد) في أحد عشر موضعا من ثمان سور، وورد لفظ (المفسد) في موضع واحد من سورة البقرة ، وورد لفظ (المفسدون) أو (المفسدين) في عشرين موضعًا من اثنتي عشرة سورة ، وورد لفظ (يفسدون) في خمسة مواضع من خمس سور ، من هذه المواضع قال تعالى: { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦]، وأخبر المولى (جل جلاله) أنه لا

يحب الفساد ولا المفسدين ، قال سبحانه: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥]، وقال: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ}[المائدة: ٦٤]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِين}[القصص: ٧٧].

وأخبر القرآن الكريم أن الله (عز وجل) يبطل أعمال المفسدين ويخيّب آمالهم ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ} [يونس: ٨١]. فكل مفسد ـ وإن ادّعى صلاحًا ـ عمل عملا بمكر ودهاء منه ، فإن عمله سيبطل ، وإن تحقق لعمله الفلاح بعض الوقت ، فهو فلاح مؤقت ، فإن مآله المحقق عدم الصلاح ، وهذا هو حال المنافق المفسد المدعي الإصلاح ، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[البقرة: ١١، ١٢].

وبفساد الإنسان تفسد البيئة ، قال تعالى: { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١]، وذلك بظهور الأسقام ونقص الثمار، ومحق البركة من كل شيء. وقال تعالى في كتابه العزيز: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة : ٦٠]، وعبر بكلمة (تَعْثَوْا) وهي أشد أنواع الفساد ، أي :لا تفرطوا في الإفساد ولا تفسدوا دنياكم بالتمادي في المعاصي . فالفساد في الأرض هو خلق اللئام من البشر، لا يتخلق به إلا المنافقون واليهود المغضوب عليهم ، الذين قال الله فيهم:{وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ}[المائدة: ٦٤]، أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله، وإثارة الشر والفتنة فيما بينهم.

وللفساد صور متعددة أخطرها ما كان في العقيدة والفكر والتصور والإدراك ، وكل ما كان باسم الدين ، فقد ابتليت الأمة بأناس يفسدون في الأرض ويتدثرون بثياب الدين والدين منهم براء ، فيقتلون ويستبيحون الأعراض والأموال باسم الدين ، فهؤلاء ذمهم الله عز وجل في كتابه فقال عنهم : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ }[البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

إن الفسادَ بكل صوره وأنواعه يُزعزِعُ القِيَم الأخلاقيَّة ، وينشُر السلبيَّة وعدمَ الشعور بالمسئولية، والشعورَ بالظلم، مما يُؤدِّي إلى حالاتٍ من الاحتِقانِ والحِقدِ والتوتُّر والإحباط واليأسِ من الإصلاح، ويضعُفُ الولاء الصادق للحق وللأمة وللدولة، ويُهدِّدُ الترابُط الأخلاقيَّ، وقِيَم المُجتمع الحميدة المُستقرَّة. والفسادُ داءٌ مُمتدٌّ لا تحُدُّه حدودٌ، ولا تمنعُه فواصِلُ، يطَالُ المُجتمعات كلَّها بدرجاتٍ مُتفاوِتة ، ولابد من التصدي للفساد والمفسدين بكل صوره ، فالتصدي له فيه نجاة للمجتمع كله ، وإهماله وعدم التصدي له فيه الهلكة للمجتمع كله ، قال (صلى الله عليه وسلم): (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ

نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا) (صحيح البخاري) فلابد من التآزر والتعاون والتناصر والتضامن بين المسلمين وتحقيق الإيمان والأخوة الإسلامية.

إن الله تعالى قرن بين النفاق والإفساد في الأرض، فقال تعالى – في سياق حديثه عن المنافقين-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١١، ١٢]، فكيف بك أيها المفسد وأنت تسير في طريق المنافقين توشك أن تصل إليهم في الدرك الأسفل من النار؟!!

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن تطهير الأرض من المفسدين وتأمين الطرق والمنشآت وحمايتها من المفسدين من أعظم أعمال الخير وأجل أنواع البر ، فالله (عز وجل) يدفع بالمصلحين فساد المفسدين ، وقال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ}[هود: ١١٦]. وإن المفسد مِعول هدم للمجتمع، فلا نجاة للعباد إلا بمنعه من الفساد.

والتصدي للفساد مسئوليَّةُ الجميع أيضا ، وأول صور التصدي للفساد عدم قبوله ورفضه وبيان خطورته على الفرد والمجتمع ، فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (الدِّينُ

النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا : لِمَنْ؟ قَالَ : (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ) (صحيح مسلم) .

ومن صور التصدي للفساد تفعيل القوانين الرادعة لكل مفسد ، وكما قال سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه): (إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن) (البداية والنهاية).

إن من أعان المفسدين أو رضي بأفعالهم أو تستر عليهم وخاصة من يفسد باسم الدين فهو شريك لهم في الإثم ، وقد نهى الله (تعالى) عن ذلك بقوله:{وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ}[المائدة:٢]، وفي الحديث : أن رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : (إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ) (مسند أحمد).

على أننا نؤكد على ضرورة القضاء على الإهمال ، وبيان أنه لا يقل خطورة عن سائر ألوان الفساد ، فضياع المال إهمالا كضياعه فسادًا أو إفسادًا ، وقتل النفس نتيجة الإهمال كقتلها فسادًا أو إفسادًا ، لأن المحصلة واحدة هي ضياع المال أو قتل النفس ، مما يتطلب من كل واحد منا القيام بواجبه على أكمل وجه ، (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه)، كما أنه مسئول عما استعمله الله (عز وجل) عليه، وولاه إياه ، فعليه أن يؤدي الأمانة التي تحملها على الوجه الأكمل مرضاة لله ورسوله ووفاء بالمسئولية التي تولاها ، والأمانة التي تحملها ، والوطن.

* * *

النظافة وأهميتها للفرد والمجتمع

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد عني الإسلام عنايةً بالغة ببناء الإنسان ورعايته صحيًّا، ونفسيًّا، وسلوكيًّا ، فحثَّهُ على النظافة وأمره بها، وجعلها ضرورة شرعية لحمايته من الأمراض والأضرار ، فهي من أسباب صحة الأبدان وسلامتها وطهارتها ، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا}[الفرقان: ٤٨]. هذا الماء الطهور هو نظافةٌ للأبدان وسلامةٌ لها ، فرسالة الإسلام تتطلب أن ينعم أبناؤها بأجسامٍ قوية تجري في عروقها دماء العافية ، ويمتلئ أصحابها فتوة ونشاطًا ، فإن الأجسام الهزيلة لا تطيق عبئًا ، والأيدي الضعيفة لا تقدم خيرًا ، ورسالة الإسلام أوسع في أهدافها وأصلب في كيانها من أن تحيا في أمة ضعيفة عاجزة، {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦]، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ) (صحيح مسلم). فالمسلم القوي نافع لنفسه، ودينه، ووطنه، من هنا كانت عناية الإسلام ببناء إنسان قوي البنيان، مستقيم النفس ، حسن السلوك ، عالم بأمور دينه ودنياه .

كما أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن النظافة سبب لمحبته ، فقال:{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة: ٢٢٢] ، ولقد مدح الله عباده المؤمنين بحرصهم على تنظيف أجسادهم وتنظيف ظواهرهم، كما ينظفون بواطنهم، فقال تعالى: (لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) [التوبة: ١٠٨].

ولما كانت النظافة ضرورة شرعية في حياة الإنسان ، لازمة له ، جعلها الإسلام نصف الإيمان ، فعَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِىِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ – أَوْ تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا) (صحيح مسلم) .

وجعلها جزءًا لا يتجزأ من شرائعه فشرع الاستنجاء ، والوضوء ، والسواك ، والغسل ، وخصال الفطرة، وجعل الطهارة شرطًا لصحة كثير من العبادات كالصلاة ، والطواف ، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ...}[المائدة : ٦]، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (تَسَوَّكُوا، فَإِنَّ السِّوَاكَ مَطْيَبَةٌ لِلْفَمِ ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ ، مَا جَاءَنِي جِبْرِيلُ إِلا أَمَرَنِي بِالسِّوَاكِ حَتَّى لَقَدْ حَسِبْتُ أَنْ يَفْرِضَهُ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي ، وَلَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي فَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ، إِنِّي

لأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أُحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي) (المعجم الكبير للطبراني).

وحرصًا من الإسلام على صحة الإنسان حرَّم على المسلم أن يأتي زوجه أثناء حيضها، فسمى الله عز وجل الحيض أذى ، نظرًا لما فيه من أضرار نفسية وجسدية تؤثر على كلا الزوجين، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة: ٢٢٢].

واهتمام الإسلام بالنظافة لا يدانيه اهتمام في الشرائع الأخرى ، فلم ينظر إليها على أنها مجرد سلوك إنساني مرغوب فيه أو متعارف عليه اجتماعيًا فحسب ، بل جعلها سلوكًا حضاريًّا وخلقًا وأدبًا عظيمًا من آداب الإسلام ، فهي سلوك رفيع وقيمة عظيمة تحبها الفطر السليمة ، ولم يقتصر الشرع على الاهتمام بنظافة البدن فحسب ، بل اهتم بنظافة ما من شأنه أن يحافظ على صحة الإنسان ، فجعل للنظافة مجالات متعددة ، ومن ذلك حثه على حفظ الأطعمة والأشربة من كل ما يلحق بها الضرر ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ، لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وِكَاءٌ، إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءِ) (صحيح مسلم).

إن نظافة المأكل والمشرب ، وكذلك نظافة البدن والأسنان وغسل اليدين قبل الأكل وبعده وقاية للمجتمعات من الأمراض والعلل، وتوفير

لثمن العلاج والتكلفة المرهقة للمستشفيات والدولة ، والوقاية خير من العلاج ، قال تعالى:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...} [التحريم: ٦] .

وكذلك حثَّ الإسلام على نظافة الملبس وألزم المسلم أن يهتم به وبطهارته ، فبعد أن أمر الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) بذكره وتكبيره وإنذار قومه أمره بتطهير الثوب ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) (المدثر: ١ – ٤) ، فقرن سبحانه الأمر بطهارة الثوب بهذه الأوامر لأهمية الطهارة والنظافة ، ولأنها صفة يحبها الله عز وجل ، وفسر العلماء الطهارة هنا بطهارة ونظافة الداخل والخارج ، وبطهارة السر والعلانية ، فطهارة الخارج أن يكون العبد نظيفًا أنيقاً ، وطهارة الداخل: أن تكون النفس بعيدة عن أدران المعاصي ووسخ الذنوب ، وألا ينعقد القلب على الضرر أو الخداع أو نحو ذلك من الصفات الذميمة .

فلا ينبغي للمسلم أن يكون رثّ الثياب أشعث أغبر ، فالله (عز وجل) جميل يحب الجمال ، كما أخبر النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) فعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) (صحيح مسلم).

كذلك من مجالات النظافة في الإسلام : نظافة الطريق والأماكن العامة من كل دنس أو أذى ، فنظافة الطرق والأماكن العامة دليل على

الرقي والتقدم ، وقد دعانا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) إلى إزالة كل ما يلقى على الطريق من القاذورات والأذى ، واعتبر ذلك من أبواب الخير ، فعنْ أَبِي بَرْزَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ ؟ قَالَ : (أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ) (مسند أحمد) ، بل أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تنظيف الطرق من الأذى سبب لدخول الجنة ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِى الْجَنَّةِ فِى شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِى النَّاسَ) (صحيح مسلم) ، وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَمِطِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ) (الأدب المفرد للبخاري).

وفي هذا دلالة واضحة على أن تلوث الطرق بإلقاء القمامة ونحوها من سائر الملوثات والقاذورات يعاقب عليه صاحبه ، وأن إزالة الأذى عن الطريق من أعمال البر التي تكفر السيئات وتوجب الغفران ، وعدها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) شعبة من شعب الإيمان ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ) (صحيح مسلم) .

إن الإسلام قد حرص على نظافة البيئة المحيطة بالإنسان ، وأن تكون خالية من الأمراض، لأن الأمراض إذا انتشرت في مجتمع فإنها لا تخص شخصًا دون شخص، ولكنها تؤثر سلبًا على حياة الناس عمومًا، حيث

وضع الإسلام قواعد لمنع انتشار الأمراض والأوبئة في المجتمع سبق بها الطب الحديث ، وجعل النظافة من أهم أسباب وقاية المجتمعات من كل الأدران والأضرار ، ومن هذه الوقاية التي شرعها الإسلام : قضاء الحاجة في أماكن معزولة حتى لا يتلوّث بها ماء ، ولا يتنجس بها طريق ولا مجلس ، فعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ (رواه الإمام مسلم)، وشدد في ذلك حتى في الأماكن التي يرتادها الناس لمجالسهم وتحت الشجر الذي له ظل، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ) (المعجم الكبير للطبراني).

وكما رغَّب الإسلام في النظافة وضرورة المحافظة عليها حذر من التلوث بجميع أنواعه (سمعي وبصري وبيئي) ، حيث قرر مبدأً عظيمًا وهو أنه (لا ضرر ولا ضرار) (سنن ابن ماجه) ، فحذرَنا من تلوث البيئة وإفسادها بما نقترفه في حقها من ممارسات غير سليمة من قطع للأشجار وإلقاء الفضلات والمخلفات ومياه الصرف في نهر النيل ، وغير ذلك مما يكون سببًا في ضرر الآخرين ، قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١].

ومن المعلوم أن أضرار التلوث ليست قاصرة على الإنسان وحده فحسب ، بل تتعداه إلى جميع المخلوقات ، لذا جاء النهي عن التلوث بجميع صوره حفاظًا على الفرد والمجتمع وسائر المخلوقات ، قال

تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦] ، وروى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنْ الطَّرِيقِ ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ) (صحيح مسلم)، ويماط: يعني يزال ، والأذى : ما يؤذي المارة من شوك وأعواد وأحجار وزجاج وأرواث وغير ذلك مما يؤذي ، فإماطته من محاسن الأعمال.

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن الإسلام حريص على تربية المسلم على الطهارة بكل معانيها، طهارة العقيدة من كل الخرافات ، طهارة الأخلاق من الرذائل والمنكرات ، طهارة اللسان من كل القبائح والآثام ، طهارة الجسد والثياب من الأوساخ ، نظافة المسجد ، نظافة الطريق ، نظافة البيت وفِناء الدار ، بل إن الإسلام ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حينما جعل النظافة ركنًا أساسيًّا في حياة المسلم ؛ لأن أمور دينه لا تستقيم إلا على نظافة البدن والملبس والمكان ، كما أن الصحة مرتبطة بالنظافة ارتباطًا وثيقًا لا تنفك عنه بأي حال من الأحوال.

لذا لابد وأن يكون الإنسان على وعي تام بالنظافة وقضايا البيئة وأهمية الحفاظ عليها وخطورة تلوثها التي تعود بالضرر عليه وعلى

الآخرين، ولابد أن نُعَلِّمَ ذلك أولادنا في المدارس والنوادي وجميع صروح التعليم منذ نعومة أظفارهم نظافة أماكنهم وتجميلها حتى يتعودوا على ذلك ، فالحفاظ على البيئة أمر مكتسب نتعلمه ونتربى عليه ، ولابد أن يكون الكبار قدوة حسنة للصغار ، فماذا ننتظر من طفل يرى والديه أو أحدهما يرمي بالقمامة من شرفة المنزل في طريق الناس أو على سطح جاره ، وماذا نتوقع من طفل يرى الكبار يبصقون في الطريق ، أو يكتبون على الجدران أو غير ذلك من جرائم التلوث السمعي والبصري واللفظي التي نراها يوميًا ! لاشك أنه سينشأ على هذا السلوك ، فالولد صنعة أبيه كما يقولون ، وكما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا *** على ما كان عوّده أبوهُ

ومن هذا المنطلق يجب أن نحرص جميعًا على النظافة – نظافة قلوبنا، وجوارحنا ، وأجسادنا ، ومجتمعنا ، ومدننا ، وقرانا – لأنها مظهر من مظاهر التقدم والرقي ، ولا بد أن نأخذ بالأساليب العلمية الحديثة في نظافة مجتمعنا بوازع دينيٍّ ، ووازع حضاريٍّ ، ووازع إنسانيٍّ.

* * *

عناية الإسلام بصحة الإنسان ودعوته للمحافظة عليها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فمن أجلِّ وأكرم وأعظم النعم الربانية التي أنعم الله – عز وجل– بها على الإنسان نعمة الصحة وسلامة الأعضاء من الآفات والأمراض ، فبالصحة يتمكن المرء من أداء حق ربه جل جلاله ، وحق نفسه ، وحق غيره ، وهي أهم ما يملك العبد في حياته ، وفي الحديث عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) (صحيح البخاري). فكثير من الناس لا يقدِّرون هذه النعمة العظيمة ، ولا يعرفون قيمتها ، ولا يستثمرونها في موضعها الصحيح ، ولا يقدِّرون أهميتها ، فمن اسْتثمر فراغه وصحَّته فِي طاعة الله فهوَ المغبوطُ ، ومَن اسْتثمرهما فِي معصية الله فهوَ المغبونُ .

وإذا أراد المرء أن يعرف قيمة نعمة الصحة فليذهب إلى المستشفيات، وينظر إلى أهل الابتلاء الذين أصيبوا بأنواع من الأمراض الجسدية ، وهم يتمنون أن يكونوا في كامل صحتهم وعافيتهم.

لذا نجد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يفضِّل نعمة الصحة على الكثير من متاع الحياة الدنيا ، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ ،

عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَمِّهِ ، قَالَ : كُنَّا فِي مَجْلِسٍ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) وَعَلَى رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُنَا : نَرَاكَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ ، فَقَالَ : (أَجَلْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْمُ فِي ذِكْرِ الْغِنَى ، فَقَالَ : (لاَ بَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنِ اتَّقَى ، وَالصِّحَّةُ لِمَنِ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى ، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ) (سنن ابن ماجه) ، وكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه الكرام (رضوان الله عليهم) بالصحة والعافية ، ما جاء عَنْ سَلْمَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : عَادَنِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا عَلِيلٌ ، فَقَالَ : (يَا سَلْمَانُ شَفَى اللَّهُ سَقَمَكَ ، وَغَفَرَ ذَنْبَكَ ، وَعَافَاكَ فِي بَدْنِكَ وَجِسْمِكَ إِلَى مُدَّةِ أَجَلِكَ) (المستدرك للحاكم).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه (رضوان الله عليهم) بالدعاء بالصحة والعافية ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ : أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: " سَلْ رَبَّكَ العَافِيَةَ وَالمُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ "، ثُمَّ أَتَاهُ فِي اليَوْمِ الثَّانِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ. قَالَ: " فَإِذَا أُعْطِيتَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَأُعْطِيتَهَا فِي الآخِرَةِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ " (سنن الترمذي) .

لذا حثنا النبي الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على استثمار تلك النعمة في طاعة الله (عز وجل)، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (بادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ

الدَّجَّالَ ؛ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؛ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) (سنن الترمذي).

ومن عظمة التَّشريع الإسلامي ، ومن أهم مقاصده أن جاء بجملة من المبادئ والأصول تضمن استقامة الحياة في نظام محكم دقيق ، يقول الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[النحل: ٨٩]، وتهتم ببناء الإنسان ورعايته صحيًّا ، ونفسيًّا ، وسلوكيًّا ، وعلميًّا، فالمسلم القوي نافع لنفسه، ودينه، ووطنه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ) (صحيح مسلم)، فالمهمات العظام لا يقوم بها إلا الرجال الأصحاء الذين يجمعون بين الأمانة والقوة البدنية ، فهذه ابنة الرجل الصالح تطلب من أبيها أن يتولى سيدنا موسى (عليه السلام) العمل عنده لما يتوفر فيه من القوة والأمانة: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦].

وهذا سيدنا يوسف – عليه السلام – لما وجد في نفسه القدرة على تولي وإدارة شئون خزائن مصر قال: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}[يوسف: ٥٥] .

وهذا أبو ذر (رضي الله عنه) حين يطلب من النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يوليه ولايةً ضرب على منكبيه ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى

الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) (صحيح مسلم)، من هنا كانت عناية الإسلام ببناء إنسان قوي البنيان، مستقيم النفس، حسن السلوك، عالم بأمور دينه ودنياه.

وتتجلى عناية الإسلام بصحة الإنسان أن أحاطها بالرعاية ، وذلك في عدة مظاهر ، منها: أن حرم الاعتداء علي النفس البشرية بأي لون من ألوان الاعتداء، بل جعل الحفاظ عليها أحد الكليات الخمس التي جاء بها الإسلام، فشرع من التكاليف ما يحفظ للإنسان صحته.

ومن هذه المظاهر : العناية بالطهارة ؛ فجعل الطهور شطر الإيمان، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ) (صحيح مسلم)، وجعلها شرطًا لصحة كثير من العبادات كالصلاة، والطواف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا}[المائدة : ٦].

ومن مظاهر عناية الإسلام بصحة الإنسان أن حثه على ترك كل ما قد يُلْحِقُ به الضرر ، فقال تعالى: { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[البقرة : ١٩٥]، والبعد عن الإسراف في الطعام والشراب قال سبحانه وتعالى : {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف: ٣١]، وعَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِب (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي). قال ابن رجب : هذا الحديثُ أصلٌ جامعٌ لأصول الطب كلِّها. (جامع العلوم والحكم).

فالإسلام قد سبق العلم الحديث في التنبيه على خطورة الإسراف في تناول الطعام والشراب ؛ وأنهما أصل كل داء ، وصدق الله العظيم إذ يقول في صفات رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) : { وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ..} [الأعراف : ١٥٧].

ومن هذه المظاهر: أن حث الإسلام على حفظ الأطعمة من كل ما يلحق بها الضرر ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (غَطُّوا الْإِنَاءَ ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ، لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وِكَاءٌ، إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءِ) (صحيح مسلم).

ومن مظاهر عناية الإسلام بصحة الإنسان إيجاد أسرة قوية : حيث إن الأسرة هي نواة المجتمع واللبنة الأولى في بنائه ، فسلامة الأسرة سبيل سلامة المجتمع ، ومن ثَمَّ اهتم بالعلاقة بين الزوجين ، وحرم كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بأحدهما، فحرم المعاشرة الزوجية أثناء الحيض قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة : ٢٢٢] . وحرم الزنا لأنه علاقة غير صحية علاوة على كونها محرمة قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}[الإسراء : ٣٢] ، وحرم كل ما يلحق الأذى بصحة المرأة فأوجب على الحائض والنفساء الإفطار في رمضان، ورخص في عدم أداء بعض الفرائض حتى لا يتعرض الإنسان للتعب والمرض قال تعالى: {... فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ

مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...}[البقرة : ١٨٥].

أقولُ قولِي هذاَ ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

ومن مظاهر اهتمام الإسلام بصحة الفرد : أن أمره بتجنب فعل أي أمر يسبب للجسد تعبًا أو إرهاقًا ، حتى ولو كان من العبادات ، فعن عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (يَا عَبْدَ اللهِ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ) فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : (فَلاَ تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ) فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً قَالَ : (فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَلاَ تَزِدْ عَلَيْهِ) قُلْتُ : وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ)؟ قَالَ : (نِصْفَ الدَّهْرِ) فَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ : بَعْدَ مَا كَبِرَ يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) (متفق عليه) .

إن الإنسان لم يخلق للعبادة فحسب ، بل خلقه الله (عز وجل) لمهمتي العبادة وعمارة الكون ، فكيف لبدن هزيل ضعيف مملوء

بالأمراض والأسقام والتعب والإرهاق أن يقوم ببناء حضارة ، أو تحقيق عمارة؟

ومن مظاهر اهتمام الإسلام بصحة الإنسان : أن شرع جملة من الآداب الاجتماعية تحفظ على الناس صحتهم، وتمنعهم من التعرض للأمراض، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِذَا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ، وَخَفَضَ أَوْ غَضَّ بِهَا صَوْتَهُ) (أخرجه أبو داود). ونهى عن التنفس في الإناء ؛ لعدم إلحاق الأذى به ونقله للآخرين، فعن أَبِي قَتَادَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ...) (متفق عليه).

* * *

الأسرة ودورها في الحفاظ على استقرار المجتمع

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـد :

فإن الأسرة هي اللبنة الأولى التي يتكون فيها صرح المجتمع فهي التي تتولى حماية النشء ورعايته وتنمية أجساده وعقوله وأرواحه، وفي ظلها تتلاقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل؛ فهي التي تصنع الرجال الأبطال الذين تقوم عليهم المسئوليات ، وعلى أكتافهم تصان الحرمات ، فمن الأسرة يخرج القائد المقدام ، والعالم الإمام ، والطبيب الماهر ، والمهندس الباهر ، والرجل الفاضل ، وبمقدار ما تكون عليه الأسرة من قوة أو تقوم عليه من قيم؛ فصلاحها يعني صلاح المجتمع، وفسادها يعني فساد المجتمع.

ومن هنا اهتم الإسلام بالأسرة اهتمامًا بالغًا يناسب أهميتها في كيان المجتمع وأثرها الفعال في حياة الأمة ومستقبلها، ويتجلى ذلك الاهتمام في بيان كل ما يتصل بتكوين الأسرة من الأحكام والواجبات وما تقوم عليه من التقاليد والآداب وما يكفل سلامتها من الفتن والخلافات ويوفر لها الحماية من عوامل التحلل والفساد ؛ كي تؤدي رسالتها في أمن واستقرار و إعداد النشء وتربيته على القيم الفاضلة والمُثُلِ العليا.

وقد وصلتْ عنايةُ الإسلام بهذا المكون الرئيس للمجتمع (الأسرة) إلى درجة كبيرة؛ حتى إن هذه العناية امتدتْ إلى ما قبل تأسيسها في

مُحَاوَلة إلى انتقاء عناصر بنائها بما يحقِّق التلاؤُم والانسجام، ويُقَلِّل من دوافع الفشل لبنيانها، بل إنَّ الإسلامَ حَثَّ أتباعه على الإسهام في تكوين هذه الأسرة عبر وسيلته المشروعة وهي الزواج، الذي اعتبره الإسلامُ إحدى سُنَن الله في الخلق لما يحققه من مقاصد في الحياة الإنسانية؛ إذ يقول الله تبارك وتعالى : {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[الذاريات: ٤٩]، ويقول سبحانه:{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) [يس: ٣٦].

فالزواج إذًا سُنَّة كونِّية ، ولا ينبغي للإنسان أن يشذَّ عنها ؛ إذ إن الله – ومنذ أن خلق الإنسان الأول آدم وأسكنه الجنة – لم يدعه وحده في الجنة ، بل جعل له حواء ليسكن إليها ، فلا يستطيع أن يحيا وحده بلا أنيس ولا جليس ؛ لذلك خلق الله لآدم من نفس جنسه زوجًا ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}[النساء :١] ، بل إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) دفع الشباب دفعًا إلى تحقيق هذه السنة، موضحًا فوائد ذلك ومنافعه فقال : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) (متفق عليه) .

وقد حدد الإسلام المعايير والأسس، التي يجب عليها اختيار الزوج لزوجته والزوجة لزوجها وفي مقدمتها الدين والخلق ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك) (متفق عليه)، وعَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ) (سنن الترمذي).

فالزواج علاقة تقوم على الودِّ والحبِّ والحنان لا تقوم على الصراع ومحاولات كلِّ طرف لإثبات ذاته، ففي أحضان الأسرة المتماسكة الملتزمة بأحكام الله تنمو الخلال الطيبة، وتنشأ الخصال الكريمة، ويعيش الصبية الصالحون حيث تسود المودة، وتنتشر الرحمة في جنبات هذا البيت الكريم، متمثلاً فيه قول الله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}[الروم:٢١].

إن المودة والألفة هي قوام الأسرة، وإن أجلى مظاهرها وأوضح أسبابها حسن العشرة، ولزوم الطاعة، والتواصي بين الزوجين بالخير، وجميل الخلق، فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخير المؤمنين خيرهم لنسائهم، والمرأة إذا صلت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبوابها شئت.

إن الإسلام يحرص كل الحرص على أن تقوم الرابطة الزوجية – التي هي النواة الأولى للأسرة– على المحبة، والتفاهم والانسجام، وهذه هي أهم خطوة في إصلاح المجتمع يليها تربية النشء وتحصينه، وهذه التربية مسئولية الأسرة ، رجالاً ونساءً ، فكل فرد راع ومسئول عن رعيته.

ولقد فطر الله –عز وجل– الناس على حب أولادهم ، قال تعالى : {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا }[الكهف: ٤٦].

ويبذل الأبوان الغالي والنفيس من أجل تربية أبنائهم وتنشئتهم وتعليمهم، ومسئولية الوالدين في ذلك كبيرة ، فالأبناء أمانة في عنق

والديهم ، فعليهم أن يحسنوا أداء هذه الأمانة ، وأن يتقوا الله فيهم ، وأن يعودوهم الخير ، فإن تعودوا الخير وتعلموه نشأوا عليه ، وسعدوا في الدنيا والآخرة ، وشاركهم في ثوابهم أبواهم ، وكل معلم لهم ومؤدب ، وإن عُوّدوا الشر وأهملوا شقوا وهلكوا ، وكان الوزر في رقبة والديهم ، فقد قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }[التحريم :٦] ، وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) : قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه).

إن نجاح الأسرة المسلمة يتحقق في المحافظة على فطرة الطفل السوية من الانحراف أو التشويه في أية مرحلة من مراحل نموه- مرحلة الولادة والرضاعة، مرورًا بمرحلة الحضانة والطفولة ، وهكذا ، ويؤكد هذا رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)حيث يشير إلى هذه المرحلة بقوله: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ) (متفق عليه).

ومن ثمَّ فإن للأسرة دورًا كبيرًا في رعاية الأولاد - منذ ولادتهم - وفي تشكيل أخلاقهم وسلوكهم ، وما أجمل مقولة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- (الصلاح من الله والأدب من الآباء) (الأدب المفرد للبخاري). إن الأبناء يتمثلون بالآباء ويحملون عاداتهم السلوكية، وقديمًا قيل :

وينشـــأ ناشئ الفتيـــان منا *** على ما كان عـوده أبـــوه

فعلى الآباء غرس القيم والفضائل الكريمة والآداب والأخلاقيات والعادات الاجتماعية التي تدعم حياة الفرد وتحثه على أداء دوره في الحياة وإشعاره بمسئوليته تجاه مجتمعه ووطنه وتجعله مواطنًا صالحًا في المجتمع مثل: الصدق والمحبة والتعاون والإخلاص وإتقان العمل .

كما يجب على الآباء غرس مفاهيم حب الوطن والانتماء وترسيخ معاني الوطنية في أفئدة الأبناء. فالوطن امتداد لحياة الآباء والأجداد ، وبدونه لا يكون الإنسان شيئًا فهو تلك البقعة من الأرض التي ولدنا بها ونموت فيها ، ونستمتع بخيراتها ونعيش في دفء أمنها ورعايتها ، ويجب أن يعي الأب والأم أولاً معنى الوطنية والانتماء قبل أن ينقلوها إلى أبنائهم.

ولقد وجه الإسلام الآباء والمربين إلى أن يراقبوا أولادهم وخاصة في سن التمييز، كما وجههم إلى أن يختاروا لهم الرفقة الصالحة ليكتسبوا منهم كل خلق كريم وأدب رفيع وعادة فاضلة، كما وجههم أن يحذروهم من خلطاء الشر ورفقاء السوء حتى لا يقعوا في حبائل غيرهم وشباك ضلالهم ، فالمرء على دين خليله ، فلينظر الإنسان إلى من يصاحب ، قال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ }[الزخرف: ٦٧].

وعن أَبِي مُوسَى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّمَا مَثَلُ الجليس الصالحُ والجليسُ السوءِ كحامِلِ المسك، ونافخِ الكِيْرِ) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ

يُخَالِطُ) وَقَالَ مُؤَمَّلٌ: (مَنْ يُخَالِلُ) (مسند أحمد) وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ) (سنن الترمذي).

فعلى المربين أن يأخذوا بهذه التوجيهات النبوية في تربية أولادهم حتى تسعد الأسرة وبذلك يسعد المجتمع، فإن الله عز وجل سائل كل راعٍ عما استرعاه ، ففي الحديث عَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ) (السنن الكبرى للنسائي).

وإذا كان هذا دور الآباء نحو الأبناء فعلى الأبناء واجب نحو آبائهم أوكله الله إليهم، فقد أمرهم الله (عز وجل) ببرهم والإحسان إليهم في عدة مواضع من كتابه الكريم، جزاء تربيتهم ، والمعاناة من أجلهم فقال تعالى:{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ }[لقمان :١٤].

ولن يستطيع الأبناء أن يحصوا ما لاقاه الأبوان من تعب ونصب وأذى ومشقة ، وسهر وقيام ، وقلة راحة وعدم اطمئنان من أجل راحتهم في سبيل رعايتهم ، والعناية بهم ، فسهر بالليل، ونصب بالنهار ، ورعاية واهتمام ، وتعهد وتحسس لما يؤلمهم ، فهما يقومان بعنايتهم ، ويراقبان تحركاتهم وسكناتهم ، وصحتهم ، ومرضهم ، يفرحان لفرحهم ، ويحزنان لحزنهم ، ويمرضان لمرضهم.

وإذا تتبعنا رحلة الأم مع ولدها وجدناها رحلة تعب ونصب لكن مع سرور وفرح ، فالأم تعاني في حملها ما تعاني من آلام ومرض ووهن

وثقل، فإذا آن وقت المخاض والولادة شاهدت الموت ، وقاست من الآلام ما الله به عليم ، فتارة تموت ، وتارة تنجو ، وياليت الألم والتعب ينتهي عند هذا الحد ، بل يكثر التعب والنصب ويشتد بعده ، فحملته كرهًا ووضعته كرهًا.

ففرح الأم وحزنها يتوقف على فرح ولدها وحزنه وكذلك في جميع حالاتها ، فتذبل الأم وتضعف لمرض وليدها وفلذة كبدها ، وتغيب بسمتها إن غابت ضحكته ، وتذرف دموعها إذا اشتد به المرض ، وتحرم نفسها الطعام والشراب إن صام طفلها عن لبنها ، وتموت راضية إذا اشتد عوده وصَلُب ، ولو كان ذلك على حساب صحتها وقوتها وسعادتها ، فترى الحياة نورًا عندما ترى طفلها ووليدها وفلذة كبدها مع الصبيان يلعب ، أو إلى المدرسة يذهب هذه هي الأم التي أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) ثلاث مرات بها عندما سأله رجل في مَنْ يُبّر ، فلها ثلاث أضعاف حق الوالد ، ولذلك جعل الله الجنة تحت قدميها ، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً } [الأحقاف : ١٥].

ومن هنا كان المسلم الملتزم أبر الناس بوالديه من أي إنسان آخر في الوجود .

وقد ارتفع الإسلام في تصوير مكانة الوالدين ، وعرض الأسلوب الراقي الذي ينبغي أن يمارسه في معاملة والديه ، وبخاصة إن طال بهما أو بأحدهما العمر ، وبلغا الشيخوخة ونال منهما العجز أو الضعف ما نال ؛ لأن هذه الأحوال مظنة وقوع ما يضجر منه الولد ، أو يستقذره من

والديه ، قال الله تعالي :{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[الإسراء : ٢٣،٢٤] ، ولعل الجمع في هاتين الآيتين بين النهي عن التأفف من الوالدين وبين الأمر بخفض الجناح والدعاء لهما إشارة للأولاد ليتدبروا ويعلموا أن رحمتهم بوالديهم في الكبر وتذللهم لهما لا يكفي رد حقوقهم وإنما عليهم أن يدعوا الله تعالى أن يكافئهم عنهم ، بعطاء منه ورحمة حيث إن فضله عظيم ورحمته وسعت كل شيء ، ذلك لأن رحمة الوالدين بالولد في صغره ولا سيما الأم التي تتولى رعاية الصغير ونظافته إنما تكون مع اللذة والرغبة والسعادة والسرور ، ولن تبلغ رحمة الولد هذا الحد إطلاقًا .

وإن من يتتبع الأحاديث النبوية يجدها تتوالى لتؤكد فضل بر الوالدين وتحذر من عقوقهم أو الإساءة إليهما مهما تكن الأسباب والمبررات ، روى الشيخان عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : (الصلاة على وقتها ، قال: ثم أي ؟ قال: ثم بر الوالدين ، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله) (متفق عليه).

وهكذا يتضح مدى ما أولاه الإسلام للوالدين من رعاية وحقوق تجمع معاني الاحترام ومظاهر التقدير وغض الصوت وخفض الجناح وإدخال السرور على قلبيهما ، مع امتداد هذا البر عليهما وعلى

أصحابهما بعد وفاتهما ، وعلى هذه النشأة الكريمة ينبغي على الأسرة تربية أبنائها وتعريفهم بحقوق الوالدين.

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن الأمن والأسرة يوجد بينهما ترابط وثيق ، ويكمل أحدهما الآخر ، فلا حياة للأسرة إلا باستتباب الأمن ، ولا يمكن للأمن أن يتحقق إلا في بيئة أسرية مترابطة، وجو اجتماعي نظيف ، يسوده التعاطف والتآلف ، والعمل على حب الخير بين أفراده ، كل ذلك ضمن عقيدة إيمانية راسخة ، واتباع منهج نبوي سديد ، هذا الإيمان هو الكفيل بتحقيق الأمن الشامل والدائم ، الذي يحمي المجتمع من المخاوف ، ويبعده عن الانحراف ، وارتكاب الجرائم .

إن هذا الدور لا يتحقق إلا في ظل أسرة واعية تحقق في أبنائها الأمن النفسي ، والجسدي ، والغذائي ، والعقدي ، والاقتصادي ، والصحي بما يشبع حاجاتهم النفسية والتي ستنعكس بالرغبة الأكيدة في بث الطمأنينة في كيان المجتمع كله ، وهذا ما سيعود على الجميع بالخير الوفير .

ويتحقق الأمن في الأسرة بأن يقوم كل واحد من أركانها بدوره المنوط به، والذي من أجل تحقيقه تكونت الأسرة، فالذكر والأنثى أوجد الله في كل منهما خصائص قبل الوظائف، فيحقق كل منهما

وظيفته من خلال خصائصه، ويتحمل مسئولياته مع تعاون الجميع في أداء الواجبات.

لقد اعتبر الإسلام أن بناء الأسرة وسيلة فعّالة لتحقيق الأمن ، ولحماية الأفراد من الفساد، ووقاية المجتمع من الفوضى، لأن التربية الأمنية تبدأ في نطاق الأسرة أولا، ثم المدرسة، ثم المجتمع، فالأسرة هي المدرسة الأولى التي يتعلم فيها الطفل الحق والباطل، والخير والشر، ويكتسب تحمل المسئولية، وحرية الرأي، واتخاذ القرار، كل هذه القيم وغيرها يتلقاها الطفل في سنيه الأولى، دون مناقشة، حيث تتحدد عناصر شخصيته، وتتميز ملامح هويته ، وإذا لم تتهيأ الفرصة بشكل كافٍ داخل الأسرة لتعلم هذه القيم، فإنه يتعذر عليه بعد ذلك اكتسابها لكي تكون جزءًا من سلوكه.

ومما لاشك فيه أن مسئولية أمن الوطن تقع على عاتق كل من يعيش على أرض الدولة من مواطنين ومقيمين ؛حيث إنهم هم الذين ينعمون بالراحة والطمأنينة فيه ، وبالطبع فإن المسئولية الأولى تقع على الأسرة ؛ باعتبارها البوتقة التي يخرج منها المواطن الصالح ؛ لذا يجب على الأسرة أن تعي دورها تمامًا تجاه أمن المجتمع ، وأن تقوم بدورها من خلال تنشئة أولادها على حب الوطن وحفظ أمنه واستقراره.

* * *

أسس التعايش السلمي
في حياة النبي (صلى اللّٰه عليه وسلم)

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الإسلام دين الله للبشرية جميعًا ، فلم ينزل لتنظيم حياة المسلمين فحسب ، بل شرعه الله لتنظيم حياة الناس جميعًا ، فدعا إلى التواصل والتعايش بين أتباع الديانات ، وجعل العلاقة بين الناس جميعًا تقوم على أساس التعارف والتآلف والتعايش السلمي ، ذلك لأن أصلهم واحد ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات : ١٣] ، فالناس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وعقائدهم إخوة في الإنسانية تنشأ بينهم علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية قوامها التعارف والتآلف ، نلمح هذا من خلال تعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) مع مجتمع المدينة ، فقد أسس نظامًا عامًّا أساسه التعايش السلمي بين الناس جميعا، والمسلمون اليوم في بلادهم، ومع من يعيشون معهم من مختلف الطوائف والملل، والنحل هم في أشد الحاجة إلى هذا المفهوم ، وهو : كيف يعيش الإنسان مع الآخر في سلام وأمان.

ومن الحقائق المؤكدة أن الاختلاف بين الناس سنة كونية من سنن الله عز وجل ، يجب أن نحترمها، لأن الناس لا يفكرون بطريقة واحدة ،

قال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [يونس : ١١٨] فهذا الاختلاف دليل على أن الله (تعالى) منح عباده حرية الاختيار ، ومن ثم يجب علينا التعامل في الحياة مع كل الناس على اختلاف أفكارهم وتباين عقائدهم دون السعي إلى الإقصاء للمختلفين معنا.

لقد أمرَنَا الإسلامُ بالمعاملة الحسنة معَ سائِرِ النَّاسِ، وطلبَ منَّا أنْ ندعُوَ إلَى هذَا الدِّينِ علَى أساسِ الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، قالَ تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل : ١٢٥].

إن التعايش السلمي بين الناس جميعًا حقيقة تاريخية ، وضرورة مجتمعية ، وأمر حتمي يفرضه الواقع الذي يعيشه الإنسان ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا شعر الجميع بأنهم أبناء وطن واحد، وعملوا على رفعته، وتطويره، وتنميته تنمية شاملة للجوانب الروحية والمادية.

من أجل هذا رغَّب الإسلام أتباعه في العيش بسلام مع الآخرين ، فحين هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وجد مزيجاً إنسانيًّا متنوعًا من حيث الدين والانتماء ، وجد بها يهودا توطنوا، ومشركين مستقرين، فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قبل – عن طيب خاطر – وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه، فكان أول ما فعله بعد بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار،

وضع صحيفة المعاهدة مع اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة ، وهذه الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول (صلى الله عليه وسلم) في صياغة موادها وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض ، فقد كانت موادها مترابطة وشاملة، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة، والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها.

ولقد أمر الإسلامُ أتباعَه بالمحافظة على كرامة غير المسلمين ومراعاة مشاعرهم حتى في موطن الحوار أو الجدل ، وحثَّهم على أن تكون المجادلة بالتي هي أحسن ، فقال تعالى:{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }[العنكبوت: ٤٦].

ويتجلَّى حِفْظ الكرامة الإنسانية في التعامل النبوي مع غير المسلمين، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعامل كل الناس مسلمين وغير مسلمين باحترام لحقوقهم وحرياتهم، فقد أرسى (صلى الله عليه وسلم) مبادئ التعايش والاحترام المتبادل وحقوق الإنسان بين كل طوائف المجتمع منذ نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بعقد الوثيقة التي أبرمها مع يهود المدينة وغيرهم ، حيث أعطى اليهود كل حقوق المسلمين في الأمن والسلام والحرية والدفاع المشترك ومن بين بنودها المهمة : (وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ ، وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ ، مَوَالِيهُمْ

وَأَنْفُسُهُمْ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ (أَيْ يُهْلِكُ) إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ)، وجاء فيها كفالة حرية الدين والأمن والدفاع المشترك ضد أي معتدٍ على المسلمين أو على اليهود . (كتاب الأموال لأبي عبيد) .

وهذا يعني أن الدولة الإسلامية تتسع للجميع مسلمين وغير مسلمين ، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا بشرط الالتزام بالضوابط المجتمعية التي تحفظ للجميع الحقوق والواجبات وفي مقدمتها السلم وعدم الاعتداء ، وعدم خرق بنود العقد الاجتماعي (الدستور) الذي ينظم العلاقة بين الناس جميعًا .

إن التعايش بين الناس جميعًا – مسلمين وغير مسلمين – يقوم علَى أُسسٍ قويَّةٍ متينةٍ ثابتةٍ لاَ تتغيَّرُ ولاَ تتبدَّلُ ، مِنْ هذهِ الأُسسِ :

* حرية الاعتقاد وعدمُ الإكراهِ علَى الدخول في الدين ، قالَ تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة: ٢٥٦] ، وقدْ طبَّقَ النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) وأصحابُهُ (رضوانُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ) هذَا الأساسَ تطبيقًا عمليًّا ، فلمْ يُكرهُوا أحدًا علَى الدُّخولِ فِي هذَا الدِّينِ العظيمِ ، ولَمْ يهدمُوا لأحدِ كنيسةً أوْ صومعةً أوْ أيَّ مكانٍ للعبادةِ ، بَلْ كانَتْ أمكنةُ العبادةِ محترمةً مُصانَةً عندَ المسلمينَ .

ذلك لأن الإسلام كفل حرية الاعتقاد لبني البشر جميعًا ، ولم ولن يملك أحد تغيير هذا التنوع والاختلاف ، ويجب أن يُقرّ الناس جميعًا بذلك ، قال تعالى :{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[يونس : ٩٩] ، فاحترام المعتقدات والمبادئ الأساسية مسألة بالغة الأهمية ولها أثرها الطيب

على العلاقات بين الأمم والمجتمعات ، فلكل أمة عقيدة ومبادئ تقدسها وتلتزم بها ، وتعتبرها أسمى من غيرها ، ويدخل في هذا أركان الإيمان عند المسلمين ، من إيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره ، ولغير المسلمين ما يقدسونه ويحتفون به من آلهة يعبدونها ، أو مبادئ يعتزون بها ، لذا أوجب الإسلام الإيمان بجميع الأنبياء والرسل السابقين – عليهم السلام – قال تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[البقرة: ٢٨٥] ، وألزمنا بعدم السب أو التعرض لأصحاب الديانات الأخرى بما يسيئ لهم أو لمعتقدهم ، فقال تعالى: { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام : ١٠٨] .

* كذلك رسَّخَ الإسلامُ فِي نفوسِ أتباعه أساسَ البرِّ وحُسنَ الجوارِ مَعَ غيْرِ المسلمينَ، فجاءتِ النُّصوصُ تؤكد هذَا الأساسَ، وتُوضِّحُ صورَهُ التَّطبيقيَّةَ فِي المجتمعِ المسلمِ، فعَنْ أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا) (صحيح مسلم).

وقدْ حفلَتِ السيرةُ النَّبويَّةُ بصُوَرِ حُسْنِ الجوارِ وتعايش الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) مع جيرانه من غيْرِ المسلمينَ، فعَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه

وسلم) فَمَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ :(أَسْلِمْ). فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) وَهُوَ يَقُولُ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ) (صحيح البخاري).

*ومن أهم الأسس التي يقوم عليها التعايش السلمي: حُسْنُ الصِّلةِ والإحسانِ إِلَى الآخرينَ ، والمتتبع لنصوص الشرع الحكيم يجد أنها تحث على التعايش مع الآخر طالما كان هناك احترام متبادل ومراعاة للحقوق والواجبات ، قال تعالى : { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة: ٨] . قال ابن كثير : أَيْ لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ، كَالنِّسَاءِ وَالضَّعَفَةِ مِنْهُمْ،{أَنْ تَبَرُّوهُمْ} أَيْ: تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ {وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} أَيْ: تَعْدِلُوا {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (تفسير القرآن العظيم لابن كثير).

والمتأمل في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وتعامله مع الناس جميعًا- مسلمين وغير مسلمين - يقف على المنهج العملي والخلقي للدين الإسلامي الذي جاءَ بالرَّحمةِ والإحسانِ للإنسانيَّةِ جمعاءَ، ولاَ يمكنُ أنْ تستقيمَ الحياةُ بدونِ تعايشٍ سلمِيٍّ وتعاونٍ بَنَّاءٍ بيْنَ أبناءِ المجتمعِ الواحدِ وبيْنَ أفرادِ الإنسانيَّةِ جميعًا ، فالإسلامُ يدعُو إِلَى حُسْنِ الصِّلةِ والإحسانِ إِلَى الآخرينَ برغْمِ اختلافِ الدِّينِ ، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رضيَ اللهُ عنْهما) قَالَتْ : قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: (نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ) (متفق عليه).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

كذلك من أهم الأسس التي يقوم عليها التعايش السلمي بين أفراد المجتمع: العدل والإنصاف ، وعدم ظلم الآخرين ، فالإسلام قَدْ حفظَ حقوقَ الآخرينَ وصانَهَا، ونصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ شاهِدَةٌ علَى هذَا، فقد جاءت آيات القرآن الكريم تأمر بالعدل وتحث عليه وتدعو إلى التمسك به ، يقول تعالى: {إِنّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} [النحل:٩٠] ، ويقول تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ }[النساء: ٥٨] ، فالمسلم مطالب بأن يعدل مع جميع الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتّقْوَى}[المائدة: ٨] أي: لا تحملكم عداوتكم وخصومتكم لقوم على ظلمهم ، بل يجب العدل مع الجميع سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء.

وقد ذكر القرآن الكريم براءة يهودي اتهمه مسلم بالسرقة فنزلت آيات القرآن الكريم تنفي عنه ما اتُّهِم به زورًا ، فقال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا

*وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا *هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا } [النساء : ١٠٦-١٠٩].

وكذلك حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على العدل وعدم الظلم وخاصة مع غير المسلمين في أحاديث كثيرة ، منها ما أخرجه أبو داود في سننه ، عن عدة من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (سنن أبي داود).

ولقد سار الخلفاء الراشدون على هذا المنهج النبوي في العدل مع غير المسلمين ، فهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقتص للقبطي في مظلمته من عمرو بن العاص والي مصر وابنه ، وقال مقولته التي أضحت مثلاً : (يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟) (مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي).

وهذا عليّ (رضي الله عنه) فقد دِرْعَهُ عِنْدَ رَجُلٍ نَصْرَانِيٍّ فَأَقْبَلَ بِهِ إِلَى شُرَيْحٍ يُخَاصِمُهُ ، فَقَالَ شُرَيْحٌ لِلنَّصْرَانِيِّ: مَا تَقُولُ فِيمَا يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: مَا الدِّرْعُ إِلَّا دِرْعِي وَمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدِي بِكَاذِبٍ ، فَالْتَفَتَ شُرَيْحٌ إِلَى عَلِيٍّ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ مِنْ بَيِّنَةٍ؟

فَضَحِكَ عَلِيٌّ وَقَالَ أَصَابَ شُرَيْحٌ ، مَا لِي بَيِّنَةٌ، فَقَضَى بِهَا شريح للنصراني، قال فأخذه النصراني ومشى خطا ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنَّ هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه يَقْضِي عَلَيْهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الدِّرْعُ وَاللَّهِ دِرْعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اتَّبَعْتُ الْجَيْشَ وَأَنْتَ مُنْطَلِقٌ إِلَى صِفِّينَ فَخَرَجَتْ مِنْ بَعِيرِكَ الْأَوْرَقِ . فَقَالَ: أَمَا إِذْ أَسْلَمْتَ فَهِيَ لَكَ ، وَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ) (الحلية لأبي نعيم).

هذا هو منهج الإسلام الذي يدعو إلى التعايش مع الآخر والحفاظ على حقوقه وحرماته، وتأمين المجتمع وقيمه مما يهدد أمنه وسِلْمَه ويحافظ على الأصل الذي على أساسه تُبنَى المجتمعات ، وهو التعارف والتآلف والتعايش السلمي.

إن التعايش السلمي مع الآخر والذي يدعو إليه الإسلام جدير بأن يحقق للجميع ثمرات عظيمة ، وفوائد عديدة ـ سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية ـ ومن أبرزها: تحقيق السعادة والأمن والاستقرار والتقدم ، ويخلق جوًّا من التسامح والتحاب والتعاون الذي هو أحوج ما تكون البشرية إليه الآن.

* * *

علـو الهـمة في خدمة الدين والوطن

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـد :

فإن من محاسن الأخلاق وطيب الصفات التي حثّ عليها ديننا الإسلامي الحنيف " علوّ الهمة وقوة العزيمة "، فهي سلم الرقي إلى الكمال في كل أبواب الخير ، من تحلى بها فاز برفع الدرجات في الدنيا والآخرة ، لذا دعانا إليها ديننا الحنيف ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :{وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}[آل عمران: ١٣٣] ، وعن رَبِيعَة بْن كَعْبٍ الأَسْلَمِي قَالَ : كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي : (سَلْ). فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ : (أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ). قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ. قَالَ : (فَأَعِنِّى عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) (صحيح مسلم) ، فما وصل السابقون إلى ما وصلوا إليه إلا بعلوِّ هممهم وقوة عزائمهم ، لذلك فإن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائها الذين يواصلون الليل بالنهار والسير بالسُرى ، يقومون على البذل والعطاء في سبيل ارتفاع شأن أمتهم وتقدم أوطانهم ، ويغيرون مجرى الحياة بعلو همتهم وقوة عزيمتهم.

ولله درُّ القائل:

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ

فتعظُمُ في عين الصَّغيرِ صغارُهــا ... وتصغر في عين العظيمِ العظائمُ

إن عظيم الهمّة لا يرضى بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور ، ولا تهدأ نفسه إلا بالمنزلة العالية ، بل تتحدى همته ما يراه مستحيلاً ، وينجز ما ينوء به أولو القوة ، ويقتحم الصعاب والأهوال ، يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته ، وتحقيق بغيته ، لأنه يعلم أن المكارم منوطة بالمكاره ، وأن المصالح والخيرات ، واللذات والكمالات لا يُتوصل إليها إلا بالجهد والمشقة ، يقول أبو تمام :

بصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبرى فلمْ ترها ** تُنالُ إلاَّ على جسرٍ منَ التَّعبِ

ولولا الهمم العالية ما تقدمت الأمم ، ولا اخترعت المخترعات ، ولا ابتكرت الآلات ، ولا تقدمت البشرية ، فكيف كان يمكن أن يصل إلينا الإسلام لولا رجال جاهدوا وارتفعت همتهم وعلت عزيمتهم فاجتازوا العقبات وتخطوا الصعاب وتكبدوا المشاقَّ حتى نشروا الخير في كل مكان؟! كيف كان يمكن أن يصل إلينا العلم والدين لولا أئمة علت همتهم فواصلوا الليل بالنهار يجمعون أطراف العلوم؟ !

ولقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يحثُّ المؤمنين على رفع الهمة وارتياد معالي الأمور ، والتسابق في الخيرات ، والتحذير من سقوط الهمة والرضا بالدون.

فها هو القرآن الكريم يثني على أصحاب الهمم العالية وعلى رأسهم الأنبياء (عليهم السلام) وفي مقدمتهم نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث تجلت هممهم العالية في مثابرتهم ودعوتهم إلى الله عز وجل ، قال تعالى : {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥].

وكذلك دعانا القرآن الكريم – أيضًا – إلى الهمة العالية والسعي نحو الأفضل ، والتسابق في الخيرات ، يقول تعالى: {.. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[المائدة: ٤٨]. وقال تعالى : {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[الحديد:٢١]. ويقول تعالى :{ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠] .

إن الله (عز وجل) يحب أصحاب العزائم القوية والهمم العالية ويعينهم ويوفقهم ، ويُبغض أصحاب الهمم الضعيفة الذين يكتفون من كل شيء بأقله ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ وَيَبْغَضُ سَفْسَافَهَا) (المعجم الكبير للطبراني). وقد أُثِر عَنْ الفاروق عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ قَالَ : « لَا تُصَغِّرَنَّ هِمَّتَكُمْ فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَقْعَدَ عَنْ الْمَكْرُمَاتِ مِنْ صِغَرِ الْهِمَمِ » (أدب الدنيا والدين للماوردي .(

إنّ عظيم الهمّة لا يرضى بالمرتبة السّفلى أو المرتبة المتوسّطة من معالي الأمور ، ولا يهدأ إلّا حين يضع نفسه في أسمى منزلة وأقصى غاية ، ويعبّر عن هذا المعنى النّابغة الجعديّ بقوله:

بلغنا السّماء مَجْدُنَا وجُدُودُنَا ** وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

ويقول أبو فراس الحمداني :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا ** لَنَا الصّدرُ دُونَ العالَمينَ أو القَبرُ

فعلو الهمة دليل على كمال الرّجولة وكمال المروءة ، وهو خلق يوصل إلى محبّة اللّه ومحبّة النّاس ، ويحقّق الرّفاهية والسّعادة للأفراد والشّعوب . ويثمر السعادة في الدّنيا والآخرة.

وفي السنة النبوية تربية للمؤمنين على السعي نحو الكمال وبلوغ القمم ومحاولة الوصول إلى الأفضل والأحسن ، ففي الصلاة : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فعَنْ أَبِى مَسْعُودٍ الأَنْصَارِىِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانُوا في الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانُوا في السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا في الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا ، وَلاَ يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِى سُلْطَانِهِ وَلاَ يَقْعُدْ فِى بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) (صحيح مسلم) .

وفي قراءة القرآن الكريم : الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) (متفق عليه).

وفي قصة مشروعية الأذان : حينما رأى عبد الله بن زيد (رضي الله عنه) الرؤيا ، قال له الرسول (صلى الله عليه وسلم): (أَلْقِهِ عَلَى بِلاَلٍ ، فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا ، فَلَمَّا أَذَّنَ بِلَالٌ نَدِمَ عَبْدُ اللهِ فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَأَقَامَ) (السنن الكبرى للبيهقي).

فالحرص على بلوغ الكمال في العمل قربة وطاعة لله (عز وجل) ، وإن لم ينتفع الإنسان بذلك في الدنيا لأنه فعل شيئًا يحبه الله تعالى،

فعَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي كُلَيْبٍ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ أَبِيهِ جَنَازَةً شَهِدَهَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا غُلَامٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ، فَانْتَهَى بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُمْكِن لَهَا ، قَالَ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (سَوُّوا لَحْدَ هَذَا) حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ: (أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ) (شعب الإيمان للبيهقي) ، فها هو رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يأمر بالإتقان في أمر لا ينفع ولا يضر ، لكنه يريد أن يُربيَ المسلمين على الإجادة والإتقان، يريد تربية الشخصية المسلمة على تَلَمُّسِ طريق الكمال ، وابتغاء الأجر على ذلك من الله تعالى ، يقول تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة:١٠٥].

وعلوّ الهمة خُلق يُورِدُ صاحبه موارد التّعب والعناء ، ولكن التّعب في سبيل الوصول إلى النّهاية من معالي الأمور يشبه الدّواء المرّ فيسيغه المريض كما يسيغ الشّراب عذبًا باردًا ، وعظيم الهمّة قد يشتدّ حرصه على الشّرف حتّى لا يكاد يشعر بما يلاقيه في سبيله من أنكاد وأكدار.

وهناك مجالات متنوعة ومتعددة تحتاج إلى علو همة العبد ، منها :

أولاً : العلم ، فالعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم ، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم ، تجعل الطّالب يقاسي شدائد ، ويتحمل متاعب ، ولا يستهين بالشّدائد إلّا كبير الهمّة ماضي العزيمة ، العلم من أسباب علو الهمة ، يرفع صاحبه عن الدنايا ، ويلزمه معالي الأمور ، ولقد ضرب الصحابة الكرام

(رضوان اللّه عليهم) المثل الأعلى في علوّ الهمّة وخاصة في طلب العلم، وكان على رأسهم عمر بن الخطّاب ، وعبد اللّه بن عبّاس (رضي الله عنهم) ، فعمر بن الخطّاب (رضي اللّه عنه) كان يتناوب مع جار له من الأنصار النّزول إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول: (... فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ...) (صحيح البخاري).

وها هو ابن عبّاس (رضي اللّه عنهما) يحدّث عن علوّ همّته في طلب العلم فيقول: (كَانَ يَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ يَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي) فَيَقُولُ: (يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟، فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ) (المستدرك للحاكم).

لقد كان الواحد منهم يسافر الأسفار البعيدة من أجل تلقي مسألة من مسائل العلم ، يتحمّل في سبيل ذلك الفقر والفاقة دون أن تضعف همته، فها هو عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) مع فضله وسابقته وما تعلمه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتمنى لو علم من الناس من هو أعلم منه ليرحل إليه ، يقول: (لَوْ أَعْلَمُ رَجُلا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهُ مِنِّي تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لأَتَيْتُهُ) (المعجم الكبير للطبراني) ، فكادت هممهم تبلغ السماء رفعةً ، لذا قادوا الدنيا وتصدروا الأمم .

إن مثل هؤلاء من أصحاب الهمم العالية هم الذين يُعَوَّلُ عليهم في حل المعضلات التي تعترض طريق الأوطان ، فهذا هو زيد بن ثابت (رضي الله عنه) الذي طلب منه النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أن يَتَعَلَّمَ

لغة اليهود حتى يأمن شرهم ، فتعلمها في خمس عشرة ليلة ، فعَنْ خَارِجَةَ – يَعْنِي ابْنَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ – قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ (رضي الله عنه) أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ وَقَالَ : (إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي). فَتَعَلَّمْتُهُ فَلَمْ يَمُرَّ بِي إِلاَّ نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ" [سنن أبي داود].

ثانيًا : العبادة ، إذ إنها حق الله تعالى على العباد ، وحقوق الله عز وجل أولى بالقضاء ، وعلو الهمة في العبادة مجال رحب لقوة العزيمة والتسابق في الخيرات ، فالمؤمن عندما يقوى إيمانه يقبل على طاعة الله تعالى برغبة جامحة ، فيكثر من النوافل والقربات ، وقد تمرُّ به فترات فتضعف همته وتخور عزيمته ، فيقصِّر في أداء الواجبات.

وقد كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يتعوذ بالله من العجز والكسل ، ويعلمنا علوّ الهمة ويرشدنا إلى أن نبتغي الدرجات العلا ولا نرضى بالقليل من أعمال العبادة والأجر الأخروي ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (.. إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ) (صحيح البخاري). فإذا أراد الإنسان الآخرة فليجتهد لها ، يقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا }[الإسراء: ١٩– ٢١].

ولن نجد أفضل من رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليكون قدوتنا وأسوتنا في علوّ همته في كل المجالات عامة ، ومجال العبادة خاصة ، فعلى الرغم من أن الله (عز وجل) غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، إلا أنه كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه ، وبلغ من همته (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ليعلي كلمة الدين ما يجعله يتمنى أن يقتل في سبيل الله ، فعن أَبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ) (صحيح البخاري).

ولقد فقه الصّحابة (رضي الله عنهم) عن اللّه أمره ، وتدبّروا في حقيقة الدّنيا فاستوحشوا من فتنتها ، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها ، وارتفعت همّتهم عن سفاسفها ، فلا تراهم إلّا صوّامين قوّامين، وقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشيد بعلوّ همّتهم في التّوبة والاستقامة ، وقوّة عزيمتهم في العبادة والإخبات.

ثالثًا : العلم والسعي نحو تقدم الأمة ورفعة الوطن ، إنه مجال عظيم لا ينبغي للمسلم التقصيرَ فيه ، فمن علامات التقدم والتحضر أن يصبح التنافس سمة بين الأفراد والفئات المجتمعية المتنوعة التي تهدف إلى خدمة الوطن ورقيه والاجتهاد في البذل والتضحية من أجل حمايته ورفعة الأمة ، أما عندما تتهاوى الهمم في ذلك وتضعف العزائم تحلّ

بالأمة الضعف حتى تصير غنيمة لغيرها من الأمم ، وقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) مثلا أعلى في علو الهمة التي تسهم في خدمة المجتمع ، فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ (رضي الله عنه) يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا ، فَقُلْتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ : لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا. (سنن الترمذي).

إن التنافس الشريف يكشف عن معادن الناس وعلو نفوسهم ، وقوة عزائمهم ، كما يبين مواطن قصورهم ، فلا يستوي في الناس مبادرٌ إلى الخير ومتباطئ ، ومسابق في الخير ومتثاقل؟! يقول تعالى:{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد:١٠].

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن علو الهمة من الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن الذي يريد الله والدار الآخرة، فالمؤمن الصادق الحريص على الخير ، لا تراه

إلا صاحب همة عالية ، ومن علو همته لا يعرف العجز ولا يألف الكسل ؛ فإن ضعف الهمة يترتب عليه آثار سلبية ، فهو كارثة للأمة ، وهو سبب ضياع قوتها ، وتفريق كلمتها ، وتمزيق وحدتها ، وتداعي الأمم عليها ونهب خيراتها ، وهو الأمر الذي حذر منه النبي (صلى الله عليه وسلم)، فعَنْ ثَوْبَانَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا)، فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ، قَالَ : (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ) ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهَنُ ؟ قَالَ : (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) (سنن أبي داود).

وفي الختام هذه رسالة نوجهها إلى كل مسلم: أن يغرس في نفوس أبنائه منذ نعومة أظفارهم هذا الخلق الرّفيع ، وهذه القيمة العظمى (علوّ الهمّة) كي تؤتي ثمارها في المستقبل رجالا أشدّاء ، وجيلاً معافى في بدنه وعقله ، ينهض بالأمّة ويقيلها من العثرات ، وحرّاسا للعقيدة والوطن ، مؤكدين على المشاركة الإيجابية في جميع مناحي الحياة ، ومنها المشاركة الإيجابية في جميع الاستحقاقات الوطنية.

إن ضعف الهمم كارثة الكوارث على المجتمع ، بل وعلى الأمة بأسرها ، فأيقظ همتك وقَوِّ عزيمتك قبل أن ترحل عن الحياة وما بلغت فيها شأنًا ، وضع لنفسك هدفًا أن تكون كَفُلَانٍ من العظماء ، أو كَفُلَانٍ من العلماء ، أو كَفُلَانٍ من العُبَّاد الصالحين ، فبعلو الهمم تبنى الأمم ، وبضعف الهمم تسقط الأمم.

يقظة الضمير الإنساني والوطني

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالضمير الإنساني وأعلى مكانته في نفوس المسلمين؛ لأنه هو المحرك الأساسي لجميع توجهاته وشتى واجباته ، فهو يؤدي إلى سلامة القلب من العلل ، وثبات وجهته على الخير ، وبالتالي يوصِّل إلى توفيق الله ورضوانه ، فعن أَبَي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ} (صحيح مسلم).

إن الضمير الإنساني محله القلب الذي بصلاحه يصلح الجسد والروح والعمل ، وبفساده يفسد كل شيء ، وهذا ما وضحه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حيث قال : (....أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ) (متفق عليه).

فالقلب الذي دل عليه الحديث ليس القلب الذي في صدر الإنسان والذي مهمته ضخ الدم إلى جميع أنحاء الجسم ، بل هو الضمير اليقظ ، والرقيب الداخلي الذي يوجه الإنسان دينيًا وتربويًا وأخلاقيًا وسلوكيًا ، فإذا أقدم الإنسان على عملٍ مخالفٍ يَشعُر بالندم والألم والرفض

الداخلي، وإذا كان هذا العمل موافقا يَشعُر بالراحة والسعادة والطمأنينة. وصدق الشاعر حيث قال:

إذا ما خلــوت الدهر يومًا فلا تقل خلـوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسـبنَّ الله يغفــلُ ســاعــةً ولا أنَّ ما يخــفى عليه يغـيبُ
ألم تر أن اليــوم أســرعُ ذاهــبٍ وأنَّ غــدًا للنــاظرين قــريبُ

ولا يكون القلب سليمًا والضمير يقظًا إلا إذا تربى المسلم على الإيمان الصادق ، الذي يشعر به الإنسان أن الله معه ، يسمعه ويراه ، ويعلم ما يفعله ، ويحاسبه يوم القيامة على ما قدم ، فالإنسان عندما يعتقد أن الله معه يجتهد في مراقبته تعالى ، ويستحضر عظمته سبحانه في كل أقواله وأعماله ، وهذا ما أشار إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديث جبريل (عليه السلام) عندما سُئِلَ عن الإحسان الذي هو أعلى درجات الدين واليقين ، قَالَ: (الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (متفق عليه).

من هنا عني الإسلام عناية فائقة بتربية المسلم على يقظة الضمير والخوف من الله ومراقبته وطلب رضاه ، حتى إذا غابت رقابة البشر وهمَّت نفسه بالحرام والإفساد في الأرض تحرك ضميره الحي اليقظ ؛ فيصده عن كل ذلك ويذكره بأن هناك من لا يغفل ولا ينام ، و يحكم بين عباده بالعدل ويقتص لمن أساء وقصر ، قال سبحانه: {وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار:١٠-١٢] ، وقال تعالى: { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

كِتَابا يَلْقَاهُ مَنْشُورا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبا} [الإسراء:١٣-١٤] .

بهذا الضمير الإنساني يستطيع الإنسان تأدية العبادات على الوجه الأكمل ، فتجد صاحبه محافظاً على العبادات والطاعات والذكر وقراءة القرآن ، فإذا لم يكن موصولاً بالله فإنه سيأتي يومٌ ويموت ضمير هذا الإنسان ، وعندما يموت الضمير يختل الميزان وتضطرب الحياة ، ولا يستطيع صاحبه أن يعبد الله حق عبادته ، لأنه لا يبتغي من ورائها ثوابًا ولا يخاف عقابًا ، ولا يخشى من مساءلة يوم القيامة.

فبالضمير الحي اليقظ ينضبط السلوك والتصرفات ، وتحفظ الحقوق وتؤدى الواجبات ؛ حتى وإن غابت رقابة البشر ، فتقوى الله ومراقبته والخوف منه والاستعداد للقائه أقوى في نفس المسلم من كل شيء ، فصاحب الضمير الحي يدرك أن الله معه حيث كان في السفر أو الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[المجادلة: ٧]. وغير ذلك من عشرات الآيات التي تربي الضمائر على محاسبة النفس والاستعداد للقاء الحق سبحانه.

وصاحب الضمير الحي يجيد عمله ويؤدى واجبه ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أثنوا عليه أم لا ، فإنه يحسن عمله على أية حال ،

وبالتالي فالإقبال على العمل والإحسان فيه يجب أن يكون بدوافع إيمانية وضمير يقظ ، استرضاء لله ، وإن جحد الخلق، يقول تعالى:{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨،٨٩] ، ومن ثم فإن إحياء الضمائر يأتي من محاسبة النفس ومراقبتها لله تعالى ، والخوف منه عز وجل.

ولقد ضرب القرآن الكريم لنا مثلا بيوسفَ – عليه السلامُ – في الطهر والعفاف حين حجَزَهُ ضميرُه عن الانجرافِ وراءَ الهوى ، إذ أقبلت الدنيا بمتعها في شخصية امرأة العزيز تراوده عن نفسه فأبى ، ولاذ بدينه قائلا:{ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣]. لقد أحس بمراقبة الله عليه ، وأنه يراه في هذا المكان المغلق ، فاعتصم بدينه، وانتصر صوت الإيمان في قلبه على صوت الغريزة في بشريته ، فكانت يقظة الضمير أقوى حارس عليه.

إن المؤمن القوي في عقيدته ، القوي في يقظة ضميره ، القوي في محاسبة نفسه، هو السعيد في الدنيا ، والفائز في الآخرة برضوان الله ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨].

ولقد ربى النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أتباعه على يقظة الضمير ومراقبة الله عز وجل ، فيأتي رجلان من المسلمين إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يختصمان في قطعة أرض ليس لأحدٍ منهما بينة وكل واحدٍ منهما يدعي أنها له وقد ارتفعت أصواتهما ، فقال: (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا

بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا) (متفق عليه) ، عند ذلك تنازل كل واحدٍ منهما عن دعواه ؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد حرك في نفوسهما الإيمان ، وارتفع بهما إلى مستوى عالٍ من التربية الوجدانية وبناء الضمير والتهذيب الخلقي ، فكانت هذه التربية وبناء الضمير حاجزا لهما عن الظلم والحرام ، وهو الدافع إلى كل خير .

ومن النماذج التي أحيا الإيمان في قلوبها يقظة الضمير ما ورد عن عبدٍ أَمَّنَهُ سيده على الغنم ، فضرب المثل الأعلى في العفة والنقاء ويقظة الضمير الإيماني ، يقول عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى مكة ، فعرضنا في بعض الطريق ، فانحدر بنا راعٍ من الجبل ، فقال له عمر (رضي الله عنه) : يا راعي ، بعني شاة من هذه الغنم، فقال : إني مملوك وهذه الغنم لسيدي ، فقال عمر -اختبارا له- قل لسيدك أكلها الذئب ، فقال الراعي: إذا قلت لسيدي هذا ؟ فماذا أقول لربي يوم القيامة ؟ فبكى عمر بن الخطاب ، واشترى هذا العبد من سيده واعتقه ، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

ونحن نسير في ركب أصحاب الضمائر الحية الذي خلَّد الزمن ذكراهم ، نذكر تلك القصة التي سجلها التاريخ صورة رائعة فريدة مؤثرة، تبين مدى يقظة الضمير الحي والحس الإيماني ، فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يعس المدينة ليلاً، ثم جلس تحت جدار ليسمع امرأة تقول لابنتها : قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت لها: يا أماه أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين

اليوم ؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها: يا بنية قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر ، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء ، كل ذلك وأمير المؤمنين يستمع، وقد سره أمانة الفتاة ، وضميرها الحي ، فاختارها زوجة لأعز أولاده ، وكان من ذريتها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه– (صفة الصفوة لابن الجوزي).

وها هو الإمام علي (رضي الله عنه) يفقد درعه ويجدها عند يهودي ، فأقبل إلى القاضي شريح يختصم إليه ، فقال علي للقاضي: هذه الدرع درعي ، ولم أبع ولم أهب ، فقال القاضي شريح لليهودي : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ، فقال اليهودي : الدرع درعي ، فالتفت القاضي شريح إلى علي (رضي الله عنه) وقال : يا أمير المؤمنين ألك بينة ؟ فابتسم علي وقال : أصاب شريح : مالي بينة ، فقضى بالدرع لليهودي ، فأخذها ومشى خطوات ثم رجع ، فقال : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يخاصمني إلى قاضيه فيقضي عليه ، أشهد أن لاإله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله ، الدرع والله درعك ، سقطت منك . فقال علي: أما إذا أسلمت فهي هدية مني. (الحلية لأبي نعيم).

إن القاضي عندما حكم على الخليفة كان ضميره هو الذي يحكم ، لأنه يحكم بالحق ، ويسير على المنهج السليم ، ويلتزم بما رسم الله في

كتابه ، وما حدده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في منهاجه ، من باب (البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر) ، فلما رأى اليهودي تلك اليقظة ، وعرف أن الهوى ليس له على نفس أحدهما سلطان أعلن إسلامه ودخل في زمرة الصالحين ، لأن الضمير هنا كان المسيطر على الحاكم وعلى القاضي ، إنها ضمائر متصلة بالله (عز وجل).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن الأمة في أمس الحاجة إلى أصحاب الضمائر الحية والسرائر النقية حتى تنهض وترتقي وتسعد ، فإن سعادة المجتمع ورقيه في يقظة ضمير أبنائه وتقوية الوازع الديني في نفوسهم ، لأنه هو المهيمن على شئونهم، فإذا مات الضمير الإنساني والوطني نتج عن ذلك فساد في الأخلاق والمعاملات ، فما الذي يمنع الموظف أن يرتشي ؟! والكاتب أن يزور ؟! والجندي أن يخل في عمله ؟! والطبيب أن يهمل في علاج مريضه ؟! والمعلم أن يقصر في واجبه ؟! والقاضي أن يظلم في حكمه ؟! والتاجر أن يغش ويحتكر في تجارته ؟! ... وهكذا في كثير من جوانب الحياة.

إن الذي يمنع كل ذلك هو الضمير الإيماني والوطني اليقظ الذي يهذب الأخلاق ، ويقوم اعوجاج السلوك ، ويكون سببًا في إصلاح النيات، وقبول الأعمال ، وكثرة العبادات والطاعات ، بل إنه يورث

الخوف من الله والخشية من عذابه وسخطه ، قال تعالى:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون} [السجدة: ١٦] .

على أن الضمير الوطني اليقظ هو الذي يبني ولا يهدم ، ويعمر ولا يخرب ، ويسعى إلى صناعة الحياة لا إلى صناعة الموت.

إذا مات الضمير فإن الحياة تَفسُد ، ذلك أن الضمير الحيّ سرّ الحياة ، من غيره تموت الشعوب والأوطان ، وتنتهي الأمم والحضارات ، وتزول القيم والمبادئ ، ويُصبِح كل شيء مباحًا : كلام الزور ، والخيانة ، والسرقة ، والمال الحرام ، والقتل ، والسكوت عن الظلم والظالمين ، وتزييف الحقائق وغيرها من موبقات الحياة .

لذا وجب علينا جميعا أن نحيي ضمائرنا بتقوى الله ومراقبته ، والنظر إلى مصالح مجتمعنا ووطننا ، ولنحذر أن تكون أجسادنا بلا ضمائر حية متصلة بالحق والخير والمعروف ، حتى تتنزل علينا رحمة الله ومغفرته .

* * *

حق الطريق والمرافق العامة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد خلق الله تعالى الإنسان وكرّمه ، وهيأ له من الأسباب ما يساعده على الحياة الكريمة ، فسخر كل ما في السموات وما في الأرض لخدمته ومنفعته ، قال سبحانه : { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [لقمان:٢٠] .

والمتأمل في شريعة الإسلام يجد أنها قد شملت واستوعبت كل مناحي الحياة وشئونها ، فلم تدع مجالاً في السلوك العام أو الخاص إلا وحثّت عليه ، ومن هنا فلا غرو أن يكون لتوجيهات الإسلام وأحكام الشريعة دورٌ بالغٌ في تنظيم شئون المجتمع ، ولا أدل على ذلك من أن مدونات أهل الإسلام في الفقه والأخلاق لا تزال مشحونة بالحكم والأحكام في فهم شئون الإنسان وسياسة المجتمعات، مع نماذج حية وسِيرٍ فذة وتطبيقاتٍ جليةٍ على مدى تاريخ الأمة المجيد .

وإن مما يُظهر شمولية هذا الدين وجلاءَ حِكَمِه وأحكامه ما أوضحته آيات القرآن الحكيم وأحاديث النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ذلك قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٣– ٦٧]. وقوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } [الإسراء: ٣٦ – ٣٨].

وفيما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ).

ولما كانت شريعتنا الغراء قد اهتمت بسعادة الناس في دنياهم وأخراهم، شرعت لهم من الآداب والأخلاق التي لو التزموا بها لعاشوا حياة طيبة كريمة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى:{وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا} [الجن: ١٦].

ومن هذه الآداب وتلك الأخلاق التي حثَّ عليها ديننا الحنيف: إعطاء الطريق حقَّه ، والالتزامُ بآدابه وواجباته ، فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا

الطَّرِيقَ حَقَّهُ)، قَالُوا : وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ (غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلاَمِ وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (متفق عليه) .

ويؤكد ضرورة هذه الحقوق للطريق في حياتنا ؛حيث لم تعد الطرقات كما كانت قديمًا مجتمعًا لقضاء حوائج الناس والنقاش في مسائلهم الملحة ، بل أصبحت مرتعًا لذوي الأغراض الدنيئة، المتبعين للشهوات ، والمتتبعين للعورات.

وعلى ذلك تأتي هذه الحقوق علاجًا لما هو حاصل في واقع حياتنا من مخالفات يرتكبها بعض الناس في الطرقات ، وحسب ترتيب الحديث النبوي لهذه الآداب يقع غضّ البصر الحق الأول من حقوق الطريق:

وقد جاء الأمر بغض البصر عامًا في الرجال والنساء على السواء ، وذلك لخطر النظر الفاحش من كلا الطرفين للآخر ، ويؤكد هذا ما جاء في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ)(المستدرك للحاكم).

ولأجل هذا دعا الإسلام أتباعه إلى غض البصر ، فقال تعالى :{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}[النور: ٣٠، ٣١]. وعلى ذلك فلو غض الإنسان بصره لاطمأنت نفسه وهدأ قلبه وسكن فؤاده.

وقد راعى الإسلام في الإنسان الخطأ غير المقصود ، فلم يغفل ما قد يقع من الناس بدون قصد منهم، لذا أمر من نظر إلى امرأة أجنبية أن

يصرف بصره عنها ولا يتمادى ، لما رواه مسلم في صحيحه عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه) قَالَ : (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي) (صحيح مسلم).

أما الحق الثاني من حقوق الطريق فهو كفُّ الأذى عن المارَّةِ ، وعدم التعرض لهم بأي لون من ألوان الاعتداء ، سواء كان هذا في أبدانهم أو أعراضهم ، بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وأديانهم ، ففي الحديث عن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى الله عَنْهُ) (مسند أحمد).

ولما كانت المجالس كثيرًا ما تشتمل على الغيبة والنميمة والاستهزاء والسخرية ؛ كان تشديد الإسلام على خطورة اللسان باعتباره الأداة الأولى في الإيذاء ؛ لذا جاء الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ. قَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ) ثُمَّ قال: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ من جَوْفِ اللَّيْلِ) ثُمَّ قَرَأَ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ} حَتَّى بَلَغَ {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[السجدة: ١٦ – ١٧]، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الْجِهَادُ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟)

قُلْتُ: بَلَى. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: (تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا) قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ، وهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!) (سنن ابن ماجه).

فليحذر المسلم ألوان الإيذاء للآخرين باللسان أو اليد ، فلا يسخر أو يستهزئ ولا يشتم ولا يسب ولا يغتاب ولا ينم ولا يتجسس ، حيث نهى الحق تبارك عن ذلك كله ، فقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ }[الحجرات: ١١،١٢] .

كذلك فليحذر المسلم أن يعتدي على الآخرين بأي نوع من التطاول ، وخاصة ما يكون باليد كضرب بريء أو قتل نفسٍ أو سفك دمٍ أو نحو ذلك ، وليعلم أن هذا من الإفساد في الأرض{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[المائدة: ٦٤]. وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ) (المعجم الكبير للطبراني).

وسر هذا أن الاعتداء على حرمات الطرقات أمر يكرهه الإسلام وتحذر منه الشريعة، وذلك لما فيه من مخاطر على الفرد والمجتمع؛ حيث تحول بعض الطريق من وسيلة لإنجاز حوائج الناس إلى أداة

لترويعهم ، وأصبح الإنسان – رجلاً كان أو امرأة – لا يأمن على نفسه أو أهله من السير في الطريق لما يكتنفه من مخاطر .

ثم إن جزاء ذلك منصوص عليه في قوله تعالى : {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٣، ٣٤].

ويا ليت الناس يعلمون عظم فضل إماطة الأذى عن طريق الناس ومجالسهم ، فما أعظمه من أجر يناله الإنسان حينما يرفع الأذى عن الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ) (صحيح مسلم).

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

ومن أبرز حقوق الطريق : ردُّ السلام ؛ فهو أدبٌ كريمٌ يتخلق به أبناء الإسلام ، وحق يحفظونه لإخوانهم ، يغرس المحبة ويزرع الألفة ويغسل الأحقاد ، ويستجلبُ به رضا الله تعالى وغفرانه ، ففي الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ

تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ) (صحيح مسلم).

فمن جلس بطريق يمر به المارة فيسلمون عليه وجب عليه أن يرد عليهم ، وقد قال الله تعالى : {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}[النساء: ٨٦].

أما إذا جلس الإنسان في طريق ولم يرد السلام على أحد ، أو يرد على من يعرفهم فقط ، أو يرد على من كان في منزلته كفعل بعض المتكبرين ، فإن ذلك يُعدُّ من سوء الأدب واكتساب الإثم، وإخلال بحق الطريق، فمن جلس في طرق الناس وجب عليه أن يؤدي لهم حقوقهم ، فإن السلام سنة ، ورده واجب على من سلم.

ومن المعلوم أن الطريق ليس ملكًا لأحد معين ، إنما هي من المرافق والممتلكات العامة التي ينتفع بها الجميع ، لكن للأسف الشديد نرى عبث البعض بها والاعتداء على ما فيها من مرافق بحجة أنها حق عام وليست لأحد بعينه ، وهذا ضرب من الإفساد المذموم شرعًا ، قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥].

ففي الآونة الأخيرة كثرت صور الاعتداءات على المرافق والملكيات العامة لأسباب شتى من بينها : ضعف القيم الإيمانية والأخلاقية لدى البعض من الناس والذين يلحقون أضرارًا جسيمة بالفرد وبالمجتمع ، في حين أن الإسلام قد أكد على ضرورة حماية المال العام من السارقين والمختلسين ، والغلولين ، والنصّابين ، والمرتشين ، والأفّاقين ، والمرابين

والمقامرين ، وممن يتلفون ويسرقون ، وممن يستغلون المرافق العامة لمنافعهم ومآربهم الشخصية من دون الناس جميعًا.

إن المرفق العام ملك للجميع وتخريبه هو اعتداء على المال العام الذي حذّر الله – تعالى- من سرقته أو الإضرار به ، فإن ذلك يعد من الغلول، قال تعالى : {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [آل عمران/١٦١].

فالواجب علينا جميعًا أن نتعاون في الحفاظ على هذه المرافق وتطويرها والبعد عمّا يؤدي إلى إتلافها ؛ لأنها مال عام ينتفع به الجميع ، ويعتبر الحفاظ عليه إحدى الضروريات الخمس التي جاءت بها شريعتنا الإسلامية الغراء، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[النساء: ٢٩].

فالحفاظ عليها مسئوليتنا جميعًا ، والاعتداء عليها اعتداء على مجموع الأفراد والمجتمع ؛ لأن الذي يسرق من المال العام فإنه يسرق من الأمة كلها، وعليه إثم كل من له حق في هذا المال ، فسرقته أعظم جرمًا من سرقة المال الخاص، كان مُعَيْقِيب على بيت مال عمر ، فكنس بيت المال يومًا فوجد فيه درهمًا فدفعه إلى ابنٍ لعمر، قال مُعيقيب: ثم انصرفت إلى بيتي، فإذا رسول عمر قد جاءني يدعوني، فجئت فإذا الدرهم في يده فقال لي: ويحك يا مُعيقيب، أوجدت عليّ في نفسك شيئًا ؟ قال : قلت: ما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) في هذا الدرهم؟! (مسند الفاروق لابن كثير).

حق المرأة في الميراث والحياة الكريمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد :

فلقد اهتم الإسلام بالمرأة اهتمامًا بالغًا ، فرفع مكانتها وعظَّم منزلتها ، وجعلها مرفوعة الرأس عالية القدر ، تتمتع بشخصية محترمة وحقوق مقررة وواجبات معتبرة ، وبالجملة أكرمها أيما إكرام، فصان شخصيتها وردّ عنها ألوانًا من الظلم تراكمت عليها عبر قرونٍ طويلة ، وبث روح الأمل في نفوس النساء فساوى بينهن وبين الرجال في الثواب والجزاء على العمل الصالح ، يقول تعالى:{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}[آل عمران: ١٩٥] ، ويقول سبحانه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧].

ولقد بلغ من تكريم الإسلام للمرأة أن خصص لها سورة من القرآن سماها « سورة النساء » ، فدلَّ ذلك على اهتمام الإسلام بالمرأة اهتمامًا كبيراً ، بخلاف ما كان عليه أمرها في الجاهلية قبل الإسلام ، فقد ظلمت المرأة في الجاهلية ظلماً شديدًا ، فلما جاء الإسلام رفع مكانتها ، وأعلى شأنها ، وأعزها وأكرمها ، يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا) (متفق عليه).

وكما حرص الإسلام على حفظ كرامة المرأة ، واحترام شخصيتها المعنوية ، أثبت لها حقها في التصرف ومباشرة جميع الحقوق كحق البيع، وحق الشراء ، وغير ذلك ، قال تعالى :{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ} [النساء:٣٢] ، وهكذا فالمرأةُ في ظل تعاليم الإسلام القويمة وتوجيهاتِه الحكيمة تعيش حياةً كريمة في مجتمعها المسلم ، حياةً مِلؤها الحفاوةُ والتكريم من أوَّل يوم تقدُم فيه إلى هذه الحياة، مُرورًا بكل حال من أحوال حياتها ، أماً كانت ، أو بنتاً ، أو أختاَ ، أو زوجة ، أو امرأة من سائر أفراد المجتمع .

أما تكريم الإسلام للمرأة أمًّا ، فقد دعا إلى إكرامها إكرامًا خاصًّا ، والإحسان إليها ، وحثَّ على العناية بها ، فقال تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء:٢٣، ٢٤] ، وقال سبحانه: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ } [لقمان: ١٤].

فأي تكريم أعظمُ من أن يقرن الله حقها بحقه ، ويجعلها المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أحقَّ الناس بحسن الصحبة وإسداء المعروف ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ:

(أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : (ثُمَّ أَبُوكَ) (متفق عليه) .

وأما تكريم الإسلامُ للمرأة بنتًا : فرفع شأنَها ، وعدَّها نعمةً عظيمةً وهِبةً كريمة ، فقال تعالى : {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: ٤٩–٥٠] ، ثمَّ أمر الله بإكرامها طفلةً ، وبين حقها في الرضاعة كالولد سواء بسواء ، وحثَّ على رعايتها والإحسان إليها منذ نعومة أظفارها ، قال تعالى:{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ} [البقرة: ٢٣٣] ، وقد حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على تربية البنت في جو من العبادة، وتعليمها آداب الإسلام ، والإنفاق عليها ، ووعد على ذلك بالثواب العظيم ، ففي مسند أحمد من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ (رضي الله عنه) قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (مَنْ كَانَتْ- وَقَالَ مَرَّةً - مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ فَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ) (مسند أحمد).

وبعد رعايتها وتربيتها حثَّنا الإسلام على معاملتها بالعدل وعدم التفرقة بينها وبين إخوتها من الذكور والإناث ، فعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِير (رضي الله عنهما) يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ قالها ثلاثاً) (السنن

الكبرى للنسائي)، ولما كان أحد الناس جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَجَاءَ بُنَيٌّ لَهُ ، فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ ، ثُمَّ جَاءَتْ بُنَيَّةٌ لَهُ ، فَأَخَذَهَا وَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (فَمَا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا) (شعب الإيمان للبيهقي) ، أي أنه كما وضع الولد على فخذه كان ينبغي أن يفعل مع البنت فيجعلها على فخذه الآخر.

أما تكريم الإسلام للمرأة أختًا ، فقد حثّ على إكرامها والإحسان إليها، ووعد من أحسن تربيتها بالأجر العظيم ، فعند (الترمذي) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (لَا يَكُونُ لِأَحَدِكُمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ). وفي (مسند أحمد) من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ بِنْتَانِ أَوْ أُخْتَانِ اتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُتْنَ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ) .

ومن تكريم الإسلام للمرأة زوجة : فقد حُفَّت المرأة بسياج عظيم من التكريم ، والمتأمل في شريعة الإسلام السمحة يجد أنها قد أوجبت للمرأة على زوجها حقوقًا مادية ، كالصداق والنفقة ، وغير ذلك ، تكريماً لها ورفعة لشأنها ، فقال تعالى:{وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} [النساء: ٤]، فالآية الكريمة عبرت عن المهر بأسلوب هو غاية في تكريم المرأة ، فجعلته حقًا ثابتًا لها ، ولم تجعله ثمنًا للتمتع بها ، ومن ثمَّ لا يجوز لأحد أكْل صداق المرأة أو التصرف فيه بغير إذنها ورضاها الحقيقي .

وكذلك على الزوج أن ينفق على زوجه ، والنفقة تشمل الطعام والشراب والملبس والمسكن، وما تحتاج إليه الزوجة لقوام حياتها ، لقوله تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} [الطلاق:٧].

كما أوجبت الشريعة الإسلامية للمرأة حقوقًا معنوية عظيمةً ، من المعاشرة بالمعروف ، والإحسان، والرفق ، والإكرام ، لما تقوم به من عمل عظيم في بيتها ، من تربية أولادها ، ومسئوليتها تجاه زوجها ، وغير ذلك من الأمور التي تقوم بها المرأة تجاه أسرتها ، قال سبحانه: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[النساء: ١٩]، وقال تعالى: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة:٢٢٩] ، وهذا ما وصى به النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبته في حجة الوداع ، حيث قال : (اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمُ، اتَّخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ) (شعب الإيمان) ، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (متفق عليه).

وفي شأن المرأة بصفة عامة أمًّا كانت أو أختًا أو زوجةً أو ابنةً أو غير ذلك ، فقد نهى ديننا عن عضلهن ، وظلمهن ، وبخسهن ، حقوقهن ، بل جعل العدل معهن وعدم التفرقة بين البنت والابن سبيلاً واسعًا لمرضاة

الله وطريقًا لرضوانه وجنته ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا – قَالَ يَعْنِي الذُّكُورَ – أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ) (سنن أبي داود) ، ففي هذا الحديث معان راقية وبلاغة عالية ، حيث عبَّر النبي (صلى الله عليه وسلم) في صدر الحديث بالاسم الموصول (مَنْ) الذى يفيد العموم والشمول، وعبر بلفظ الأنثى دون البنت ، لأنه أعم ، فلفظ الأنثى يشمل كل أنثى سواء أكانت بنتًا ، أم أختًا ، أم بنت ابن ، أم بنت بنت ، أم غير ذلك.

وإضافة إلى هذه الحقوق التي أقرها الإسلام للمرأة فقد جعل لها حقًّا في الميراث مع الرجل جنبًا إلى جنب ، فقال تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا}[النساء: ٧]، فقضية الميراث تُعدُّ واحدة من أهم القضايا التي أكد عليها سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خطبته الجامعة في حجة الوداع حيث قال : (إِنَّ اللَّهَ عز وجل قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، أَلَا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ) (سنن ابن ماجه).

وقد حدد الحق سبحانه وتعالى بنفسه أنصبة الوارثين ولم يتركها لأحد من خلقه ، حيث يقول سبحانه وتعالى : {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ

أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١١] ، وبهذا الميزان الإسلامي الدقيق كان نصيب المرأة في بعض أحوال الميراث نصف نصيب الرجل، وذلك لأنها لا تتحمل من الأعباء المادية ما يتحمله الرجل .

ولم يقف الأمر عند حد تحديد الأنصبة ، وإنما رتب القرآن الكريم الوعيد الشديد لكل من تسول له نفسه الاعتداء على هذه الحقوق ، فقال سبحانه في ختام الحديث عن تحديد الأنصبة: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: ١٣، ١٤] ، وذلك ليعلم كل من يجترئ ويقترب من حدود الله ويأكل الميراث أو يعبث بالأنصبة إنما يقترب من النار ، بل يأكل النار ويتعاطاها بيديه ، فكيف به حين يُجاء بجهنم؟!! {...وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}[الفجر:١٩– ٢٣].

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يوم الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن من أعظم مكتسبات المرأة في الإسلام إنصافها في قضية الميراث ، فلقد كان أهل الجاهلية لا يرون لها حقًّا في الميراث ، بل كانوا يعتبرونها

نفسها ميراثًا يتداولونه خلفًا عن سلف ، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك والتحذير منه، ونعى على أهل الجاهلية أكلهم حقوق بعض الورثة بغير حق ، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[النساء: ١٩] ، وهذا ما أكده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث رهب من منع المرأة حقها في الميراث ، فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَطَعَ مِيرَاثًا فَرَضَهُ اللَّهُ قَطَعَ اللَّهُ مِيرَاثَهُ فِي الْجَنَّةِ) (سنن سعيد بن منصور)، وفي رواية : (مَنْ قَطَعَ مِيرَاثًا فَرَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ قَطَعَ اللهُ بِهِ مِيرَاثًا مِنَ الْجَنَّةِ) (شعب الإيمان للبيهقي).

ثم إن حرمان النساء من الميراث يكون لعلل واهية أو عادات وتقاليد بالية لا أصل لها في الشرع ، وكأن الذي يعبث بالميراث فيحرم شخصا ويؤثر آخر وفق ما يقتضيه هواه يظن نفسه أعلم بالمصالح ، وأعلم بمن يستحق ومن لا يستحق من رب العالمين وأحكم الحاكمين ، خالق الخلق ومالك الملك ، وكأن لسان حال هذا المفتئت على الله (عز وجل) في تشريعه يقول : تقسيم الله لا يعجبني، أو كأنه يقول: أنا أقسّم تقسيمًا أحسن من تقسيم الله- والعياذ بالله - ، إذ لو كان مؤمنا بأن تقسيم الله في كتابه العزيز هو الأفضل والأمثل ، لما تدخل بإيثار هذا وحرمان ذاك.

لقد أوصى القرآن الكريم بمعاملة النساء بصفة عامة ، والإحسان إليهن وملاطفتهن ومؤانستهن وتطييب القول لهن ، بعيدًا عن الشتم والضرب والإهانة ، قال تعالى : {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[النساء : ١٩] ، أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإِحسان .

* * *

المنتج الوطني بين إتقانه صنعًا
وأولويته بيعًا وشراء

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}[الكهف: ٣٠] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد :

فلقد حثّ الإسلام على العمل الجاد الهادف ، من أجل تحصيل الرِّزق والانتفاع بما أحله الله (عز وجل) للإنسان من طيبات الرزق ورغد العيش ، وحتى يتحقق مبدأ إعمار الكون وإصلاحه، قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[هود: ٦١] ، ومن ثم يكون النهوض والرقي بالمجتمع.

ولقد نال العمل في الإسلام منزلة خاصة ، حيث جاءت نصوص القرآن والسنة تحث الإنسان وتشجعه على العمل وضرورة السعي على المعاش ، وتحصيل الرزق ليعفَّ نفسه ومن يعول عن ذل المسألة ، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُور}[الملك: ١٥] ، وحتى بعد أداء الفرائض أمرنا بالانتشار في الأرض للعمل ، قال تعالى : {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الجمعة: ١٠] ، وقال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الأعراف: ١٠] .

ومن ثمَّ أرشد النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) إلى أن العمل الجاد الهادف خير للإنسان من أن يسأل الناس فيكون عالة على المجتمع ، فعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ) (صحيح البخاري) ، بل أخبر النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) عن أفضل أنواع الكسب وأطيبها ، وهو ما كان ناتجًا عن العمل، فعن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: (عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ) (مسند أحمد).

كما أكد الإسلام أن العمل تمتد آثاره ، وتجبى ثماره من كل جهة ، فيؤجر عليه العبد في حياته وبعد وفاته ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ) (متفق عليه) ، ومن ثمَّ فإن دعوة الإسلام إلى العمل فيها من الخير للإنسان ما فيها ، إضافة إلى أن العمل به يتضاعف الإنتاج ، ويتحقق الرقي بوطننا والتقدم به إلى مصاف الدول المتقدمة في جميع المجالات .

وقد خلق الله تعالى هذا الكون بإتقان وإبداع ليسير الناس على هذا النهج الإلهي في إتقان العمل ، قال تعالى : {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[النمل: ٨٨]. فالإسلام لا يطلب مجرد العمل إنما يطلب إتقانه وتجويده ، وإخراجه في أكمل صورة تليق به ، يقول

الحق سبحانه لسيدنا داود (عليه السلام) : {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سبأ: ١١].

فإتقان العمل هدف من أهداف الدين ، يسمو به المسلم ويرقى به في مرضاة الله عز وجل ، وهو أيضًا ظاهرة حضارية تؤدي إلى رقيّ الجنس البشري ، وعليه تقوم الحضارات ، ويعمر الكون، وتتقدم الأمم فالحق سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، وإخلاص العمل لا يكون إلا بإتقانه.

على أن جودة العمل وإتقانه من أسس ديننا الحنيف ، فعندما حثنا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) علي إتقان العمل بقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ) (المعجم الأوسط للطبراني) فإنه بذلك رفع منزلة الإتقان إلي أسمى المنازل ، حيث جعله سبيلًا إلى محبة الله عز وجل، فالعمل المتقن هو الذي ينتفع به الناس ، ويقيم البناء القوي الشامخ ، وهو أكبر دليل على جودة العمل، واستنفاد الجهد في إبلاغه مرتبة الإحسان ، كما أنه برهان واضح على إخلاص المرء لعمله ، وعدم تفريطه في حقوق وطنه، فلن يتحقق النهوض لأي حضارة، ولا التقدم لأي بلد ما لم يتحقق مبدأ الإتقان في كل شيء.

وهو أيضًا من أسس التربية في الإسلام ، لأن الإتقان في المجتمع المسلم ظاهرة سلوكية تلازم المسلم في حياته ، والمجتمع في تفاعله وإنتاجه ، فلا يكفي الفرد أن يؤدي العمل صحيحًا، بل لا بد أن يكون صحيحًا ومتقنًا ، حتى يكون الإتقان جزءًا من سلوكه الفعلي .

وإذا كان الإسلام قد رغَّب في إتقان العمل على وجه العموم فإنه حثّ على إتقان العمل في المنتج الوطني الذي يحتاج منَّا إلى كل

دعم بيعًا وشراءً ، لما سيحققه من رخاء للاقتصاد الوطني وتحقيق العزة والريادة للمجتمع. ومن ثمَّ فإن دعم المنتج الوطني بكل صور الدعم أصبح ضرورة شرعية وواجبًا وطنيًّا .

وإن إتقان العمل صورة من صور التعاون المطلوب شرعًا من كل أفراد الأمة ، وقد تضافرت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو المسلمين إلى التعاون والتكاتف من أجل تحقيق عزّ هذه الأمة ، والعمل على رقيها ونهضتها ، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثم والعدوان}[المائدة : ٢] ، قال الإمام الماورديُّ (رحمه الله) : " ندب الله (سبحانه) إلى التَّعاون بالبرِّ ، وقرنه بالتَّقوى له ؛ لأنَّ في التَّقوى رضا الله تعالى ، وفي البرِّ رضا النَّاس ، ومَن جمع بين رضا الله تعالى ورضا النَّاس فقد تمَّت سعادته ، وعمَّت نعمته " .

ويتجلى التعاون على البرّ والخير بين المسلمين في صورة ما أجملها وما أروعها في قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (متفق عليه) .

ولا شك أن الاقتصاد في عصرنا الحديث أحد أهم دعائم القوة وأشد أركانها ، ولن تتحقق هذه القوة الاقتصادية ولا غيرها من القوى إلا بالعمل والعرق ، والجد والتعب والنصب ، وهنا يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَمْسَى كالًّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ) (المعجم الأوسط للطبراني) ، ومن ثمّ فإن دعم المنتج الوطني وخاصة وقت

الأزمات يشكل حجر الأساس في بناء اقتصاد مصرنا الغالية، فكلما أقبلنا عليه بيعًا وشراءً وتجارةً وجعلناه أولوية في حياتنا كلما أعطينا المنتجين والمصنعين الفرصة لرفع قدرته التنافسية ، وتوفير المزيد من فرص العمل لأبنائنا.

كما أن دعم المنتج الوطني يؤدي إلى إدخال السرور على قلب كل وطني ، سواء أكان صاحب العمل أم العامل الذي يتكسب من عمله لكفاية أهله .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

هناك آليات مهمة تسهم في دعم المنتج الوطني ، منها :

الاهتمام بجودته : ولن تتحقق الجودة بمفهومها الواسع إلا إذا أدى كل واحد ما عليه من حقوق، وراقب الله عز وجل فيها ، ووضع نفسه مكان المشتري إن كان بائعًا أو مكان البائع إن كان مشتريًا ، ونصب عينيه حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه).

منع الغش والتدليس: فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يراقب حركة السوق بيعًا وشراءً من أجل ضبط حركته ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ

فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً فَقَالَ: (مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟) قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ : (أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّى) ، وفي رواية : (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح مسلم).

أيَـا بَائِعًـا بالغـشِّ أَنـتَ مُعَرَّضٌ لدَعوَةِ مَظْلُومٍ إلى سَامِعِ الشَّكْوَى
فَكُلْ مِنْ حلالٍ وارْتدِعْ عن مُحرَّمٍ فَلسْت على نارِ الجحِيمِ غدًا تَقْوَى

محاربة المحتكرين والتصدي لهم: فالمحتكر إنسان لا خلق ولا وطنية له ، غلبته أنانيته ونقيصته فجعلهما فوق كل اعتبار ، فاستباح أقوات الناس ومقومات حياتهم فتاجر فيها ، والدين الإسلامي أمرنا بالتراحم وعدم استغلال حاجات الناس ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ) (سنن ابن ماجه) ، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَرِئَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى) (مسند أحمد). وذلك لأنه يستجلب سخط الله (عز وجل) وسخط الناس ودعاءهم عليه ونقمتهم وبغضهم له .

هذا مع تأكيدنا أن المنتج الوطني لا ينحصر في الصناعات ، إنما يشمل الزراعات وسائر المنتجات ، بأن تكون وفق أفضل المواصفات العالمية ، سواء أكانت منتجات زراعية أم غذائية أم صناعية .

جدير بالذكر أن دعم المنتج الوطني يحقق آثارًا وفوائد طيبة تعود بالخير على الفرد والمجتمع ، منها :

- أنه يتيح فرص عمل لأبناء الوطن جميعًا وبخاصة الشباب ، ويقلل من نسب البطالة بين أفراد المجتمع.

- أنه يشكل حجر الأساس في بناء دولة قوية بأفرادها ، واقتصادها وذلك من خلال رفع قدرة المنتج التنافسية.

- أنه ينمي عند الفرد قيمة الولاء والانتماء للوطن فيعمل جاهدًا على نصرته ورفعته.

- أنه يعمل على نشر المحبة والمودة والرضا المتبادل بين كافة أطياف المجتمع وفئاته وطبقاته، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه).

وفي المقابل فإن من يترك المنتج الوطني، ويذهب إلى غيره بحجج واهية، ضاربًا بقيم الولاء الوطني عرض الحائط ، فإنه يتسبب في ضعف الاقتصاد الوطني ، ويزيد من نسبة البطالة بين أفراد المجتمع كما يزيد من قوة اقتصاد الدول المصدرة ، وإضعاف الخبرة الوطنية وعدم تنميتها .

وليعلم الجميع أن في دعم المنتج الوطني كل الخير لوطننا وأمتنا ، وفي إهماله والإعراض عنه والإقبال على المنتج الأجنبي من غير ضرورة ضياع فوائد ومنافع كثيرة على الوطن والفرد والمجتمع.

* * *

الأمن الغذائي حمايته وحرمة التلاعب به

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ الكريمِ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[البقرة: ١٧٣] ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ القائلُ في كتابهِ الكريمِ:{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الشعراء: ١٨١: ١٨٣]، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ونبينَا محمدًا عبدُهُ ورسولُه ، اللهم صلِّ وسلمْ وباركْ على سيِّدِنا محمدٍ ، وعلى آلهِ وصحبهِ ومن تبِعهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

وبعد:

فَإِنَّ الدِّينَ الإسلامِيَّ الحَنِيف دينٌ شامل لكل نواحي الحياة بمَا تصلح به حَيَاة البشر ، ويتَوافَقُ مَعَ متطلباتهم المَعيشيَّة واحتيَاجَاتِهِم الإنسانية، ويكفل لهم السعادة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩].

فقد عُنِيَ الإسلام بالمُقَوِّمَاتِ الأسَاسِيَّةِ لحَيَاةِ الإنْسانِ ، من مَطْعَمٍ ومشْرَبٍ، ومسْكَنٍ، ومَلْبَسٍ ، وغير ذلك مما يساعد على استقرار حياته وسكينتها وطمأنينتها، وتحقيق أمن الإنسان بكل صوره وجوانبه.

على أن نعمة الأمن من أعظم نعم الله (عز وجل) على الإنسان لا يستطيع أن يعيشَ بدونها ، ولا يشعر بلذة العبادة والطاعة أو الطعام والشراب إلا بتحققها، يقول سبحانه: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ

الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}[قريش: ١ : ٤] .

ومن مجالات الأمن التي اهتم بها الإسلام وحرص على تحقيقها (الأمن الغذائي) بعيدًا عن الجشع والطمع، والغش والاحتكار والاستغلال والنفعية والأنانية ، فللأمنِ الغِذَائي أهَميَّةٌ كُبْرَى في حَيَاةِ الأفْرادِ والأمَمِ فهو يَرتَبِطُ ارتبَاطًا وثيقًا بالاستِقْرَارِ والأمْنِ المُجْتمَعِيّ ، وقد رَبَطَ القُرآنُ الكريمُ بينهُمَا بِربَاطٍ وثيقٍ إلى يومِ القيامةِ ، فقال سبحانه مُمْتَنًّا على أهلِ مكَّةَ بهاتين النِّعْمَتَيْنِ: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[القصص: ٥٧].

وكذلك جاءت السنة النبوية المطهرة بما يجعل الأمنَ الغِذائي ركيزة مهمة من ركائز الحياة المستقرة ، وربطت كذلك بينه وبين الأمن المجتمعي ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً في سربِهِ، مُعَافَىً في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا) (سنن الترمذي)، فالأمنَ الغذائي ضرورةٌ لحفظ كرامة الفرد والأمة، وإن أيَّ مساسٍ به له عواقبُه وأضراره الخطيرة بما يجعل المساس به جريمة كبرى في حق المجتمعات ، لما يترتب على افتقاده من مفاسد وجرائم متعددة كالسرقة والسلب والنهب وقطع الطرق والغصب والرشوة والاحتيال والتربح والابتزاز وغير ذلك من مفاسد وشرور.

لذا حرصت الشريعة الإسلامية على حماية المجتمع من الجشع والاستغلال، وحرَّمت التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية وحثَّت على السعي في تحصيل المال الحلال ، باكتسابه من الطرق المباحة

المشروعة، دون أي اعتداء أو ظلم للآخرين ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}[النساء: ٢٩ ،٣٠] ، كما حثت التاجر على الصدق والسهولة واليسر والسماحة وحسن المعاملة في بيعه وشرائه فلا يغالي في الربح ، حتى لا يرهق كاهل الفقراء والمحتاجين فيكون ذلك سببًا لمحق البركة من رزقه، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ، قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا) (مسند أحمد).

وفي المقابل حرَّم الإسلام كل صور المعاملات التي تفسد العلاقات بين الناس وتؤدي إلى الطبقية والأحقاد ، فحرم احتكار السلع التي يحتاجها الناس ، وحرم رفع أسعارها جشعًا واستغلالا ، وذلك لكي تتوفر السلع الغذائية التي تُؤَمِّنُ احتياجات الناس والتي لا غنى لأحد منهم عنها.

ومن هنا كان استنكار النبي (صلى الله عليه وسلم) للسلوكيات الاستغلالية التي يمارسها من لم يراقب الله عز وجل من التجار ، إذ يقول: (مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ) (مسند أحمد)، فالخاطئ أشد جرمًا وشراسة من المخطئ ، فالله تعالى يقول{لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} [الحاقة: ٣٧]. ويؤكد ذلك قوله (صلى الله

عليه وسلم) في رواية أخرى: (وقد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ ورسولِه) (السنن الكبرى للبيهقي).

والاحْتِكَار والاستغلال يكونان سَبَبًا في هَلاكِ ودَمَارِ صاحبهما في الدنيا والآخرة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغَلِّيَهُ عَلَيْهِمْ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُقْعِدَهُ بِعُظْمٍ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (مسند أحمد) .

ولكي تتم حماية الأمن الغـذائي حرّم الإسـلام كل ما يؤدي إلى التلاعب به ، ومن ذلك الغش بجميع صوره في التعامل بين الناس ، فقد أكد القرآن الكريم حرمة الغش في الكيل والميزان وتوعد على ذلك بالويل والخسران، فقال سبحانه:{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}[المطففين:١: ٣].

ومن صُورِ الغِشِّ خَلْط الجيد بالرديء ، وإظهار الرديء في صورة الجيد وبيعه بقيمته ، فقد مرَّ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَلَى صُبْرَةٍ مِنْ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ: (يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ، مَا هَذَا؟)، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: (أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ)، ثُمَّ قَالَ: (مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح مسلم) .

وبسبب حساسية العمل التجاري نجد المصطفى (صلى الله عليه وسلم) يقول: (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ) (سنن الترمذي). هكذا جاء الشرع الحنيف مادحًا لكل صلاح ، محاربًا

لكل فساد ، موضحًا ما يحقق سلامة المجتمع من الأمراض التي تعوق مسيرة تقدمه ورقيه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن تحقيــق الأمن الغذائي وتوفيره لغير القــادرين يتطلب منّــا جميعًا التعاون والتكافل ، وهو ما حثَّ عليه ديننا الحنيف في قوله سبحانه: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢] ، ويقول سبحانه: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٦١] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (ما مِن يومٍ يصبِح العبادُ فيه إلا ملَكان ينزلان، فيقول أحدُهما: اللّهمّ أعطِ منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر: اللّهمّ أعطِ ممسكًا تلفًا) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه) ، فلابد من التكافل والتراحم والتعاون ، وبخاصة في وقت الشدائد والأزمات.

* * *

النظام سلوك إنساني وحضاري

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ الكريمِ: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩] ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ونبينَا محمدًا عبدُه ورسولُه ، اللهم صلِّ وسلمْ وباركْ على سيِّدِنا محمدٍ، وعلى آله وصحبهِ ومن تبعهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ .

وبعد :

فإن الدين الإسلامي دين يُنظّم حياة البشر في مختلف ميادينها بما يصلح شأن الفرد والمجتمع ،ذلك أن النظام محور أساس لحياة الناس جميعًا ، بل للكون كلّه الذي يسير بنظام دقيق.

والمتأمِّل في هذَا الكونِ الواسعِ بكُلِّ ما فيهِ من بدائع خلَقهَا الله (عز وجل) يَرَى بِوُضوحٍ أنَّ الله (عز وجل) خلقه بنظَامٍ وترتِيبٍ وتنسيقٍ وإتقانٍ يُبهِرُ العقولَ ، فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ خَلقَهُ اللهُ (عزَّ وجلَّ) وسَخَّرَهُ لحِكْمةٍ وبحِكْمةٍ، فلم يخْلُق سبحانه شيئًا في الكَونِ عبثًا قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[النمل: ٨٨]، وقال جلَّ شأنُه: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}[القمر: ٤٩]، وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[لقمان: ١٠] .

فكلُّ شيءٍ في هَذا الكَونِ أعَدَّهُ الله (عز وجل) وِفقَ نِظامٍ مُحكَمٍ دَقِيقٍ، لا يتقدم فيه لاحِقٌ على سابِقٍ، ولا يتأخر فيه سابِقٌ على لاحِقٍ

وإلاَّ لاختَلَّ نِظامُ الكَونِ كلّه ، قال تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٣٨ :٤٠] ، فكلُّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِ هذا الكَونِ لها مكانها وموقعها المحدد ، ولها حركتها الخاصة بهَا.

بل إنَّ الأرزاقَ التي قدَّرهَا الله (عز وجل) لِخلْقِه قسَّمَها بِنِظامٍ دقيقٍ يتناسبُ مع متطلباتِ الحياةِ التي تُصلِحُ الفردَ والمُجتَمعَ ، قال تعالى: {وَلَو بَسَطَ اللهُ الرِّزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ}، وقال سبحانه: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيرٌ مِمّا يَجْمَعُون} [الزخرف: ٣٢] ، وتلك سنة الله في خلقه {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا} [الفتح: ٢٣].

وكما أنَّ النظامَ سُنَّةٌ كونيةٌ فهو أيضًا مبدأٌ أصيلٌ من مبادئِ الإسلامِ العظيمةِ ، جاءَ ليحكُمَ الحياةَ في جميعِ نواحيهَا وجوانبِهَا باتزان واعتدالٍ ، لا يطغى فيه جانب على آخر .

فالصلاةُ نظَّمَ الإسلامُ أوقاتَها وطريقةَ أدائِها ، وجعل النظام من أهم مقومات صلاة الجماعة ، حيث يتقدم الإمام ، والصفوف متساوية خلفه فقد كان نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: (سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ) (متفق عليه)، وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُعلِّمُ أصحابَهُ احترامَ النظامِ في صلاة الجماعة قائلاً : (إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ

بِهِ، فَإِذَا صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا ، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا...) (متفق عليه)، إنه النظام في أجلِّ صوره ، وأبهى مظاهره .

كذلك الزكاةُ تُؤدَّى وِفقَ نظامٍ دقيقٍ مُفَصَّلٍ ومُوَضَّحٍ كمًّا وكَيفًا وأداءً وكذلك الصيام والحج وسائر العبادات والمعاملات .

فالنظام عمل يحث عليه الإسلام ، ويرغب في تطبيقه والمحافظة عليه، حتى عند الطعام والشراب فقد وضع له نظامه وآدابه وثقافته فعَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي)، ومن ثقافة الطعام وآدابه ما رواه عُمَر بْن أَبِي سَلَمَةَ قال: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ (متفق عليه) .

ومن أهم المواضع التي يجب أن يراعى فيها النظام ويسود: احترام الطرقات وإشارات المرور ، وعلامات السير وقواعده وضوابطه ومنها احترام حق الآخر في أي عمل يتطلب ترتيب الأدوار فيما يتصل بالحصول على الخدمات والحاجات سواء الغذائية كصرف مستحقات بطاقات التموين، ونحوه كالتعامل مع المجمعات الاستهلاكية وغيرها ، أو صرف اسطوانات الغاز، أو تلقي الخدمات الصحية ، أو خدمات السجل المدني أو الشهر العقاري أو البنوك ، أو مكاتب البريد ، أو تقديم أي طلبات تقتضي النظام، فاحترام الإنسان لدوره ، هو احترام للنفس وللغير

كما أن احترام القانون بصفة عامة يعد أحد أهم أعمدة النظام واستقامة السلوك الإنساني وتحقيق صالح الفرد والجماعة ، ونزع فتيل الكثير من الأحقاد والمشكلات .

فلنبادر إلى التعاون على ترسيخ السلوك الحضاري والإيجابي في شئوننا اليومية، بحيث يحب كل منا للآخر ما يحبه لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمد لله وكفى ، والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ المصطفى ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى .

إخوة الإسلام:

إن احترام النظام احترام لمبادئ الدين الحنيف التي تحقق أمن المجتمع وسلامته من كل مظاهر الفوضى التي تؤثر سلبًا على صورة الفرد والمجتمع في الداخل والخارج ، فالأمم والمجتمعات الراقية والمتقدمة تتمسك بالنظام وتأبى كل ألوان الفوضى وتنفر منها .

فعلى كلٍّ منَّا أن يحافظ على النظام ، وأن يكون أسوةً طيبةً لمن حوله وأن يقوم بدوره تجاه وطنه ، فالنظام سُنَّةٌ كونيةٌ ، وقيمةٌ إنسانيةٌ ، وضرورةٌ اجتماعيةٌ ، تعنى بها المجتمعات وتحرص عليها الأمم الراقية حتى يصير طبعًا وسلوكًا يُعمَلُ به في كل شئونها .

ولنعلم أن الإسلام في أحكامه وتشريعاته لا يعرف الفوضى ولا طريقها ، بل إنه يتبرأ منها ومن الداعين إليها ، لأنها سلسلة من السلبيات التي

تحول المجتمع إلى مجتمع مستهلك لا منتج ، مجتمع خائف لا يشعر بالأمن والأمان ، فحيثُمَا عمَّت الفوضى في مجتمعٍ عمَّ الفساد وضُيِّعَت الأوقات ، وأهدرت الطاقات ، وتبدّدت الجُهود ، ولا يجنى المجتمعُ منها إلا التخلف والفشل بداية من الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع .

ومما لا شك فيه أن مسئولية تحقيق النظام والحفاظ عليه تقع علينا جميعًا ، بداية من الأسرة باعتبارها النواة الأولى في بنيان المجتمع، لذا وجب على كل منا أن يقوم بدوره ، وعلى كل أسرة أن تقوم بدورها في تنشئة أولادها على النظام والسلوك القويم في كل أمورهم وأحوالهم يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتهِ الإمَامُ رَاعٍ وَمسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أهْلِهِ وَمسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.....) (متفق عليه) .

* * *

فهم مقاصد السنة النبوية ضرورة عصرية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم : {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[الأنفال: ٢٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإنه لا ينكر حجية السنة النبوية المطهرة وفضلها ومكانتها إلا جاحد أو معاند ، فقد أجمعت الأمة على أنها المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله (عز وجل) ، ومن ثمة كانت العناية الفائقة بها حفظًا ورواية ، وتدوينًا ، وتخريجًا ، وتنقية ، وفهمًا ، واستنباطًا.

على أن جميع النصوص التي وردت في القرآن الكريم تتحدث عن طاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتحذير من مخالفة أمره ، وتؤكد على حجية السنة وتنطق بها ، يقول الحق سبحانه وتعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠] ، ويقول سبحانه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧] ، ويقول سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران: ١٣٢].

بل إنَّ الله (عز وجل) جعل اتباع سنته (صلى الله عليه وسلم) من لوازم الإيمان وأماراته، وعلامة من علامات صدق العبد في محبته لله

(سبحانه) ، قال تعالى : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١] .

وقد أمر الله (عز وجل) بتعظيم أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) وحذر من مخالفته ، فقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣]، وقال تعالى : {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

كما بيّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن طاعته وامتثال أمره من طاعة الله (عز وجل) ، وأن معصيته من معصية الله ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ) (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (...فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) (متفق عليه)، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (متفق عليه).

على أنه ينبغي أن نعلم أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع ، شارحة ، ومفصلة ، ومبينة ، ومتممة للكتاب العزيز ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل: ٤٤] ، وقال تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}{فَضْلُ}[النساء: ١١٣]، ويقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢]، قال الحسن البصري ، والشافعي وغيرهما : الحكمة هي السنة.

إن الراسخين في العلم من أهل الفضل والحق يدركون مكانة السنة النبوية المشرفة ، وأن الفهم الصحيح للدين لا يتم إلا بفهم مقاصد السنة النبوية المطهرة ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلا إِنِّي أُوتِيتُ القُرآنَ ومِثلَهُ مَعَهُ) (مسند أحمد) ، وقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلاَلًا اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ) (سنن الترمذي).

غير أن هناك من يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزون الظاهر الحرفي منها إلى فهم مقاصد السنة النبوية المطهرة ومراميها ، فيقعون في العنت والمشقة على أنفسهم ، وعلى من يحاولون حملهم على هذا الفهم المتحجر ، دون أن يقفوا على فقه مقاصد السنة المشرفة ، بما تحمله من وجوه يسر وعظمة ديننا الحنيف ، والذي لو أحسنا فهمه وعرضه على الناس لغيّرنا تلك الصورة السلبية التي سببتها أو سوقتها الأفهام والتفسيرات الخاطئة للجماعات الإرهابية والمتطرفة والمتشددة ، ورؤى أصحاب الأفهام السقيمة الجامدة المتحجرة على حد سواء.

ورحم الله الحسن البصري حين قال: (إنّ قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ

قَوْلِ الْبَرِيّةِ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السّهْمُ مِنْ الرّمِيّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (متفق عليه).

وتعالوا بنا لنقف مع هذه الحادثة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) واختلاف الصحابة في فهم مقصد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكيف كان ردُّ فعله (صلى الله عليه وسلم)، فيهود بني قريظة قد نقضوا عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في يوم الأحزاب ، فلما ردَّ الله (عز وجل) الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه : (لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ) فانطلقوا مسرعين نحوها، فأدركهم الوقت، وأوشك على الانقضاء، ولم يصلوا إلى بغيتهم، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نصل بني قريظة، وقال آخرون : لم يُردْ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منا ذلك، إنما أراد الإسراع بالمسير ، فصَلُّوا قبل أن يَصِلوا إلى بني قريظة ، فلم ينكر النبي (صلى الله عليه وسلم) على هؤلاء ولا على أولئك (متفق عليه).

ونأخذ من ذلك أن في الأمر سعة ، وفيه متسع للرأي والرأي الآخر ، طالما أن النص يحتمل ذلك ، وطالما أن المجتهد أهلٌ للاجتهاد والنظر، وله وجهة علمية يبنى ويحمل عليها ، أما أن يتحجر بعض من لا علم لهم عند ظواهر النصوص دون فهم لمقاصد الأمور ، فهذا هو عين التعصب والجمود.

على أننا نؤكد أن الجهل بفقه الخلاف يؤدي إلى التعصب للرأي والانتصار له بل وربما المعاداة من أجله ، ولن نستطيع القضاء على كل

هذه الأفكار السلبية إلا بالفهم الصحيح لمقاصد الشارع الحكيم من كتاب ربنا وسنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وتربية النشء على تعلم أدب الخلاف ، واحترام الرأي الآخر ، وكان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: (رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب) (الأم للشافعي).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

إذا أردنا أن نقف مع بعض الأمثلة اليسيرة للفهم المقاصدي ، فلنأخذ مثالا لذلك: قوله (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ) (صحيح البخاري)، والمراد بـ (دَاخِلَة الْإِزَار) طرفه، فيُسْتَحَبّ أَنْ يَنْفُض الإنسان فراشه قبل أَنْ يَدْخُل فِيهِ بطرف ثوبه لِئَلَّا يَحْصُل فِي يَده مَكْرُوه، فلو وقفنا عند ظاهر النص فماذا يصنع من يلبس ثوبًا يصعب الأخذ بطرفه وإماطة الأذى عن مكان النوم به كأن يرتدي لباسًا عصريًّا لا يمكنه من ذلك .

ولو أخذنا بالمقصد الأسمى وهو تنظيف مكان النوم والتأكد من خلوه مما يمكن أن يسبب للإنسان أي أذى من حشرة أو نحوها ،

لتأكدنا أن الإنسان يمكن أن يفعل ذلك بأي وسيلة تحقق المقصد وتفي بالغرض ، فالعبرة ليست بإمساك طرف الثوب ، وإنما بما يتحقق به نظافة المكان والتأكد من خلوه مما يمكن أن يسبب الأذى ، بل إن ذلك قد يتحقق بمنفضة أو نحوها أكثر مما يتحقق بطرف الثوب ، لكن النبي (صلى الله عليه وسلم) خاطب قومه بما هو من عاداتهم وبما هو متيسر في أيامهم حتى لا يشق عليهم في ضوء حياتهم البسيطة.

فمن شابهت حياتُه حياتهم فلا حرج عليه إن أخذ بظاهر النص ، غير أن محاولة حمل النـاس جميعًا مع كل ألوان تطـور الحيـاة العصـرية على الأخـذ بظاهر النص ظلم كبير في فهم مقصده .

ومن أمثلة الفهم المقاصدي كذلك: ما يتصل باستخدام السواك الذي تحدث عنه الفقهاء ، فقالوا في حكمته: مطهرة للفم، ومرضاة للرب، وإصابة للسنة، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (لَوْلَا أَنْ أَشُقّ عَلَى أُمّتِي أَوْ عَلَى النّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ) (صحيح البخاري)، وفي رواية: (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ معَ كُلِّ وُضُوءٍ) (مسند أحمد)، والقصد من السواك: طهارة الفم، والحفاظ على رائحته الطيبة، وإزالة أي آثار لأي رائحة كريهة مع حماية الأسنان وتقوية اللثة ، وهذا المقصد كما يتحقق بعود السواك المأخوذ من شجر الأراك يتحقق بكل ما يحقق هذه الغاية ، فلا حرج مِن فعل ذلك بعود الأراك أو غيره كالمعجون وفرشاة الأسنان.

أما أن نتمسك بظاهر النص ونحصر الأمر حصرًا ونقصره قصرًا على عود السواك، ونجعل من هذا العود علامة للتقى والصلاح بوضع عود أو عودين أو ثلاثة منه في الجيب الأصغر الأعلى للثوب مع تعرضه – غالبًا –

للغبار والأتربة والتأثيرات الجوية ونظن أننا بذلك فقط دون سواه إنما نصيب عين السنة ، ومن يقوم بغير ذلك غير مستنٍ بها ، فهذا عين الجمود والتحجر لمن يجمد عند ظاهر النص دون فهم أبعاده ومقاصده ، لذا فنحن في حاجة إلى قراءة مقاصدية عصرية للسنة النبوية، تتواكب مع روح العصر ومستجداته، وتقرب السنة النبوية العظيمة إلى الناس بدلًا من الأفهام السقيمة التي تنفر الناس من السنة ولا تقربهم منها .

إن الشريعة الإسلامية شريعة سمحاء لا تعرف الجمود ولا التشدد ، إنما هي شريعة التيسير والمرونة والسعة وكل ما فيه صالح البلاد والعباد .

❊ ❊ ❊

أثر الدين في سعادة الناس
وضبط ميزان الحياة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعـــد :

فإن الدين فطرة الله التي فطر الناس عليها ، حيث يقول الحق سبحانه: {فِطْرَت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠] ، ويقول سبحانه: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣] ، ويقول (عز وجل) في الحديث القدسي: (وإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا) (صحيح مسلم).

ولقد أرسل الله (عز وجل) الأنبياء والمرسلين بالشرائع التي تنظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بأخيه الإنسان ، وعلاقته بالكون كله ؛

ليتحقق في الأرض الحق والعدل ، حيث يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}[الحديد: ٢٥] ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبيه داود (عليه السلام): {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦] .

ومما لا شك فيه أن الشرائع السماوية كلها قد جاءت لتحقق السعادة للبشرية جمعاء ، يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم): {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ١ ، ٢] .

والمتدبر لكتاب الله (عز وجل) لا يخفى عليه أن رسالات الأنبياء والرسل غايتها هداية الخلق ، وإقامة الحق والعدل ، ونشر الهدى والنور ومكارم الأخلاق ، وتحقيق الرحمة للعالمين في الدنيا والآخرة ، فها هو خطيب الأنبياء شعيب (عليه السلام) يدعو قومه إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان ، فيقول كما حكى القرآن الكريم على لسانه: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الشعراء: ١٨١ – ١٨٣] ، وهذا نبي الله صالح (عليه السلام) يقول لقومه: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٠–١٥٢] .

وعندما نقف مع الهدف الأسمى لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين نجد أنه يقوم على ركيزتين أساسيتين ؛ الأولى: في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، وهي أخص خصوصيات رسالة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، أما الركيزة الثانية : فهي الأعم وتتضمن الأولى وتدعمها وتؤكدها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ} (مسند أحمد).

فلا خلاف أن الشرائع السماوية كلها قد أجمعت على ما فيه خير البشرية ، وما يؤدي إلى سلامة النفس والمال والعرض ، وقيم: العدل ، والمساواة ، والصدق ، والأمانة ، والحلم ، والصفح ، وحفظ العهود ، وصلة الأرحام ، وحق الجوار ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، وهي كلها مبادئ إنسانية عامة ، لم تختلف عليها الشرائع السماوية ، ولم تنسخ في أي شريعة منها ، حيث يقول الحق سبحانه: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام: ١٥١–١٥٣] ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهي محرمات على بني آدم جميعًا ، وهن أم الكتاب – أي أصله وأساسه – ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار .

فالدين الحقيقيّ الذي شرعه الله (عز وجل) لعباده ميزانٌ قويمٌ لضبط سلوك الإنسان ، وقيمه ، وأخلاقه ، وحسن مراقبته لله (عز وجل) ، ليس في عباداته التي يتوجه بها إلى الله (عز وجل) فحسب ؛ بل في سائر حركاته وسكناته ، سرِّه وعلنه ، رضاه وغضبه ، عمله وعلاقاته ، وسائر تصرفاته ، وهو صمام أمان للبشرية جمعاء ؛ لذا فإن الدين فن صناعة الحياة ، وعمارة الكون ، وهو الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله (عز وجل) للبشرية ، حيث يقول سبحانه : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

أما الإلحاد والخروج على منهج الله وفطرته التي فطر الناس عليها ، فله مفاسد وشرور لا تُحصى ولا تُعد على الفرد والمجتمع ، والأمم والشعوب ، منها : اختلال القيم ، وانتشار الجريمة ، وتفكك الأسرة والمجتمع ، والفراغ الروحي ، والاضطراب النفسي ، وتفشي ظواهر خطيرة كالانتحار ، والشذوذ ، والاكتئاب النفسي .

فالسير في طريق الإلحاد والضلال مُدمِّر لصاحبه ، مُهلِك له في دنياه وآخرته ، فواقع الملحدين مُرٌّ ، مليء بالأمراض والعقد النفسية ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}[طه: ١٢٤ – ١٢٧] ، ويقول سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٨].

الدينُ الحقيقي ليس جزءًا من مشاكل واقعنا المعاصر ، ولا يمكن أن يكون ، ومن يقول ذلك فهو ظالمٌ للأديان كلِّها ، الدين الصحيح الرشيد القويم جزء من الحل دائمًا ، فالأديانُ رحمة ، والأديانُ سماحة ، والأديانُ هداية ، والأديانُ بناءٌ لا هدم فيه ؛ إنما المشكلة في المتاجرين بالدين ، وعلينا كشفهم وبيان أمرهم والتصدي لهم ، وفِي الذين لا يحسنون فهم الدين الحقيقي ، وعلينا بالحكمة والموعظة الحسنة بذل الجهد لتعليمهم ، ومن ثم فإنه يجب على علماء الدين المخلصين بيان صحيح الدِّين ، وردُّ الناس إليه ردًّا جميلاً ، لا عنف فيه ، ولا إكراه ، ولا إفراط ، ولا تفريط ، ولا غُلُوّ ، ولا تقصير .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إن جوهر الأديان السماوية يجمع بين القيم والمثل الإنسانية التي تجسد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة في شموليتها لجميع جوانب الحياة ، فلم تترك فضيلة من الفضائل إلا دعت إليها ورغبت فيها ، وحثت على التمسك بها ؛ لتكون أساسًا للتعايش السلمي بين البشر جميعًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) (صحيح البخاري) ، وكان من

تعاليم سيدنا عيسى (عليه السلام) لأتباعه (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) ، وجاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق التي جاءت بها الرسالات السابقة ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (مستدرك الحاكم) .

نحن في حاجة إلى فهم صحيح للدين ، وتطبيقٍ واعٍ لهذا الفهم الصحيح ؛ لضبط ميزان حياتنا ، وتحقيق سعادتنا في الدارين ، فإن جميع الأديان السماوية قائمة على عمارة الكون ، والعمل والإنتاج ، وعلى رعاية الحقوق والواجبات ، كحق الأسرة ، وحق الأبناء ، والأوطان ، وتحري الحلال ، إعمارًا للأرض ، وتحقيقًا للسعادة والتقدم ، ونفعًا للبشرية جمعاء ، قال تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥] ، وهو ما لو التزمنا به ، وفهمناه فهمًا صحيحًا ، وطبقناه تطبيقًا واعيًا لنلنا سعادة الدنيا والآخرة .

وعندما رأى أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلًا قويًّا جلدًا نشيطًا خرج مبكرًا إلى العمل ، فأعجبوا بقوته ونشاطه قالوا ما أجمل هذه القوة!! ما أجمل هذا النشاط لو كان في سبيل الله ؟! فوضح لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) المفهوم الشامل لكلمة (في سبيل الله) لبيان قيمة العمل وأهميته وترغيب الإسلام فيه ، فعَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ ، قَالَ : مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى

عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) (المعجم الكبير للطبراني) ، وما ذلك إلا لترسيخه (صلى الله عليه وسلم) لقضية العمل وقضية الإنتاج ، وقضية الإتقان ، فحيث تجد العمل والإتقان تجد سعادة الإنسان وتطبيق الأديان ، وحيث تجد البطالة والكسل والتخلف عن ركب الحضارة فاعلم أنه لا علاقه لذلك لا بالإسلام ، ولا بالأديان في شيء .

* * *

من أوجه العظمة في الحضارة الإسلامية

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن الحضارة الإسلامية عظيمة وعريقة ، وتراث المسلمين مليء بالكنوز والجواهر الثمينة التي اندثرت عبر تاريخ طويل، ولا ينبغي أبدًا أن تكون حالة الضعف والتردّي الحضاري التي يعانيها المسلمون اليوم محبطة ومثبطة لعزائمنا، فهي مرحلة مؤقتة لا تساوي في عمر الزمن شيئًا.

لقد بنى المسلمون حضارتهم على دعائم قوية وقيم أخلاقية راسخة ، كالعدل ، والرحمة ، والحق ، والموازنة بين متطلبات الروح والجسد ، والموائمة بين كل طبقات المجتمع .

والعدل من أهم أسس الحضارة الإسلامية ، ومن ملامحها التي تدل على عظمتها ، إنه من أهم مُقَوِّمَاتِ الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية في المجتمع المسلم ، وقد جعل القرآن الكريم هدف إرسال الرسل هو إقامة العدل، فقال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}[الحديد: ٢٥]، فعظمة النظام الإسلامي تتجلى في أنه يقود أتباعه إلى العدل مع العدو كالصديق، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨]، يعني لا يحْمِلَنَّكم بغض قوم على ظلمهم.

إن العدل في تراث المسلمين وثقافتهم ودولتهم شمل الراعي والرعية، شمل كل طبقات المجتمع دون تمييز أو انحياز بين عظيم وحقير ، فهذا الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يكتب رسالة إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة قائلاً له : انظر الأرض التي يخاصم فيها فلان القائد فلانًا التاجر فادفعها إلى فلانٍ القائد . فكتب إليه سوار: إن البينة قد قامت عندي أنها لفلانٍ التاجر ، فلست أخرجها من يديه إلا ببينة ، فكتب إليه أبو جعفر المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتَدفعنَّها إلى فلان القائد! فكتب إليه سوار : والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يد فلانٍ التاجر إلا بحق ! فلما جاءه الكتاب قال أبو جعفر: ملأتُها والله عدلاً، صار قضاتي يردوني إلى الحق. [تاريخ دمشق لابن عساكر].

إنه العدل الذي هو أساس الملك ودعامة من أهم دعائم نهضة الأمم، ولهذا قيل: إنّ اللهَ ينصرُ الدولةَ العادلةَ ولو كانتْ كافرةً، ويخذُلُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً .

وهذا الأصل الحضاري الإسلامي العظيم – العدل – لم يقف عند حدود المسلمين بل أنصف غير المسلمين في الدولة الإسلامية لدرجة جعلت أحد قضاة المسلمين يحكم لصالح نصراني يخاصم الخليفة، فعن جابر الجعفي عن الشعبي قال: وجد عليٌّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شُريح القاضي يخاصمه، قال: فجاء عليٌّ فقال: هذا الدرع درعي ولم أبع ولم أهب، فقال شريح

للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شُريح إلى عليّ فقال: يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح، مالي بينة ، فقضى بها شريح للنصراني ، قال فأخذه النصراني ومشى خُطىً ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه يقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق [أي سقطت الدرع] فقال: أما إذ أسلمت فهي لك، وحمله على فرس. (البداية والنهاية لابن كثير).

فما أعظمه نظامًا، وما أعرقها حضارة تلك التي يظلل العدل فيها كل أطياف المجتمع، لقد سادت في حضارة الإسلام ودولته على مر تاريخها وعبر مراحلها المختلفة مفاهيم تهدف إلى القضاء على كل نظم التعسف والاستبداد والإذعان المذل، وعلى كل ما فيه اضطهاد وتنكيل ونيل من كرامة الإنسان وكل ذلك لإعادة كرامة الإنسان إليه ورفعه إلى مستوى الإنسانية اللائق به بغض النظر عن لونه أو جنسه انطلاقًا من قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: ١٣].

وإذا كان الناس قبل الإسلام قد انقسموا إلى سادة وعبيد فقد سوى الإسلام بين بني الإنسان، ويكفي هنا أن نذكر قول النبي (صلى الله

عليه وسلم) : "مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ"(سنن النسائي)، وبذلك رفع قدر الرقيق إلى الدرجة التي جعلت ذكوان – وكان بصحبة الحسين (رضي الله عنه) يقول لابن الزبير (رضي الله عنهما) وهو من سادات العرب وفي مجلس معاوية (رضي الله عنه) خليفة المسلمين: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ"، وأنا مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت ابن الزبير بن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولاءً وأحسن فعلًا.

ومن أهم الدعائم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية : الرحمة ، وتبدو عناية الإسلام ببثّ خلق الرحمة في قلوب أتباعه من أول وهلة في القرآن الكريم، فقد افتتحت سور القرآن الكريم كلها – عدا سورة التوبة – بالبسملة التي تشتمل على اسمين من أسماء الله عز وجل – الرحمن الرحيم – دون غيرهما، ففي ذلك دلالة على تقديم الرحمة في الإسلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"(صحيح البخاري)، وقد بعث الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) رحمة لجميع خلقه، يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، ومن رحمته (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يعطف على الأطفال ويرقّ لهم، ويقبّلهم ويضمّهم ويداعبهم، وجاءه ناس من الأعراب فرأوه يُقبّل الحسن بن علي (رضي الله عنهما) فتعجّبوا وقالوا: تُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَقَالُوا: لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقَبِّلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "وَأَمْلِكُ أَنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ" (متفق عليه)، ولم تكن مواقف عنايته ورحمته بالأطفال بالمواقف العابرة، بل كانت سمته (صلى

الله عليه وسلم) لدرجة أن الأطفال لتعلقهم به كانوا يستقبلونه إذا جاء من سفر ليداعبهم، وكأنه ليس أمامه من الهموم والمشاغل غيرهم! يقول عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنهما): كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ قَالَ: فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلاثَةً عَلَى دَابّةٍ"(صحيح مسلم)، لقد شملت رحمته (صلى الله عليه وسلم) البهائم التي لا تعقل، فكان يحثّ الناس على الرفق بها حتى عند الذبح، فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ" (صحيح مسلم)، كما حثَّ على عدم تحميلها ما لا تطيق، فقد دَخَلَ (صلى الله عليه وسلم) حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَنَّ إِلَيْهِ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَسَحَ ذِفْرَتَهُ فَسَكَنَ فَقَالَ: "مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ"؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ قَالَ: فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ:" أَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا"؟! فَإِنَّهُ شَكَا لِي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ" (المستدرك للحاكم).

إنها الرحمة التي حث عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبرنا أنه لن يرحم الله تعالى إلا أصحابها، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "الرَّاحِمُونَ

يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ"(سنن الترمذي)، ولذا لا تعجب حين ترى أن الله تعالى أدخل امرأة النار بسبب حبس قطة وذلك لقساوة قلبها ، وأنه تعالى أدخل رجلا الجنة بسبب رحمته بكلب يلهث من شدة العطش فيرقُّ له ويرحمه ويسقيه.

على هذا النحو سار المجتمع المسلم فصار متراحمًا يرحم فيه القوي الضعيف، لا يهان فيه يتيم، ولا يذل فيه محتاج، يقوم كل راعٍ فيه بواجبه نحو رعيته، فهذا عمر بن عبد العزيز حاكم الدولة الإسلامية الواسعة يشغله حال امرأة سوداء في مصر ، فلقد أرسلت المرأة رسالة إلى الخليفة – وكان بريد عمر (رضي الله عنه) يحمل إليه أي رسالة وإن كانت من آحاد الناس، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرا وأنه يُقتحم عليها منه فيُسرق دجاجها، فكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرت من قِصَر حائطك وأنه يُدخل عليك منه فيُسرق دجاجك، فقد كتبت لك كتابًا إلى أيوب بن شرحبيل – وكان أيوب عامله على مصر – آمره أن يبني لكِ ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله والسلام"، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت إليّ تذكر قِصَر حائطها وأنه يُسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها،

فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها وإذا هي سوداء مسكينة فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها (سيرة عمر لابن عبد الحكم).

ومن أعظم السمات التي تميزت بها الحضارة الإسلامية أن كونت مجتمعًا مترابطًا تجمع الأخوةُ جميعَ أعضائه، فلم تهتم الحضارة الإسلامية فقط بالفرد كفرد، وإنما اهتمت به باعتباره وحدة لبناء المجتمع، هذه الأخوة فرضها الله تعالى علينا وربط بها بين جميع المؤمنين، يقول تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠]، والآية التي بدأت بإثبات الأخوة بين المسلمين ختمت بقوله "وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" أي: اتقوا الله فيما ذكر في هذه الآية من الأخوة لعلكم ترحمون، فتأمل كيف علق الله تعالى الرجاء في رحمته على مراعاة الأخوة!! وكأن الله تعالى يقول لنا : لن أرحمكم حتى يرحم بعضكم بعضًا.

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن من أجلّ النعم التي امتنّ الله تعالى بها على نبيه (صلى الله عليه وسلم) وعلى الصحابة معه : الاعتصام بحبل الله تعالى والتأليف بين قلوبهم، يقول تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ

اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }[آل عمران: ١٠٣]، إن هذا الاتحاد والتكاتف بين جميع المسلمين من أهم سمات هذا الدين العظيم ، وإنك لتستشعر ذلك كل صلاة وأنت تقرأ الفاتحة حين تصل إلى قول الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٥، ٦] .

فأنت وحدك تصلي وتناجي ربك، فلماذا لم تكن الآية الكريمة : "إياك أعبد وإياك أستعين" بصيغة المفرد؟ ولماذا لم تكن " اهدني الصراط المستقيم"؟ ذلك لأن الله تعالى يريدك أن تتحدث بلسان الأمة كلها، يريد الأمة كلها جسدًا واحدًا وكيانًا واحدًا، وفي صلاة الجماعة غاية العبرة، لقد جعل الله تعالى فضلها على صلاة المنفرد سبعًا وعشرين درجة، فلماذا؟ مع أن قائلاً قد يقول: أنا في بيتي وحدي أقرب إلى الخشوع وأبعد عن رؤية ما يصرفني عن خشوعي، ولا يكون ثمة مجال لأن يراني الناس فيدخل في نفسي شيء من الرياء! نقول: لا ، إن الله تعالى لا يريدك وحدك ولكن يريدك وسط الصف مع إخوتك المسلمين، مع الكيان الكامل للأمة.

هذا المنهج الإسلامي الذي قامت عليه أعظم حضارة هو المنهج الذي تربى عليه قوم غلبهم حب إخوانهم فآثروهم على أنفسهم مع شدة حاجتهم، {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر:

٩]، ولهذا لم يرَ التاريخ البشري على امتداده مثل هذه الصور التي حدثت من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم الهجرة، يتكافلون ويتكاتفون، عَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا ، وَمَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ بِأَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَلَا دِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ (مصنف ابن أبي شيبة)، هذه الأخوة حين جمعت قلوب المسلمين صارت الأمة كيانًا متماسكًا قويًا، أما حين خفتَ ضوؤها وتغلبت الأثرة والأنانية على الكثيرين حل الضعف في المجتمع وضعُفَ كيان الأمة.

ولقد كانت الحضارة الإسلامية في جوهرها التزامًا أخلاقيًا قبل أن تكون حضارة إنتاج واستهلاك فالجانب الأخلاقي – والذي غاب عن حضارات الدنيا قديمًا وحديثًا – أهم مرتكزات الحضارة الإسلامية، ومع هذا الالتزام الأخلاقي ومع هذا المنهج القويم برع المسلمون في النواحي العلمية وقدموا إسهامات غيرت وجه التاريخ، وما من علم من العلوم الحديثة إلا وفيه أصول إسلامية عربية تبدو لمن يبحث في تاريخ هذه العلوم، وما ذلك إلا لأن الإسلام حرر عقل المسلم ليتيح أمامه الإفادة من علوم الدنيا كلها فهضمتها العقلية الإسلامية وأضافت إليها من إبداعات المسلمين ما جعلها حضارة لا تماثلها حضارة، حضارة متكاملة تجمع بين الجانب الأخلاقي والجانب المادي، فالحضارة الإسلامية تتسم بالشمول والتكامل، فهي تنظيمٌ كامل لعلاقة الإنسان بالكون والحياة وعلاقته بربه سبحانه وتعالى، ثم هي تنظم علاقته مع بني جنسه، إنها حضارة الاعتدال والوسطية، وسطية ليس فيها غلو في جانب الروح ولا طغيان في جانب المادة، وسطية توائم بين حقوق الفرد ومتطلبات

المجتمع، وسطية تُعنى بعمارة الدنيا لكن هدفها الأسمى هو الآخرة، وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[البقرة: ١٤٣]، فما أحوجنا إلى أن نعود إلى هذه المبادئ والقيم الأخلاقية والدعائم الحضارية التي تميزت بها حضارتنا عبر التاريخ والتي فيها مساعدتنا في المستقبل .

* * *

الانتماء للوطن وفضل الشهادة في سبيله

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[آل عمران: ١٦٩] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن حب الوطن والانتماء إليه قيمة إسلامية أصيلة ، فهو أغلى ما ينعم به الإنسان بعد الإيمان بالله ورسوله، كما أنه فطرة جبلت عليها الطباع السليمة، وأمر يوجبه الشرع الحنيف، وتفرضه الوطنية المخلصة حيث سوى الله تعالى بين قتل النفس والإخراج من الديار في صعوبة كل منهما على النفس البشرية، فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ...} [النساء: ٦٦].

ولقد ضرب لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة في حب الوطن ، حيث قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِمَكَّةَ: (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِي مَنك ما خرجت) (صحيح ابن حبان).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يقلب وجهه في السماء رجاء أن يجعل الله قبلته إلى بيته الحرام بمكة المكرمة مسقط رأسه (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول الحق سبحانه : {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ...}[البقرة: ١٤٤] .

إن الانتماء للوطن يوجب على أبنائه أن يعتزوا به ، وأن يتكاتفوا جميعًا للحفاظ عليه ، وأن يُسهموا بقوة فِي نهضته بالعلم والعمل والإنتاج والمشاركة في الأعمال التطوعية التي تخدم المجتمع ، والمرابطة على ثغوره لتأمين حدوده، وردع كل حاقد تسول له نفسه أن يعتدي على الوطن أو منشآته أو ممتلكاته ، وإن أدى ذلك إلى بذل النفس والمال لنيل الشهادة في سبيل الله دفاعًا عن الوطن أو ارتقاءً به.

لذا جعل الإسلام حراسة الأوطان والدفاع عنها واجبًا شرعيًا وضرورة وطنية وعدّها من أفضل الأعمال عند الله تعالى، وقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) حراس الوطن بأن النار لن تمس أجسادهم ، بقوله (صلى الله عليه وسلم): (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله) (سنن الترمذي)، والعين هنا مراد بها الجسد كله ، غير أنه (صلى الله عليه وسلم) عبَّر بالعين كونها تحرس وتراقب.

وفي هذه الأيام المباركة تحتفل مصر وشعبها بذكرى من أعظم الذكريات ، هي ذكرى انتصار أكتوبر المجيدة، وفيها لا بد أن نذكر شهداء مصر الأبرار الذين خاضوا معارك العزة والكرامة، وبذلوا الغالي والنفيس، بل بذلوا أرواحهم دفاعًا عن أرضهم، وعرضهم، ووطنهم وسطروا أسمى معاني البطولة والفداء والتضحية بكل ما يملكون، فنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة .

والشهادة تعني بذل النفس والمال نصرة لدين الله (عز وجل) ، ودفاعًا عن الوطن والأرض والعرض والمال، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مالي؟ قَالَ: (فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ) قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ : (قَاتِلْهُ) قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ : (فَأَنْتَ شَهِيدٌ) قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ؟ قَالَ: (فَهُوَ فِي النَّارِ) (صحيح مسلم).

والشهادة تجعل صاحبها في صحبة الأنبياء والصديقين ، فقد جمع الله تعالى بين النبوة والشهادة في قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] ليؤكد على فضل الشهادة ، ومكانة الشهداء عند الله (عز وجل) ، فهم أرفع الناس درجة بعد الأنبياء والصديقين ، وهم المصطفون باصطفاء الله لهم ، قال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}[آل عمران: ١٤٠] ، لذا وعدهم الله بحياة فوق إدراك البشر لا مثيل لها ، فهم في ذاكرة الأمة مخلدون وعند ربهم (عز وجل) أحياء يرزقون قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[آل عمران: ١٦٩]، أرواحهم في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة كيف شاءت ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ

إِخْوَانَنَا أَنَّا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ ، لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] (صحيح مسلم).

فهنيئًا لرجال مصر الأوفياء وشهدائنا الأبرار خاصة الذين أحيوا في شعب مصر روح الكرامة والمروءة والعزة ، واستطاعوا أن يحفظوا لمصر مكانتها وهيبتها بين الأمم والبلاد ، والذين ما زالوا يبذلون نفوسهم في سبيل هذا الوطن لمواجهة الإرهاب الأسود الغاشم ، والجماعات التكفيرية الضالة المضلة.

إن فضل الشهادة في سبيل الله ، والرغبة فيما عند الله هو الذي جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول لأصحابه في غزوة بدر : (قوموا إلى جنَّةٍ عرضُها السَّمَواتُ والأرضُ..) (صحيح مسلم)،كما جعل حنظلة (رضي الله عنه) يطلب الشهادة ليلة عرسه فينالها فيلقب بغسيل الملائكة، ولن ينسى المسلمون موقف أنس بن النضر (رضي الله عنه) في يوم أحد (صحيح مسلم)، وخالد بن الوليد في يوم مؤته ، وعمرو بن الجموح وغيرهم من الصحابة والتابعين.

إنهم أصحاب الصفقة الرابحة مع الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ}[الصف: ١٠، ١١] ، فهم الذين تاجروا مع الله بأنفسهم وأموالهم ، فوعدهم الله جنة عرضها السموات والأرض فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}[التوبة : ١١١]، فالسِّلعة أرواحهم ودماؤهم، والثمن هو الجنة ، إنها ليست جنة واحدة وإنما هي جنان ، حيث قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لأم حارثة حين استشهد ولدها في غزوة بدر: (يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى) (صحيح البخاري) .

إن فضل الشهادة في سبيل الله جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) يتمنى أن لا يتخلف عن سرية، وأنْ يُقتَل في سبيل الله مرات عديدة فقال (صلى الله عليه وسلم): (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ) (متفق عليه)، وهو ما يجعل الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا لينال الشهادة في سبيل الله عدة مرات ، يقول: (صلى الله عليه وسلم): (مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرُ الشَّهِيدِ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ) (متفق عليه) ؛ لأجل ذلك أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الشهيد لا ينقطع عمله الصالح ، بل يزيدُ ويتضاعف ويأمن من فتنة القبر ، قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ) (سنن الترمذي).

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

لقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) الشهداء ببشارات عظيمة تؤكد على فضل الشهادة في سبيل الله وترغب فيها ، منها قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ) : (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ) (سنن ابن ماجه) .

ومنها أن الشهداء يدخلون الجنة مع أول من يدخلونها بغير حساب ولا سابقة عذاب ، فعن عَبْد اللَّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (...إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَرِيِّهَا فَيَقُولُ: أَيْنَ عِبَادِيَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِي ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَلَا عَذَابٍ فَتَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَحْنُ نُسَبِّحُ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا ؟ فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ كُلِّ بَابٍ {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[الرعد: ٢٤] (مسند أحمد) .

* * *

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊